

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإسلام في نيجيريا

والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

المجاهد الإسلامي الأكبر بغرب إفريقيا
والجد الأعلى للشهيد أحمد بللو

تأليف

آدم عبد الله الإلوري

تقديم

عبد الحفيظ أولادوسو

دار الكتاب المصري
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب اللبناني
بيروت

يستهدف هذا المشروع إعادة عرض كتابات النهضة وأعلامها في العالم الإسلامي، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (١٩-٢٠م)، ويتوجه إلى قطاع عريض من القرّاء والمثقفين من طلاب الجامعات والمعاهد والباحثين المهتمين بالفكر النهضوي في تراثنا؛ كي يتمكنوا من الاطلاع على أفكار هؤلاء الرواد وأعمالهم، والتي تتعرض للأسئلة والتحديات التي واجهت الأمة العربية والإسلامية، لدى احتكاكها بالعالم الغربي منذ بدايات القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وكيف حاول علماء الأمة ومفكروها الاجتهاد في الإجابة عن هذه الأسئلة والتحديات في زمانهم. وما زال كثير من تلك القضايا مطروحًا علينا؛ مما يلقي على علماء الأمة ومفكريها الآن استيعاب تلك الأفكار والاسترشاد بها ومن ثَمّ مسئولية الاجتهاد في هذه القضايا من منطلق متغيرات العصر.

دار الكتاب اللبناني
بيروت

الإسلام في نيجيريا

والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

(38)

هــذا الكـتــاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٦٩هـ/١٩٥٠م) لأجل سدّ الفراغ في المكتبات عن الإسلام في إفريقيا، وخاصة بلاد السودان الغربي أو بلاد «التكرور» -نيجيريا- التي دخلها الإسلام منذ نحو ألف سنة مضت، لتصبح جزءًا من العالم الإسلامي، ومنطقة ذات ثقافة مكتملة وحضارة مزدهرة. ولكنها انطوت منذ عصور في زوايا المجاهيل من أثر ما أصابها من تدهور وانحطاط وحروب؛ فجاء الكتاب ليكشف اللثام عن هذه الجهات المجهولة، ويثلج بعض الصدور الغليلة. ويبيِّن الدور والنقلة اللتين أحدثهما الإسلام في نيجيريا منذ دخوله تلك البلاد، وتاريخ ذلك وتأثيره على حياة الناس ومعيشتهم وثقافتهم.

كذلك يتناول الكتاب دور واحد من أبرز مُصلحي هذه المنطقة ألا وهو الشيخ عثمان بن فوديو الفلاني وآثاره الإصلاحية، والذي يعتبر المؤلف امتدادًا لمدرسته.

سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور - حنان عبد الرازق - نهى عمر

اللجنة العلمية

محمد عمارة — محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري — منى أبو زيد

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

تصميم جرافيكي: عاطف عبد الغني

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان — محمد القاسم

الأعمال التحضيرية والمتابعة

هدى سيد - شيماء التركي

مراجعة لغوية: فاطمة الزهراء صابر



الإسلام في نيجيريا

والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

المجاهد الإسلامي الأكبر بغرب إفريقيا
والجد الأعلى للشهيد أحمد بللو

تأليف
آدم عبد الله الإلوري

تقديم
عبد الحفيظ أولادوسو

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

الإلوري، آدم عبد الله، 1917-1992.

الإسلام في نيجيريا و الشيخ عثمان بن فوديو الفلاني / تأليف آدم عبد الله الإلوري ؛ تقديم عبد الحفيظ أولادوسو. — الإسكندرية : مكتبة الإسكندرية ، 2014.

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-246-4

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الإسلام — نيجيريا. أ. أولادوسو، عبد الحفيظ.

ب. مكتبة الإسكندرية. ج. العنوان. د. السلسلة.

ديوي — 297.09669 2013692543

ISBN: 978-977-452-246-4 رقم الإيداع: 17649/2013

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدّمتاه للمشروع.

مصر - ٣٣ شارع قصر النيل- القاهرة - تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨/٢٣٩٣٤٣٠١/٢٣٩٢٤٦١٤

ص.ب. العتبة الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع، فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)+

لبنان - بيروت شارع مدام كورى تجاه فندق بريستول - بيروت - تليفون ٧٣٥٧٣٢، فاكس / ٩٦١١٣٥١٤٣٣ +

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

First Edition

A.D. 2014 - H 1435

Website: www.daralkitabalmasri.com

E-Mail: info@daralkitabalmasri.com

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين».

المحتوى

كتاب

الإسلام في نيجيريا

والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلادِيَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب

المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبـة الإسكندرية، إنما تعـبِّر عن وجهة نظر مؤلفـيها.

تقديم

عبد الحفيظ أولادوسو

أولاً: دخول الإسلام في غرب أفريقيا وعصر الإلوري

منذ الفترات الأولى لانتشار الإسلام في شمال أفريقيا خلال القرن (الأول الهجري/ السابع الميلادي) بدأ الإسلام يغزو الصحراء جنوبا، ثم بدأت قوافل التجارة تحمل معها دعوة الإسلام وسماحته إلى بلاد الساحل والصحراء، مما مَهَّد لقيام عدد من الإمارات الإسلامية التي مَكَّنت بدَورها لحركة الثقافة الإسلامية بدءاً من القرن الحادي عشر الميلادي الذي شهد تحول غانا إلى الإسلام، وانحياز إمارات التكرور إلى عقيدته، إضافة إلى تحول الإسلام حول بحيرة تشاد في السودان الأوسط إلى قوة حاكمة بظهور مملكة كانم التي نجحت في بسط سلطانها السياسي على كثير من المناطق المجاورة بما في ذلك مناطق الهوسا في شمال نيجيريا، فانتقلت الثقافة الإسلامية إلى تلك البقاع بعد أن سادت في كانم.

وباستمرار التواصل بين هذه المملكة وبلاد الهوسا إضافة إلى المصاهرة والهجرات المتتالية والتجارة والحج، وتدفق العلماء، انتشرت الثقافة الإسلامية

في شمال نيجيريا وولاياتها التاريخية؛ حيث وصلت كانو إلى ذروتها في الثقافة الإسلامية العربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي، فلحقت بها ولايات أخرى في شمال البلاد كولاية كشنة وزكزك وغيرها، فصارت جميعها ولايات إسلامية تعج بالمدارس القرآنية[١]. بدأت طلائع الدعوة الإسلامية في الاتجاه جنوباً نحو حزام السافانا الغنية ومشارف الغابات في الجنوب النيجري عن طريق هجرات عدد من الهوساويين والبرناويين وغيرهم من التجار الذين تكاثرت أعدادهم فأسسوا عدداً من المدن والقرى ومنها (ربوة السنة) التي تأسست حوالي ١٧٠٠م، وبدأ ظهور عدد من المساجد في كبريات مدن اليوربا، حيث أسس مسجد مدينة أويو عام ١٧٥٥م، ومسجد مدينة (إسين) عام ١٧٧٠م، ثم مسجد مدينة لاغوس عام ١٧٧٥م[٢].

ويُعَدُّ انتصار الثورة الفودية بقيادة الشيخ عثمان دان فودي وتأسيسه خلافة سكتو في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، حدثاً تاريخياً فريداً في حركة انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، وتحولاً ثقافياً عقدياً هائلاً في حياة شعوب الحزام السوداني العريض، والشعوب المجاورة، وبطبيعة الحال شهدت البلاد النيجيرية في الشمال والجنوب فصولاً من هذا التحول الثقافي والاجتماعي في ظل الثورة الفودية.

---

(١) شيخو، أحمد سعيد غلادنشي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، الرياض، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٣٩ – ٤٤.

(٢) الشيخ آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، الطبعة الحالية، ص ٥٢.

وُلِدَ الشيخ آدم بن عبد الباقي بن حبيب بن عبد الله الإلوري مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية وإقصاء القانون الإسلامي فيها بعد استبدال القوانين الوضعية الأوربية به، وانتهى الأمر في عاصمة الخلافة الإسلامية بإعلان أتاتورك تعطيل أحكام الشريعة الإسلامية في بلاده في مارس عام ١٩٢٤م ومنذ ذلك التاريخ صار مطلب إعادة تحكيم الشريعة الإسلامية أمنية تراود آمال المصلحين الإسلاميين، في الوقت الذي وقعت فيه معظم البلاد الإسلامية والعربية تحت وطأة الاستعمار وسياساته المجحفة في حق الشعوب الإسلامية والعربية بحرمانها من سيادتها والتمكين للصهيونية العالمية في أرض فلسطين، وقد وُلِدَ الشيخ الإلوري في العام الذي شهد وعد بلفور.

أما في أفريقيا فقد شهد الجانب الغربي من القارة-كغيره من المناطق- تسابق الدول الأوربية على اقتسام أقطارها خاصة من القوتين المتنافستين آنذاك فرنسا وبريطانيا، وبدأت الشعوب المسلمة في أفريقيا جهادها لمقاومة الصليبية الجديدة، وعلى نطاق نيجيريا فقد حشدت الخلافة الصكتية قواها لمجابهة البريطانيين الغزاة، حتى سقوطها في السابع والعشرين من يوليو ١٩٠٣م، بعد أن خاض المسلمون معركة بطولية شرسة في وقعة بورمي بقيادة آخر سلاطين صكتو الشيخ الطاهر أحمد[١] . وهكذا انتهت الخلافة الصكتية كسلطة حاكمة منذ إنشائها ١٨٠٣م إلى سقوطها في ١٩٠٤م، بعد أن ظلت قرناً كاملاً من الزمان،

(١) شوقي الجمل، عبد الله إبراهيم، تاريخ أفريقيا الحديث المعاصر، الدوحة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٢٥٠.

ولكن بقيت آثارها في نفوس المسلمين قوية محركة لطموحات المصلحين في إعادة بناء الأمة الإسلامية في هذه الربوع؛ ولذا كانت كتابات الإلوري الكثيرة عن قيام ومجاهدات هذه الخلافة الإسلامية، وحينما أرَّخ الشيخ الإلوري للإسلام في نيجيريا بكتابه المهم: (الإسلام في نيجريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني المجاهد الإسلامي الأكبر لغرب أفريقيا والجد الأعلى للشهيد أحمد بلو) كان ذلك محاولة منه لربط الماضي الجهادي بالحاضر البطولي لشهداء الإسلام في عصره.

عينّت بريطانيا الجنرال F.Laugard مندوباً سامياً وحاكماً عاماً للبلاد، ولضمان إحكام السيطرة على البلاد شرع لوغارد في إرسال الحملات العسكرية لتمشيط المنطقة من كل عناصر المقاومة الإسلامية وإخضاع الأمراء الذين رفضوا توقيع الاتفاق مع الإدارة الاستعمارية، وبعد ذلك أعلنت بريطانيا ضم المستعمرات الجنوبية والشمالية في حكومة واحدة وذلك في يناير ١٩١٤م التاريخ الذي يُعَدُّ بدايةً لتاريخ نيجيريا المعاصر[١] . وبعد الحرب العالمية الثانية قُسّم الجنوب النيجري إلى مقاطعتين غربية وشرقية وبذا قُسِّمت البلاد إلى ثلاث مقاطعات، الشمالية والغربية والشرقية، وفي مؤتمر أبادن طالبت الولاية الشمالية ذات الكثافة الإسلامية العالية، بأن يكون لها الثقل في أي تمثيل دستوري في البلاد نسبة لكثافة سكانها فتمَّ الاتفاق على ذلك؛ ومن ثمَّ تكوَّنت أحزاب

(١) R . Uwechue, Nigeria, in Africa Today, P1450, London.

سياسية في سائر الولايات وصدر الدستور لقيام حكومة اتحادية عاصمتها لاغوس، وعلى إثر مؤتمر لندن ١٩٥٨-١٩٥٩م شُكِّلت حكومة اتحادية برئاسة الحاج تفاوة بليو، نالت بعدها البلاد استقلالها ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) في ١٩٦٠م وعندها تنازلت ملكة بريطانيا عن رئاسة البلاد لـ (نامدي ازيكوي) النصراني الذي صار حاكماً عاماً للبلاد، مع بقاء أبي بكر تفاوة رئيساً للحكومة، وتم تقسيم البلاد إلى أربعة أقاليم على النحو التالي:

١- الإقليم الشمالي وأغلبية سكانه من المسلمين بنسبة ٩٩٪.

٢- الإقليم الجنوبي وسكانه خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين.

٣- الإقليم الغربي وسكانه خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين.

٤- الإقليم الشرقي وأغلبية سكانه من النصارى والوثنيين.

شهدت البلاد بعد ذلك أحداثاً مأساوية بالغة في تاريخها المعاصر، حيث قتل أحمد بيلو وأبوبكر تفاوه إثر انقلاب عسكري في سنة ١٩٦٦م، ثم أعقب ذلك انقلاب عسكري آخر بقيادة الجنرال يعقوب غاوون أحد جنرالات الهوسا المُتنصِّرين في الشمال، وبعد عام من ذلك شهدت البلاد قيام حركة انفصالية في الشرق بقيادة الجنرال أوجوكو الذي أعلن عن قيام دولة بيافرا، واستمرت أحداث هذه الحرب الدامية ثلاث سنوات (١٩٦٧- ١٩٧٠م) لتنتهي بهزيمة قبائل الأيبو المتمردة بعد أن خَلَّفت آثاراً اجتماعية واقتصادية مدمرة في البلاد

لا تزال آثارها باقية[1]، وتحت شعار إغاثة المنكوبين انفتح الباب واسعاً للمنظمات الكنسية في البلاد فكَثَّفت الإرساليات من وجودها الذي بدأ منذ أيام الاستعمار الأولى، وبدأت بعد أحداث بيافرا في محاولة تأكيد وجودها في الشمال المسلم، فشهد الربع الأخير من القرن الماضي مشروعات تنصيرية مُكَثَّفة كان من أبرزها مشروع تنصير قبائل الفلاني الرُّحل في محاولات لاستمالتهم عن طريق تقديم المساعدات والخدمات الاجتماعية والبيطرية، بينما واصلت المنظمات الكنسية تعزيز وجودها في البلاد عن طريق المدارس الكنسية والجامعات الخاصة، الأمر الذي ظل يثير حفيظة المسلمين في الشمال والجنوب، خاصة بعد أن عكفت دولة الكيان الصهيوني على تعزيز وجودها في البلاد عن طريق الشركات والمؤسسات الاستثمارية والأندية الشبابية كالروتاري وغير ذلك، الأمر الذي جعل العلماء المسلمين في البلاد من أمثال الإلوري وغيره يلتفتون في كتاباتهم ومحاضراتهم إلى خطورة هذا الاتجاه التغريبي الذي ظل منذ أيام الاستعمار يستهدف أبناء المسلمين. ولتكثيف الجهود في مجابهة هذا الغزو الثقافي حفاظاً على هوية الأمة، تكَوَّنت أعداد من الجمعيات الإسلامية في البلاد كجمعية أنصار الدين وجمعية أنصار الإسلام ومجموعة إزالة البدعة واتحاد الشباب الإسلامي في نيجيريا (Young Muslim Association of Nigeria) (Y.M.A.N) ورابطة اتحاد النساء المسلمات في نيجيريا (Federation of Muslims Women Associatiom of

(١) إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، دار المريخ، الرياض، ج٢، ص ٢٤٥ .

(Students Society وجمعية الطلاب المسلمين في نيجيريا Nigeria) (FOMWAN) of Nigeria) وكذلك (Islamic Education Trust) وغيرها من الروابط والجمعيات الدعوية والخيرية[١].

شهد عصر الإلوري صحوة إسلامية عارمة تطالب فيما تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد، خاصة بعد أن نجحت بعض الولايات ومنها ولاية زمفرا وصكتو وكانو وكادونا والنيجر في تطبيقها، الأمر الذي أثار حفيظة النصارى في الداخل والخارج[٢].

هكذا عاش الإلوري عصراً مفعماً بالأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية في بلاده فكتب في السياسة والثقافة والاجتماع وشارك في حركة النهضة الثقافية الإسلامية في بلاده لأكثر من نصف قرن من الزمان[٣].

ثانيًا: المؤلف.. حياته وعلمه

بدا الشّيخ آدم بن عبد الباقي بن حبيب الله بن عبد الله الإلوري كنجم بين كوكبة العلماء البارزين في تلك المنطقة من أفريقيا المعروفة ببلاد «التكرور» سابقًا،

(١) Abdul – lateef Adekilekum, Selected Islamic Organizations in nigeria (1916 – 1986), Ilorin– Nigeria, 1404H, 1989 .

(٢) Abdul 0 Lateef Adekilekum, Muslim and Islamic Law in Southern Nigeria, P . 5, Osun – State – Nigeria, 2001 .

(٣) فيما يتعلق بعصر الإلوري اعتُمد على: مهدي ساتي، الداعية الشيخ آدم الإلوري «حياته وآثاره العلمية»، مجلة دراسات دعوية (جامعة أفريقيا العالمية)، العدد ٨، يوليو ٢٠٠٤، ص ١٧٤-١٨٢ بتصرف.

أو غرب أفريقيا اليوم، المنطقة التي كانت - طيلة القرن العشرين - تعاني من الاضطهاد الاستعماري، البريطاني والفرنسي، ما لم يستطِع المؤرّخون حصره ولا وصفه حتّى الآن.

وُلِدَ عام (١٣٣٥ هـ/ ١٩١٧ م) بقرية «واسا» فكان ينتسب- من جهة أمّه إلى جمهورية «بينين» (دهومي سابقًا) - بينما كان أبوه نيجيريّ الجنسيّة.

نشأ وترعرع في كنف والده الذي كان يعمل إمامًا لجامع القرية، وأخذ عنه مبادئ العلوم الدينية، ثمّ تعلّم على يد مشايخ نيجيريين، منهم: الحاج عمر الإمام الأبجي الإلوري، والشيخ آدم نامجي الكنوي، وآخرون. وبعد أن أكمل دراسته على أيدي هؤلاء العلماء وأُجيز منهم إجازة عِلمية، ونهل من ينابيع علومهم وارتوى، انتقل إلى المرحلة الثّانية من سيرته التعليمية ورحلته التّثقيفية، فزار الشّيخ الإلوري السّودان، و«هبط» مصر، وكان عضوًا ضِمْنَ قافلة علمية دخلت المملكة العربية السّعودية عام ١٩٤٢م.

عايش الإلوري كبارَ العلماء، وحاور عباقرة في العلوم الدينية، وتأثّر برجال الطّرق الصّوفية، خاصة رجال الطريقة القادرية التي كانت منتشرة في زمانه.

عاد الشّيخ آدم عبد الله الإلوري إلى نيجيريا، وأسّس مركزه للتعليم العربي الإسلامي في مدينة أبيكوتا عام ١٩٥٢م. ولم يمض على ذلك إلا ثلاث سنوات حتى انتقل المركز من أبيكوتا إلى أغيغي، ولاية لاغوس، وهناك عني الشّيخ

عناية تامّة بتخريج جيل جديد من العلماء في العلوم العربية والإسلامية، وكان يُشجّع تلاميذه على الكتابة والتّصنيف بالعربية، وقد قال في كتابه: «الإسلام اليوم وغدًا في نيجيريا» تشجيعًا لهم ما نصّه: «ونصيحتي إلى الشّباب أن يجدّوا ويجتهدوا في الكتابة، لا يبالوا بالخطأ، ولا يكترثوا بالمادح والقادح، كما فعلت أنا حتى ظهرت بالكتابة».

برز الشّيخ في عهد الاحتلال البريطاني لنيجيريا، وشهد حركات المبشرين الذين سعوا حثيثًا إلى تنصير المجتمعات المسلمة في غرب أفريقيا، وما عانته الثقافة العربية من الظلم، فلا غرو إذًا أن يوجه رسالته نحو الدّفاع عن اللغة العربية، ومقاومة الحركات المعادية للإسلام وثقافته، ومقاومة القوى الاستعمارية التي سعت لمحو الهوية الإسلامية وجعل الإنجليزية لغة رسمية للبلاد.

للشيخ أيضًا عدّة إنجازات تفرّد بها بين العلماء اليورباويين النّيجيريّين، منها أنّه كان أوّل من ألّف كتابًا باللّغة العربية والعلوم الإسلامية، وكان أوّل عالم نجح في جمع علماء المنطقة تحت راية واحدة هي «رابطة الأئمة والعلماء»، إضافة إلى أنّه أوّل عالم يورباوي نافس العلماء العرب بمؤلّفاته الكثيرة في عدّة مجالات. كما أنه كان أوّل عالم نيجيري يحصل على إجازة التّعليم من الأزهر الشّريف بجمهورية مصر العربية بل ونال أيضًا وسام الجمهورية في العلوم والفنون منها.

توفي رحمه الله تعالى بلندن يوم الأحد (٢ من ذي القعدة ١٤١٢هـ/ ٣ من مايو ١٩٩٢م)، وقد بلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة، ودفن بجوار أبويه في بقعة مركز التعليم العربي الإسلامي، تغمّدهم الله جميعًا برحمته، وأسكنهم فسيح جنّاته، آمين.

• تلاميذه وصلاته بعلماء عصره

يصعب على الباحث إحصاءُ أنجب تلاميذ الشيخ؛ وذلك لأنّ جُلَّ تلاميذه أصحاب وَقَارٍ وفضائل، فقد تخرّج في المركز الذي يديره ما يزيد على نصف مليون من أبناء نيجيريا وما يُجاورها من بلدان غرب أفريقيا، مثل: غانا، وبينين، وتوغو، وساحل العاج، وغيرها.

وقد أصبح عددٌ كبير ممن تتلمذ على يديه قادة في تعليم العربية والعلوم الإسلامية في غرب أفريقيا في العصر الراهن. وحاليًّا يُدير المركز في لاغوس أحد أبنائه واسمه حبيب الله، وقد صار معروفًا في أوساط علماء نيجيريا بذكائه وعلمه واهتمامه بالثقافة العربية في البلاد.

لا نُجانب الصواب لو قلنا إنّ الشّيخ الإلوري لم يكن لينال كلّ هذه الشّهرة والمعرفة في مجال العلوم العربية والإسلامية لولا اتصاله المباشر بعلماء عصره وبعقلاء زمانه، ففي السّودان قابل السّيد علي الميرغني، والسّيد عبد الرّحمن المهدي، والشيخ محمد المبارك، والشيخ أحمد الفاتح قريب الله، وفي مصر اتصل

بشيخ الجامع الأزهر مصطفى عبد الرازق، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ محمد شلتوت، والشيخ حسن البنا مرشد جماعة الإخوان المسلمين. والتقى في مكة المكرمة بالشيخ السيّد علوي مالكي، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ حسن المشط، والشيخ موسى الكشناوي، والشيخ عثمان عمر الفلاني، والأمير بنو حفيد عثمان بن فودي، وفي المدينة المنورة اجتمع بالشيخ الكتاغنمي، والشيخ محمد طاهر العقلي من المدرسة الشرعية، واتصل الشّيخ الإلوري أيضا بعلماء الغرب بطريق غير مباشر، وقرأ اتّجاهاتهم العلمية/التاريخية الموضوعية للأمم- عن أفريقيا وآسيا- واستوعبها استيعاب ابن خلدون لتاريخ الأمم، وعلّق عليها تعليق الجبرتي على دخول نابليون لمصر؛ لأجل ذلك كلّه، يشعر القارئ لهذا الكتاب وكتب أخرى للشيخ كأنه في بحر يتموّج تموّجًا كبيرًا بالمعرفة والحكمة، دائمًا يشعر القارئ لكتبه كأنه في جلسة علمية يستمع مباشرة لعلماء الشرق والغرب، وخاصة المؤرخ سمويل جونسن.

ثالثًا: بين يدي الكتاب

- **الغرض من التّأليف**

نشر الشّيخ هذا الكتاب عام (١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م) لأجل سدّ الفراغ التاريخي في المكتبات عن بلاد «التكرور» كجزء من العالم الإسلامي، وكمنطقة ذات ثقافة مكتملة وحضارة مزدهرة، والتي انطوت منذ عصور كما يقول: «في زوايا المجاهيل من أثر ما أصابها من تدهور وانحطاط وحروب؛ فتعيّن عليّ أن

أسقط عن علمائنا هذا الفرض الكفائي، فنشرت عام ١٩٥٠ كتاب (الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي)، فأثلج بعض الصدور الغليلة، وكشف اللثام عن هذه الجهات المجهولة...».

• كيف استُقبل الكتاب

لم يكن غريبًا على المؤرّخين النيجيريين خاصة وعلماء غرب أفريقيا عامة أن ينال الكتاب رنة وقبولاً كبيرًا عقب نشره عام ١٩٥٠م، فصار المرجع الأوّل لدراسة تاريخ الإسلام في المدارس والمراكز العربية والإسلام في المنطقة، والمنفذ الوحيد للاطّلاع على ما خلّفه علماء غرب أفريقيا وخاصة عثمان بن فودي من الإسهامات والإنجازات الدّينية، ولم يمض زمن طويل بعد نشره حتى نفدت النّسخ الأولى من الكتاب، فنُشرت الطبعة الثّانية، وزاد فيها الشّيخ معلومات عن «الأحداث السّياسية والاجتماعية»، وأخبار الاستعمار والاستقلال، والحركة الصّليبية، والدّعوة الإسلامية المقاومة لها.

• تقديم الكِتاب للقرّاء

يتمركز مشروع الشيخ الإلوري الفكري على مقاومة الجهل في أوساط المسلمين، وحماية الإسلام من مكايد النّصارى والصليبيين في غرب أفريقيا عامة وفي نيجيريا خاصة. ألّف الشّيخ هذا الكتاب بوصفه مؤرّخًا اهتمّ بتدوين حوادث بلاده المجهولة، وأحوال الأرض التي ترعرع في ربوعها. وفي هذا الصّدد

قال: «كان للتاريخ بين العلوم العقلية والنّقلية مكانة لا تُجْهَل، وميزة لا تُنْكَر، وله أثره في دفع عجلة التقدم إلى الأمام؛ لأن دراسة الـتاريخ لا تكون تسلية بذكرى الوقائع والأخبار فقط، ولكنها تكون تذكرة وتربية بأحوال الأمم الماضية، وبيئاتهم المختلفة في الأعصر السّالفة لتحسين الشئون في الحياة الحاضرة». فهذه قضية أساسية من القضايا المحورية للكتاب.

ونلاحظ - إضافة إلى ذلك - أن الكاتب لم يهتم بالتاريخ فحسب بل بغرب أفريقيا كمنطقة تصنع التاريخ وأبطال التّاريخ. فلا بدّ لقارئ الكتاب - أثناء اطّلاعه عليه - التّعرف على الغابة والصّحراء، وعلى الصلّة القديمة بين الشّمال وغرب أفريقيا، ولا بدّ للقارئ أن يتمشّى تمشيًا تاريخيًّا مع أبطال الدّعوة في أفريقيا وفي غربها خاصة، أمثال عقبة بن نافع والمغيلي[1] وبن فودي، ومنهجهم في مواجهة الأباطيل والأكاذيب. فقد لا نخطئ إذا قلنا إنّ الكتاب وافٍ أكثر مما دلّ عليه عنوانه: فهو مرآة فريدة للاطّلاع على تاريخ الإسلام والمسلمين، بل، وغير المسلمين في القرن العشرين في غرب أفريقيا.

- صلة الكتاب بمشروع المؤلّف الفكري

للكتاب صلة متينة بمشروع المؤلّف الفكري المتمركز على الاحتفال

(١) هو الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، عالم في الفقه والتفسير والحديث والمنطق، ولد في مدينة تلمسان سنة (٧٩٠هـ/ ١٤٢٥م) وتوفي في توات سنة (٩٠٩ هـ/ ١٥٠٢م). من مؤلفاته: «البدر المنير في علم التفسير»، و«مصباح الأرواح في أصول الفلاح»، و«تاريخ الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين».

بالثّقافة الإسلامية المتجسّدة في اللغة العربية وأدبها، وتعليم العلوم العربية والإسلامية في غرب أفريقيا.

وقد عبّر عن دوافع انتصاره للعربية بقوله: «اعتقادنا بأن العربية جزء من الإسلام لا يتجزأ؛ لأنها لغة لقرآن ولغة العبادات في الصلوات اليومية ونسك الحج السنوية، اعتقادنا بأن تجريد العربية عن الإسلام واعتبارها لغة حيّة من لغات العالم مؤامرة يدبرها العدوّ؛ لأجل القضاء على الإسلام وعلى العربية معًا، وإن العربية، إضافة لكونها لغة حضارة روحية، بإمكانها مسايرة التطورات العلمية كما كانت في الماضي، لغة العلم والأدب والتاريخ والفلسفة في القرون الوسطى».

ترى هذه النزعة الثقافية العلمية الدّينية جليًّا في مؤلّفاته الأخرى، مثل: «الدين نصيحة» ١٩٥٠م، «نظام التعليم العربي في نيجيريا» ١٩٥٧م، «موجز تاريخ نيجيريا» ١٩٦٤م، «تاريخ الدّعوة إلى الله بين الأمس واليوم» ١٩٦٧م، «مصباح الدراسات الأدبية في الدّيار النيجيرية» ١٩٦٧م، «الإسلام اليوم وغدًا في نيجيريا» ١٩٨٥ م، و«من هنا نشأت وهكذا تعلّمت حتى تخرجت» ١٩٩٠م.

• أهمّ الأصداء والردود التي تركها هذا الكتاب

قال الإلوري في كتابه «مصباح الدّراسات العربية في الديار النيجيرية»: «لا يزال المرء في فسحة من أمره حتى يؤلف كتابًا أو يقول شعرًا». بالاعتبار بهذه

بالحقيقة، وبأن الإلوري كان أوسع علماء يوربا ثقافة وأكثرهم تأليفًا، فلا عجب إذًا أن الردود والأصداء التي تركها كتابه «الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني» وكتب أخرى من مؤلفاته أكثر من الرّدود والأصداء التي تركتها مؤلفات علماء آخرين في المنطقة، وتكفي هذه الردود والأصداء، علاوة على كونها إيجابية وسلبية، للدّلالة على أن الكتاب من أهمّ الأعمال العلمية التأريخية التي خلّفها الشيخ. ومن بواكير هذه الردود والتّعليقات الإيجابية على الكتاب قول الشيخ عمر بهاء الدين الأميري ما ملخصه: «تصفحته (يعني الكتاب) على عجل، ووجدت فيه جوانب من تاريخ الإسلام في بلاد أفريقيا السوداء، وصفحات من أخبار المعارك الدائمة، بين الإيمان والشرك، والخير والشر، والإسلام والجاهلية،... كما رأيته يضم معلومات مفيدة، تلقي بعض النور على الأحداث الخطيرة الأخيرة التي عاشتها نيجيريا، وما تزال... شكر الله للأخ الأستاذ الداعية المخلص آدم عبد الله الإلوري وجهده وجهاده... ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز».

وكذلك لا نجهل تقريظ الشّيخ محمد ناصر كبر- مدير مدرسة الشريعة الإسلامية بكنو- للكتاب حين قال: «فلقد أتاح الله الفرصة السعيدة للعلامة الأستاذ آدم عبد الله الإلوري أن وفقه الله لإبراز كتابه «الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي» كتاب ينادي على مصنفه بالتقدمة على الأقران في هذا الزمان، كتاب قضى به مؤلفه الدَّيْن الذي على رقاب علماء نيجيريا قديمًا وحديثًا. فيه حصلت

براءة الذم من فطاحل هذه الأم، فلا أراه إلا كمن أحيا أمواتًا، وأنعش عظامًا رفاتًا، فهل فوق ما فعل يوجد شيء يفتخر به علم الإسلام في هذه الأقطار...».

ورغم تلك الأصداء الكبيرة التي لاقاها هذا الكتاب وغيره من مؤلفات الإلوري؛ فإن كثيرًا من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية كانوا يصفون أسلوبه ومنهجه بالرجعية والجهل والأمية، وكانوا يبتدئون نقد أعماله بإبراز اهتمامه باللغة العربية؛ واصفيه وأنصاره بأنهم: «نصف إنسان ونصف حيوان؛ لأنهم يتعلمون العربية وحدها دون غيرها، ولا يبالون بالإنجليزية»!

وكانت العادة لدى الشيخ أن يرد قائلاً: «إن كل من يعرف الإنجليزية ولكنه إذا دخل بلاد فرنسا وبلاد الألمان أو الطليان أو بلاد العرب يحتاج إلى ترجمان فهو جاهل إذن؛ فإن كان عالمًا –وفق رؤيتهم- يجب عليه أن يحيط بجميع اللغات». وقد كان موقف الإلوري من الإنجليزية ينطلق من النظرة الدونية التي ينظر بها أصحابها إلى العربية وأهلها، ورغم أنه يجيدها ويتقن الحديث بها؛ فإنه كان يمتنع عن الحديث بها في غير الحاجة، وقال عن ذلك: «الحمد لله أعرف من الإنجليزية ما أقرأ به الصحف والجرائد اليومية والمجلات، وأستطيع أن آخذ وأرد بها عند الضرورة، ولكن كثيرًا ما أمتنع أن أتحدث بها للتفاخر، وأكثر تلاميذي دخلوا الجامعات، وحصلوا على الدرجات العلمية في الإنجليزية بإذني وتوجيهاتي، ولكنهم قد تبحروا في العربية حسب طاقتهم وعلى ضوء إرشادي».

وكذلك رفض الشيخ التهمة بأن دعوته ومشروعه يسعيان للتعريب وسلخ الشعوب الأفريقية من لغاتها الوطنية، وقال في ذلك صراحة: «لسنا ندعو كل مسلم إلى التعريب وترك لسان أمته وقومه أو حكومته إلى العربية، ولكننا ندعوه أن يتعلم ما يناسب وضعه؛ فالمسلم العادي يتعلم ما يؤدي به عباداته وصلواته اليومية، وغيره ممن يحمل مسؤولية محددة يتعلم ما يكفيه لأداء تلك المسؤولية، أما من يتحمل مسؤولية دينية كالإمامة والقضاء والتعليم العالي؛ فيجب أن يجيد العربية إجادة تخصص».

ومن أهم الردود التي وُجِّهت للكتاب رد عثمان محمد برايمابري في كتاب له بعنوان «أضواء»، وفيه أشار الناقد، تمشيًا لنقده لكتاب الإلوري «الإسلام اليوم وغدًا في نيجيريا» إلى وجود بعض التناقضات الذاتية، وعدم الدقة في سرد الأحداث لدى الإلوري، ومن أهمّ هذه التناقضات، حسب قول الناقد، قول الإلوري بأن الشيخ عثمان بن فوديو تأثر بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. احتج عثمان محمد برايمابري على عدم دقة ذلك قائلاً: «إسنادًا إلى الدراسة والتحليلات والمقارنة التي أجريناها حول الشخصيات الثلاث (الشيخ عثمان بن فوديو، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ أبي حامد الغزالي) يتّضح لنا أن الشيخ عثمان بن فوديو تأثر تأثُّرًا أكيدًا بالشيخ أبي حامد الغزالي لا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب كما يزعم بعض المؤرخين، ارتكازًا على تقارب الزمان بين قيام حركة كل منهما، والتشابه القائم بين الانتصارات التي تحققت للإسلام بفضل جهاد كل منهما».

وكذلك آثار موقف الإلوري تجاه الطرق الصوفية في غرب أفريقيا جدلاً بين العلماء، لاسيما رأيه بأن الطرق الصوفية هي التي حلّت محل حركة الدعوة لجماعة الشيخ عثمان بن فودي. قال برايما ناقدًا لهذا الموقف: «فاعلم يا فضيلة الشيخ أن قواد المعارك الفكرية والاجتماعية والروحية شأنهم شأن العباقرة والأبطال، فهم كما قضت الحكمة الإلهية، يخلقون ولا يصنعون... والشّيخ عثمان بن فودي من أمثال هؤلاء القواد الذين خلقوا ولم تصنعهم الأيدي البشرية».

لأجل الرد على هذه الأصداء التي أثارها كتاب «الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي» وكذلك الردود على كتاب «الإسلام اليوم وغدًا في نيجيريا» نشر الإلوري كتابًا بعنوان: «أشعة العقول والنقول على أضواء القنديل والفصول» وفيه أفاض الحديث عن الأخطاء التأريخية والعلمية التي وقع فيه كثير من النقاد، ثم ركز الحديث حول كتاب برايما المسمى بـ «الأضواء»، وسماه الإلوري بـ «الأنواء»: «فالأنواء هي النباتات التي تزهو بأزهارها النيرة في موسم الأمطار، وإذا جاء الصيف وأرسلت الشمس عليها جعلتها هشيمًا تذروه الرياح... لما قرأت الكتاب وجدت الكاتب جال بفكره وصال بقلمه في متاهات لا علاقة لها بالموضوع...».

الكتاب والواقع الراهن

لا يزال الواقع الإسلامي / العربي المرير الرّاهن في غرب أفريقيا عامة وفي نيجيريا خاصة يُبرّر الموقف العلمي التاريخي الذي اتخذه الإلوري عند تأليفه

هذا الكتاب في العقد الخامس من القرن العشرين، وما لّمح إليه من المشاكل التي تواجه تعليم العربية وتعلّمها في الإقليم، ويمكن تلخيص بعض الظّواهر والمشاكل فيما يلي:

- عدم اهتمام الدّول العربية بتعليم اللغة العربية في غرب أفريقيا، بخلاف تصرّفات الدّول الأوروبية في الإقليم المضادّة للإسلام، وتشجيعها وتمويلها لتعليم وتعلّم اللغتين الإنجليزية والفرنسية.
- موقف الحكومة الأهلية في غرب أفريقيا من الإسلام وثقافته موقف معادٍ للإسلام وثقافته.
- عدم وجود الوسائل التّعليمية الحديثة التي تساعد على تعليم وتعلّم العربية والعلوم الدّينية في المنطقة.
- استخدام المدارس والمعاهد العربية والإسلامية الأساليبَ والمناهج التّقليدية الّتي لا تناسب الواقع التّكنولوجي الراهن.
- انصراف علماء الدّين والوعاظ عن الدّعوة للاشتغال بالتّجارة وطلب المعاش.
- فقدان الإجماع بين العلماء في غرب أفريقيا على جواز المشاركة في تأسيس الأحزاب السّياسية، والاختلاف بينهم في الصّلة والعلاقة بين الإسلام والديمقراطية.

- ازدياد وتجديد حركة التّنصير، واستخدامها الوسائل الجديدة الحديثة التي لها تأثير شديد وقوّة ساحرة في صرف الشباب المسلم عن الاهتمام والاعتزاز بالإسلام.

- فقدان الألفة والاعتصام بين المسلمين في المنطقة.

• عرض للكتاب

بدأ الإلوري هذا الكتاب بالتّعريف بـ«نيجيريا»، أنّها كلمة تشير إلى ما حول بلاد «نيغرو» أو ما حول وادي النيجر. ثم ذكر الصّلات الثّقافية والاقتصادية القديمة بين شمال أفريقيا وغربها، ثم انتقل المؤلّف إلى ذكر أخبار دخول الإسلام في غرب أفريقيا، واحتجّ بأن وجود صلة تجارية قديمة هو الذي مهّد الطّريق لوصول الإسلام إلى المنطقة.

وفي الباب الثّالث ذكر المؤلف الممالك والدّول التي أقيمت في غرب أفريقيا، أمثال مملكة غانة، ومالي، وسنغاي، وبرنو، وكانم، ثمّ ناقش وضع الإسلام في بلاد هوسا، فتحدّث عن الإسلام، نشأة وارتقاء، في وادي النيجر (نيجيريا)، وقسّم أطوار الإسلام فيها إلى أربعة: دور النّفوس والتهيؤ، دور الاعتناق والانتشار، دور النّضوج والتّحكم، ودور التّقهقر والتّدهور.

ثمّ تحدّث عن أصناف الذّين نشروا الإسلام في غرب أفريقيا، وحصرهم في ثلاثة: الأول الغزاة الفاتحون، الثاني: التّجار المتجوّلون، الثالث: الدّعاة

الصّوفيون الذين جمعوا بين نشر الإسلام ونشر محاسن الصوفية وطرقها.

ثمّ تحدّث عن صلة نيجيريا بالعالم الإسلامي، وركّز الحديث على أربع أواصر: أَصرة التجارة، وأَصرة الدّيانة، وأَصرة الثّقافة، وأَصرة السّياسة. وهنا أفاض الحديث عن دور الاستعمار في انحطاط الثّقافة الإسلامية في غرب أفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقال: «ولما جاء المستعمرون والمبشرون غاظهم كل الغيظ أن يلتقوا بالإسلام في غرب أفريقيا، ليس دينًا متمكّنًا في النفوس فحسب، ولكنّه قوّة حاكمة، ودولة قائمة؛ فلبسوا للمسلمين جلود النمر...».

ثم تحدّث الكاتب عن ظهور المدارس بين المسلمين في غرب أفريقيا، ومناهج التدريس المستعملة بينهم، وذكر أسماء أعلام الثقافة العربية في وادي النيجر، ونتاجاتهم العلمية، كما تحدّث عن نظام الحكم والقضاء فيها.

وفي القسم الثّاني من الكتاب، تحدّث المؤلّف عن الشّيخ عثمان بن فودي الفلاني، وأطال في الحديث عن سبب ظهوره، ونسبه، ومشايخه، وطلبه للعلم، وشخصيته فيما يتعلّق بالدّعوة، وقال إنّ ابن فوديو: «أشعري في العقيدة، ومالكي في الفقه، وصوفي مجذوب، قادري في الطّريقة»، وبعد ذلك ذكر المؤلف وضع البلاد قبل قيام ابن فودي بالدّعوة، وكيف قسم ابن فوديو أهل زمانه إلى خمسة أقسام: «كفّار بالأصالة، ومرتدّون عن الإسلام، ومسلمون يقرّون بالإسلام لكن على غير استكمال شروطه، والعلماء الذين ركنوا إلى الدنيا، والعلماء الصالحون

العاملون». ثم ذكر منهج ابن فودي في الدعوة، وهجرته، ومبدأ دولته، وتمام البيعة، وقيام الدّولة، وذكر حملة لوائه.

ثم تحدّث عن «أفنجا» اللاجئ الحربي في إلورن، وقيام الحكومة الإسلامية في بلاد يوربا و«الداهومي» وبلاد «بيني» و«إيبو». ثم ألقى الضّوء على أسباب انتشار الإسلام في بلاد يوربا؛ حيث كان العلماء يقدّمون ما يقوم مقام السّحر والكهانة من الطّاقات الرّوحية، ليصرفوا وجوه الملوك إليهم، وذكر كذلك دور الوعاظ في نشر الإسلام، والحفلات الإسلامية في بلاد يوربا ودورها في نشره، كما ناقش أثر الإسلام في أمم السّودان.

وبعد ذلك بحث المؤلّف في دخول الإفرنج والفرنسيين في غرب أفريقيا، وما أتلف من آثار الإسلام، ثم الحروب الصليبية، وذكر الجمعيات الدّينية ومدارسها، وما قامت به من أدوار فعّالة في نشر الإسلام، ثمّ فصّل القول في الأحمدية القاديانية في نيجيريا.

ثم ذكر المدارس العربية الحديثة والثانوية (التّعليم المدني والتّعليم الدّيني)، وبيّن تأسيس الحكومة الاستعمارية، وبدء الوعي القومي بطلب الاستقلال؛ وذلك على أعقاب الحرب العالمية الثانية. ثمّ تحدّث عن الأحزاب السّياسية في نيجيريا، وذكر بواعث التّوتر بين الجنوب والشّمال، والانقلابات العسكرية التي شهدتها البلاد في منتصف القرن العشرين.

ثم تناول مشاكل المسلمين الحاضرة، والّتي لا تختلف عن مشاكل إخوانهم في سائر العالم، وتحدّث عن حاضر الإسلام، ومستقبله الّذي يعرّض للخطر؛ حيث ترك العرب مسؤوليتهم، وهم «قاطرة الإسلام، والعجم حافلته، ولا يمكن أن تتحرك الحافلة إذا سكنت القاطرة»، وتساءل الإلوري قائلاً: «وما هو مستقبل الإسلام والحالة هذه...»؟!

رابعًا: ببليوجرافيا مؤلفات الإلوري

خَلَّف الإلوري أكثر من خمسين مؤلفًا، تتوزع على مجالات شتى، ما بين التاريخ والدعوة والأدب والتربية والسيرة والترجمة للأعلام والفلسفة والسياسة الشرعية والتصوف، وفيما يلي أهم هذه المؤلفات:

- نظام التعليم العربي في نيجيريا، دار الفكر الإسلامي، دمشق، (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

- ما لا يلام عليه علماء نيجيريا، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية، ١٩٥٠م)

- توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب أفريقيا، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٨٨م.

- الدين النصيحة، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٥٠م.

- الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٥٠م .

- من هنا نشأت وهكذا تعلمت حتى تخرجت، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية) ١٩٩٠م.
- الإسلام اليوم وغدًا في نيجيريا (القاهرة: مكتبة وهبة)، ١٩٨٥م.
- أشعة العقول والنقول على أضواء القنديل والفصول (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية).
- موجز تاريخ نيجيريا، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٦٤م.
- تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٦٧م.
- نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٧١م.
- الإسلام وتقاليد الجاهلية، (القاهرة: مطبعة المدني)، ١٩٧٦م.
- آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٨٣م.
- نسيم الصبا في أخبار الإسلام في علماء يوربا (القاهرة: مكتبة الآداب)، ١٩٨٧م.

- فلسفة التوحيد والأديان، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية)، ١٩٥٠م.
- أصل قبائل يوربا والقبائل المجاورة في نيجيريا، (القاهرة: مكتبة وهبة)، ١٩٩١م.
- مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩م.
- تعريف الشعر العربي، (مطبعة الثقافة الإسلامية أغيغي، لاغوس).
- المقطوعات الأدبية، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية).
- الفواكه الساقطة، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية).
- الأناشيد المركزية، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية).
- عيون اللاميات العربية، (ليغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية).

ويلاحظ- بالنظر إلى الكمّ الكبير الذي ألّفه الإلوري باللّغة العربية- أنه لم يُترجم أيًّا من كتبه إلى لغة أخرى، والسّبب في ذلك يرجعُ- كما يرى تلاميذه- إلى حرصه على إبقاء اللغة العربية لغة ثقافة، لغة تكتمن باللؤلؤ والمرجان، لغة تعجز اللّغات الأخرى عن النّضال معها والتّعبير عما تضمنته من المعرفة، فكأن عملية ترجمة مؤلّفاته إلى لغات أخرى وخاصة الإنجليزية تُنقص من أهميتها، وتؤدي إلى فشل أغراضها؛ فلم يسمح الشّيخ للباحثين بالقيام بترجمة أعماله

إلى الإنجليزية حتىّ وفاته، وقد أبى خلفاؤه- بعد وفاته- إلا أن ينهجوا منهجه في هذا الصّدد.

• دراسات علمية وأكاديمية عن الشيخ الإلوري

١- دراسات بالعربية

- الفلاني: مع المؤرخين في بلاد يوربا (مخطوطة)، ٢٠٠٧م.
- عبد الوهاب زبير الغماوي: الطريقة الإلورية في التعليم العربي، (مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي لاغوس، نيجيريا).
- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم: «الشيخ آدم عبد الله الإلوري والشعر العربي في نيجيريا»، بحث مقدم إلى جامعة إلورن نيجيريا لنيل درجة الليسانس عام ١٩٩٠م.
- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم: «نظام الشيخ آدم عبد الله الإلوري في تعليم التأليف باللغة العربية» في Ilorin Journal of The Humanities (IJOH) مجلة تصدرها كلية الدراسات العربية والشريعة الإسلامية إلورن، ولاية كوارا نيجيريا. العدد ٢ رقم ٤ ص ص ٤٤-٦٧.
- راجي سليمان: «قصائد العيد العشرين من تأسيس المركز»، (مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي نيجيريا ص ٢٤).

- يعقوب يوسف: «الشعر العربي في مدينة إلورن»، بحث قدمه لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية بجامعة سوكوتو عام ١٩٨٣م.

- مشهور رمضان جبريل: الشيخ آدم عبد الله الإلوري نسبته، وشخصيته ووصيته (لاغوس، مكتبة الله النور، غير مؤرخ).

- زكرياء جمعة أوكينلا: «الشيخ آدم عبد الله الإلوري ومساهمته في الدراسات الإسلامية والعربية في نيجيريا»، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير بجامعة ميدوغوري، قسم الدراسات العربية والإسلامية، ١٩٩٠م.

- مهدي ساتي، الداعية الشيخ آدم الإلوري «حياته وآثاره العلمية»، مجلة دراسات دعوية (جامعة أفريقيا العالمية)، العدد الثامن يوليو ٢٠٠٤، ص ١٧٤-٢٠٢.

٢- دراسات بالإنجليزية

1. Luqman Abiodun Lawal: (2010) «The Contribution of Yoruba to Muslim Historiography in Nigeria: 1860- 2009» Unpublished Ph.D Thesis in the Department of Arabic and Islamic Studies, University of Ibadan.

2. Ismaeel Akinade Jimoh: (2005) «Arguments and Counter-Arguments in Selected Works in Arabic by Nigeria Authors» Unpublished Ph.D Thesis in the Department of Arabic and Islamic Studies, University of Ibadan.

3. Abubakre R. D: (2004) «The Interplay of Arabic and Yoruba Cultures in South Western Nigeria» (Iwo: Dar al-Ilm Publishers).

4. Abdulraheem Hamzat Ishola: 1992 «A Rhetorical Analysis of the Arabic Literature of Yoruba Authorship» Unpublished Ph.D Thesis in the Departmemt of Religion, University of Ilorin.

الإسلام في نيجيريا

والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني

المجاهد الإسلامي الأكبر بغرب إفريقيا

والجد الأعلى للشهيد أحمد بللو

تأليف

آدم عبد الله الإلوري

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٣ م

طُبع لأول مرة في عام (١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ م)

إهداء الفاتحة

نرجو من كل قارئ لهذا الكتاب أن يقرأ الفاتحة ويهدي ثوابها:

إلى روح الصحابي الجليل عقبة بن نافع فاتح أفريقيا.

إلى روح عبد الله ياسين، ويحيى بن إبراهيم، وعمر بن أبي بكر اللمتوني.

إلى روح أسكيا محمد، أول من تَلَقَّب بأمير المؤمنين في غرب أفريقيا.

إلى روح عثمان بن فوديو المجدد الإسلامي الأكبر في غرب أفريقيا.

إلى روح عالم بن جنتا مجدد الإسلام في بلاد يوربا.

إلى روح الشهيد أحمد بللو رئيس وزراء شمال نيجيريا.

إلى أرواح الجنود المجهولين الذين ماتوا في سبيل الله بكافة ربوع أفريقيا الغربية.. رحم الله الجميع.

المؤلف

تعريف بالمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ «آدم عبد الله الألوري» علم من أعلام الدعوة إلى الإسلام، ولغة القرآن، في «نيجريا» البلاد العزيزة، ذات التاريخ الضخم في أفريقيا السوداء، والوشائج العريقة الهامة بالإسلام والعروبة.

جمعتنا الزمالة في عدد من المؤتمرات الإسلامية، فربطت بيننا آصرة أخوة في الله، لم يتسع لها المجال، لقدرٍ كافٍ من التواصل والتعامل.

حتى كانت زيارته الأخيرة للمغرب العربي، في طلائع شعبان ١٣٩٠، وأنا في «رباط الفتح»، أُدرِّس: «الإسلام والتيارات المعاصرة» لطلاب الدراسات الإسلامية العليا، في «دار الحديث الحسنية» من «جامعة القرويين»، فكانت فرصة غالية للقاء جديد، ومزيد من التعارف والتآلف.

سعدت حقًّا - كما سعد كبار الرجال الذين اتصل بهم الأستاذ الألوري، في المغرب، من علماء وزعماء ووزراء وسفراء - بما يتحلى به هذا الأخ المسلم

الداعية، من تواضع وعلم وعزيمة وإخلاص، وكانت السعادة أكبر، لوجوده في «نيجريا» البلاد التي تضم أكبر عدد من المسلمين في القارة الأفريقية.

وفي هذا الوقت بالذات، حيث تحتدم في العالم معركة التحويل الحضاري بين الإسلام والجاهلية، الجاهلية بأجنحتها الثلاثة: اليهودية، والصليبية - ولا نقول النصرانية - والاستعمار، رأسماليًا وشيوعيًا. ولا سيما بعد أن كتب الله النصر للإسلام على الجاهلية الرعناء، في نفس «نيجريا» بفشل حرب التمرد والانفصال في «بيافرا» رغم كل المساعدات العدوَّة لها.

وقد تلطّف الأخ الأستاذ الكريم، فأطلعني على شيء من نشاط «مركز التعليم العربي الإسلامي» الذي يتولى إدارته ورعايته، كما أهداني عددًا من كتبه ورسائله القيّمة، فكان ذلك خير دليل على صدق جهاده، وعلوّ همته، واستنارة بصيرته بنور الله؛ وقدّرت - وأنا المكابد المتلظّي بنار الأعباء والأعداء - أي عبء يحمل، وأي فراغ يسد.

وإنه لواجب مقدس، يترتب في أعناق كل ذوي القدرة من الحكام والأغنياء، أن يجِدُّوا في مساعدة مشاريع هذا الأخ المخلص المصلح وأعماله، ونظائرها، في هذا الزمن الذي تزداد فيه شكوانا إلى الله، من ضعف الأمين وقوة الخائن! ونحن نشهد تنازع البقاء بين حضارة الطين وحضارة الدين.

إننا لنتفاءل حقًّا بغد بعيد، تتضح فيه وجهة المسيرة الإنسانية الحضارية، مستهدية بنور الإسلام، ولكننا نقدِّر أن ذلك سيكون عبر كثير من النوائب والمصائب؛ حيث ستهتك زيوف المدنية الصناعية المادية المعاصرة، وتهلك أجيالها في تيه الانحلال والضياع، من جهة، وتردُّ أمة القرآن إلى ربها ردًّا جميلاً سديدًا، من جهة أخرى. وعسى أن تكون انطلاقة «فتح» في الجهاد المقدس، بداية الطريق، ونجدة الغريق، ثَبَّت الله خطاها في الحق، ومدَّها بملائكة «بدر» ووقاها شرور الدخلاء والعملاء، والتطرف والغرور.

لقد أحسن الأخ الأستاذ الألوري بيَ الظن، فدفع إليّ بكتابه المخطوط، الذي يريد طبعه وشيكًا: «الإسلام في نيجريا وعثمان بن فودي» لأكتب كلمة للقراء بين يديه. وإنها منه لعاطفة كريمة، لا أراني جديرًا بها، ولا قديرًا على الاعتذار عن الاستجابة لها، لمكانة الأخ الأستاذ الفاضل في نفسي، ولما أعتقده من ضرورة تأييده، ولو بجهد المُقِلّ.

لم تتسع أيام الأستاذ في المغرب، ولا مكنتني رحى الهموم والمشاغل والأعباء، التي تدور عليَّ صباح مساء، من أن أفرغ لمطالعة الكتاب كاملاً، بيد أنني تصفحته على عجل، ووجدت فيه جوانب من تاريخ الإسلام في أفريقيا السوداء، وصفحات من أخبار المعارك الدائمة، بين الإيمان والشرك، والخير والشر، والإسلام والجاهلية. كما رأيته يضم معلومات مفيدة، تلقي بعض النور، على الأحداث الخطيرة الأخيرة التي عاشتها «نيجريا»، وما تزال، قبل استشهاد قائدها

البطل، المجاهد الهمام، الرئيس «أحمدو بللو» وأسرته، ورفيقه «أبو بكر تفاوا بليود» - رحمهم الله -والشهداء جميعًا، وأكرم مثواهم في الفردوس الأعلى، ثم خلال حرب الانفصال مع إقليم «بيافرا» المُنْشَقّ، وما انتهت إليه بعون الله، مما لا يصح أن يجهله أبناء الجيل المسلم، عربًا وغير عرب، ولا أن يكتفوا فقط بالعلم دون العمل، وبالدعاء دون المشاركة الفعالة، كل في نطاق وسعه، لا سيما في هذا الزمان الذي يمتحن فيه المؤمنون في كُلِّ مكان، ويعيش الإسلام المعركة بأخطر وأعمق أبعادها، في فلسطين بخاصة؛ حيث تتلاقى على حربه المعسكرات العدوّة، المتحالفة فيما بينها! يساعدها الطواغيت في أمتنا، ولله عاقبة الأمور.

شَكَر الله للأخ الأستاذ الداعية المخلص «آدم عبد الله الألوري» جهده وجهاده، ووفقه وأخذ بيده، وهداه وهدى به، وكان لنا وله.. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج/ ٤٠].

عن رباط الفتح في العاشر من
شعبان سنة ١٣٩٠
عمر بهاء الدين الأميري

من تقاريظ الكتاب

كلمة الشيخ محمد ناصر محمد كبر

مدير مدرسة الشريعة الإسلامية بكنو (حاليًا)

الحمد لله الذي علَّم بالقلم الإنسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير ولد عدنان، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم، إلى يوم الدين بإحسان.

وبعد:

فلقد أتاح الله الفرصة السعيدة للعلاّمة الأستاذ الجِهْبِذ[1] اللوذعي الألمعي[2] العلم العليم، الفطن التِّبن[3]، الحذقة اللبقة، البحر الحبر الفهامة، المؤرخ المثقف، الشاعر الأديب، نسيج وحده وفريد عصره: آدم عبد الله الألوري أن وفقه الله لإبراز كتابه: «الإسلام في نيجريا وعثمان بن فودي» كتاب ينادي على مصنفه بالتقدمة على الأقران في هذا الزمان، كتاب قضى به مؤلفه الدَّين الذي على رقاب علماء نيجريا قديمًا وحديثًا. فيه حصلت براءة الذم من فطاحل

(١) الجِهْبِذ: النَّقاد الخبير. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب وسوف يستعمل الرمز (م) لاحقًا للإشارة إلى ذلك).

(٢) اللَّوْذعي: الظريف الذكي سريع الجواب، الألمعي: المفرط الذكاء. (م).

(٣) التِّبن: الفَطِن دقيق النظر في الأمور. (م).

هذه الأمم. وقد نَوَّه هذا الكتاب بمفاخر اندرست معالمها، وانطمست أعلامها، وذهبت عوالمها، فها هو يخبر العالم بمكارم الآباء والأجداد في الأعصر الخالية، التي ازدهى فيها علم الإسلام، وترفرفت وعَلَت فيها ذؤابة العلماء، وتسامى قدر الطالب وتشرق. وفديت مهج الدين بمهج الطين، فربحت التجارة الحديثة.

على أننا إذا جمعنا تلك المكارم القديمة إلى مكارم هذا المؤلف الفخيمة أنشدنا:

تِلْكَ المَكَارِمِ لا قَعْبان مِن لَبَنٍ ... شِــــيبَا بَمَاءٍ فَعَادا بَعْدُ أَبْوالا

فلا أراه إلا كمن أحيا أمواتًا، وأنعش عظامًا رفاتًا. فهل فوق ما فعل يوجد شيء يفتخر به علم الإسلام في هذه الأقطار؟ فالمولى يجازيه جزاء المحسنين، ويكتب عمله في سجل المقربين، المرقوم في عليين.

ذي الحجة ١٣٦٨
محمد ناصر محمد
خادم العلم والإسلام بمدينة كنو

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ ألف سنة مضت، عرف المسلمون بلاد السودان الغربي، أو بلاد «التكرور» كجزء من العالم الإسلامي، ذي ثقافة مكتملة وحضارة مزدهرة.

ثم عرفوها منذ مائة سنة أثناء الاستعمار الأوربي بأسماء مختلفة، في حدود مصطنعة، فانطوت في زوايا المجاهيل من أثر ما أصابها من تدهور وانحطاط.

ولما انبعثت بلاد أفريقيا من رقدتها على أعقاب الحرب العالمية الثانية، اشتدت حاجة هذه البلاد إلى من يعرف العالم بها من جديد تعريفًا صحيحًا في ثوب قشيب.

فتعين عليَّ أن أعمل ما يسد هذا الفراغ في المكتبة العربية، وأن أسقط عن علمائنا هذا الفرض الكفائي، فنشرت عام ١٩٥٠م: «كتاب الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي» فأثلج بعض الصدور الغليلة، وكشف اللثام عن هذه الجهات المجهولة، ثم نفدت النسخ منذ سنوات في فترة أحوج ما يكون الناس إليها بداخل البلاد وخارجها.

على أني قد وعدت القراء بإضافة ما أكتسب من فوائد تاريخية إلى الطبعة الثانية، ولكن عدم توفر الإمكانات الأدبية والمادية لرجل عادي مثلي، يبحث عن وثائق التاريخ في مثل هذه البلاد، حال دون عثوري على الكثير من تلك الوثائق والآثار لمدة عشرين عامًا، فاكتفيت بالقليل الميسور عن الكثير العسير.

هذا، وقد جَدَّت شئون كثيرة تمخضت عن الأحداث السياسية، وتطورت عن الحياة الثقافية، وتقلبت عن المعيشة الاجتماعية من أيام الاستعمار إلى أيام الاستقلال، حتى وصلت إلى الحرب الأهلية التي انتهت بالنصر الباهر للوحدة على الفُرقة، وللوطن على الاستعمار، وللإسلام على الصليبية. وكل ذلك من غير شك مما يعطي القارئ متعة وسلوى عن كل ما يحتمل من نقص وغضاضة في أمور أخرى.

فها هي ذي الطبعة الثانية، فأرجو قبول معذرتي في كل غَثٍّ وفَجٍّ[١] ورَكَاكة وخِداج[٢].. لأن السليقة التي نشأت عليها، والبيئة التي أعيش فيها لا تساعدان على النضوج الكامل في التعبير والتأليف، فليقتنع القارئ الكريم بما يشير إلى المقصود من تعبيري، ولو لم يؤد المعنى بالبيان التام.

---

(١) غَثٌّ وفَجٌّ: غث الكلام وفَجُّه هو الفاسد الرديء من الكلام. (م).

(٢) رَكَاكة وخِداج: ركاكة سَخَف اللفظ وضعفه، والخِدَاج: النَّقص. (م).

ولم ألتزم تقييد صفحات المراجع في كل موضوع، بل ذكرت أسماءها في صفحة واحدة. فأرجو الإغضاء عن هذه العورات كلها، عفا الله عنا وعنكم جميعًا.

المؤلف

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على من لا نبي بعده. كان للتاريخ بين العلوم العقلية والنقلية مكانة لا تُجْهَل، ومزية لا تُنْكر، وله أثره القوي في دفع عجلة التقدم إلى الأمام؛ لأن دراسة التاريخ لا تكون تسلية بذكرى الوقائع والأخبار فقط، ولكنها تكون تذكرة وتربية بأحوال الأمم الماضية، وبيئاتهم المختلفة في الأعصر السالفة. لتحسين الشئون في الحياة الحاضرة على حد قول الشاعر:

لَيْسَ بِإِنْسَانٍ ولا عَاقِلٍ مَنْ لا يَعِي التَّاريخَ في صَدْرِه
ومَنْ وَعَى أَخْبَارَ مَنْ قَبلَه أَضَافَ أَعْمَارًا إلى عُمْرِه

ومهما يكن الأمر من شيء، فإن تاريخ كل أمة في المبدأ لا يخلو أكثره من الأساطير التي يتشدق بها البسطاء من عصرها السابق للتاريخ، فيتعداه إلى عصرها التاريخي، والعصر التاريخي بالذات، قد يسجل الأوهام والأكاذيب التي

تنشأ من الجهل أو الغفلة، أو يحمل الافتراضات والتخمينات التي تنشأ من التعصب أو الغيرة. ولا يكاد ينجو من هذه وتلك إلا الموفقون المنصفون، وقليل ما هم.

وإذا رجعنا إلى فجر تاريخ نيجيريا، وجدنا أنه يقرب من ألف سنة، عند اتساع النفوذ الإسلامي بغرب أفريقيا. ولكنه تاريخ محدود في دائرة ضيقة من بعض بلادها لم يتسع إلى سواها؛ لأن علماء أفريقيا الغربية للمسلمين القدماء لا يكترثون بتدوين حوادث بلادهم التي شاهدوها، ولا بدراسة أحوال أرضهم التي نشأوا فيها وترعرعوا فوقها، وإنما يطمحون إلى دراسة أحوال البلاد النائية ويصرفون النظر عن بلادهم الدانية، اللهم إلا ما كان منذ أربعمائة سنة؛ حيث بدأ قليل من العلماء يسجلون تاريخ بعض الأمراء والعلماء في هذه البلاد، وبالطليعة الأولى منهم: «أحمد بابا التمبكتي» المتوفى ١٠٠٣، و«عبد الرحمن السعدي»، و«آل فودي» وتلاميذهم. فهؤلاء الذين بحثوا في التاريخ الإفريقي القديم، وتركوا لنا منه شيئًا نستضيء به في البحث، ونهتدي به في التأليف.

ثم إني طالعت الكتب الموضوعة باللغة الإنكليزية، فألفيتها مزيجًا من الحق والباطل، أو خليطًا بالإخلاص والتعصب. كما وجدت نتفًا من الكتب العربية لبعض الرحالة العرب الذين زاروا البلاد زيارة عابرة، وكتبوا مشاهداتهم، وأضافوا إليها أشياء منقولة من الكتب الإنكليزية، فجاءت كتبهم بضاعة مزجاة.

ومن أجل ذلك نهضتُ لتتبع تاريخ هذه البلاد مستعينًا بمؤلفات أهلها، واعتمدت كتب الإنكليز فيما يخصهم لمعرفة تواريخهم.

وأضفت إلى ذلك كله ما وعيت من الأخبار المتواترة عند علمائنا الكبار وشيوخنا الطاعنين في السن، وزدت عليها بعض حوادث شاهدتها، وأخبارًا وعيتها. ولم يكتب عنها أحد قبلي، خصوصًا في تاريخ بلاد «يوربا». وقد تحاشيت الخطأ ما استطعت، ومع ذلك لا أدَّعي الكمال، والكمال لله وحده.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

آدم عبد الله الإلوري
رمضان ١٣٦٩هـ.
يوليه ١٩٥٠م

تعريف نيجيريا

النيجر مُحَرَّفة من نيغرو، وهي كلمة لاتينية، معناها الزنجي الصغير والأسود القصير. ولقد أطلقتها الأمم القديمة على سكان غرب أفريقيا وأوستراليا، كما أطلق العرب عليهم كلمة الزنج أو النوبة أو السودان، وأطلقوا كلمة نيل السودان على نهرهم الذي ينبع من أعالي فوتاجالون، ثم يجري شرقًا إلى نواحي الصحراء الكبرى، مارًّا ببلاد تمبكتو، ثم ينحدر جنوبًا إلى ثغر «لوكوجا»؛ حيث يلتقي به نهر بنوى الآتي من بلاد أدماوي، النابع من سفح جبال كمرون، فيتحد الاثنان ويصبان في المحيط الأطلسي بنواحي خليج بنين.

وتُقَدّر مسافته من منبعه إلى مصبه بنحو ألفين وخمسمائة ميل، وهو ثاني الأنهار الأربعة المشهورة في إفريقيا: «النيل، والنيجر، والكنغو، والسنغال».

وكلمة نيجيريا بالمعنى العام، تعني ما حول بلاد نيغرو أو ما حول وادي النيجر.

وعلى صحة هذا التعبير تنطبق الكلمة على سائر البلاد التي وُجِدَ فيها نيغرو «قبائل الزنج» بغرب أفريقيا، أو على البلاد التي مرّ بها النهر من منبعه إلى مصبه، حتى يشمل جميع ما يعرف اليوم بغرب أفريقيا؛ لأن النهر قد اخترق معظمها في مروره.

وإذا ضربنا صفحًا عن التحديدات السياسية والتقسيمات الاستعمارية، وجدنا أن جميع البلاد الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى جنوبًا وغربًا حتى المحيط إلى حدود الكنغو، كانت تسمى في التاريخ القديم بالسودان الغربي، وعليه كتب الأولون من أمثال البكري وابن خلدون والتمبكتي والسعدي.

أو أنها كانت تسمى بلاد التكرور، وعليه كتب المتأخرون كالسلطان محمد بللو في كتابه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور».

ولقد كانت الدول التي تقوم بغرب أفريقيا تكتسح جميع أجزائها وتصهرها في بوتقة واحدة، تحت عنوان غانة مرة، ومالي حقبة، وتكرور دورة، وسنغي تارة، لم تتوزع في العناوين المختلفة الحديثة، مثل السنغال والداهومي ونيجيريا، إلا بعد تكالب المستعمرين عليها.

والواقع أن قبائلها ولغاتها تبلغ المئات عند تعدادها، ولكن ذلك لا يضرها شيئًا؛ إذ لا يكاد يسلم شعب أو أمة في العالم من وجود عناصر مختلفة اللغات والقبائل والديانات، ثم لا يضرّ ولا يقدح ذلك في وحدتها ولا في دولتها.

وكذلك فإن قبائل غرب أفريقيا، وإن كانت متعددة في الفروع فهي متّحدة في الأصول، متقاربة في التقاليد والعادات، متماثلة في الحروف واللهجات، متشابهة في العقائد والديانات، متعاونة ومتحالفة في الدفاع عن الغارات والهجمات.

إذ ليست بين أقطارها حواجز طبيعية ولا موانع أصلية، وكلهم سواسية تجمعهم وحدة اللون والإقليم والمنطقة. فإنك لا تستطيع أن ترسم حدود غانة القديمة ومالي وسنغي وبرنو دون تداخل بعضها في بعض أو دون تداخل حدود بعضها بعضًا فيما نسميه اليوم نيجيريا والسنغال ومالي وغانة.

أما أصول قبائل غرب أفريقيا فترجع إلى خمسة جراثيم[1]، وهي: إما بربرية، أو فينيقية أو رومية أو نوبية، أو عربية. وقد امتزج بعضها ببعض عن طريق المصاهرة حتى تكونت منهم القبائل الحاضرة.

ولكل قبيلة لغتها الخاصة قد لا تفهمها جارتها إلا بالتعلم غير أن أعظم لغاتها هي الفلانية التي تشعّبت إلى لغة الماندنغ والولوف في بلاد السنغال ومالي وغينيا ونيجيريا، ثم لغة هوسا التي تقرب كثيرًا من العربية بحروفها وقواعدها وهي شبيهة بلغة السواحلية في جنوب أفريقيا ومن بعدهما تأتي لغات الكانوري واليوربا ونوفي.

---

(١) جراثيم: جمع جُرْثومة وجرثومة كل شيء أصله ومجتمعه. (م).

بين شمال أفريقيا وغربها

الصلات التي تربط شمال أفريقيا بغربها متوغلة في القدم، تعود إلى أيام الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان الذين هم أول من افتتحوا طرق التجارة والسياسة بين بلادهم وبين قبائل الزنوج.

لا يفصل بين شمال أفريقيا وغربها إلا الصحراء الكبرى، وليست هذه الصحراء قاحلة، بل يوجد في بعض أطرافها واحات مبعثرة. وليست هذه الواحات خالية من السكان الذين يسهِّلون مرور القوافل المجتازين من الشمال إلى الغرب ذهابًا وإيابًا.

وكانت قبائل العرب الصنهاجيين والزناتيين وغيرهم، من الذين نزحوا مع أفريقش إلى أفريقيا، ممن لعبوا دورًا ملموسًا في تسخير هذه الصحراء، وتذليل صعوبات المواصلات فيها بِجِمالهم وبِغَالهم.

لأن طبيعة الإقليم ومنطقته شبيهة في جدبها بطبيعة جزيرتهم التي نزحوا منها، لذلك لم يجدوا صعوبة في استعمار تلك الأراضي واجتيازها إلى ما وراء الصحراء في الجنوب والغرب باستثناء المناطق الكثيفة في الغابات الاستوائية.

لم يترك أولئك القوم مدينة من مدن الزنوج القديمة إلا دخلوها وتعاملوا مع أهلها. غير أن أكثر تلك البلاد القديمة قد اندرست منذ زمن من جراء الحروب المتوالية وانمحت من الخريطة، ولم يبق إلا أسماء بعضها في صفحات التاريخ.

وأكثر البلاد القائمة اليوم لم يكن لها أثر قبل أربعة قرون وإنما قامت على أنقاض سابقتها المندرسة[١].

على أن الجهات الشمالية وما يليها إلى الجنوب هي التي كانت أكثر عمرانًا وأقدم حضارة من زميلتها الجنوبية، التي تمنع الغابات الاستوائية من عمرانها حيث تكثر فيها الحيوانات الضارية والحشرات السامة في المستنقعات الآسنة، فلا يلجأ الناس إليها إلا اضطرارًا إذا فروا من وجوه أعدائهم.

(١) المندرسة: التي ذهب أثرها. (م).

دخول الإسلام في غرب أفريقيا

لقد ثبت وجود الصلة بين شمال أفريقيا وغربها قبل ظهور الإسلام بمئات السنين، لذلك صار من السهل أن يصل نفوذ الإسلام إلى غربها على أثر دخوله إلى شمالها. ولقد سجل التاريخ سرعة نفوذ الإسلام في أفريقيا، بل في العالم كله بصورة مدهشة في مدة وجيزة، لم تستطع أية عقبة منيعة أن تقف أمامه إلا ذللها وظهر عليها واجتازها إلى ما وراءها.

وكلما اعتنقت الإسلام قبيلة تحملت لواء الدعوة الإسلامية إلى ما تليها من القبائل المجاورة. هكذا فعل البربر والونغاره والفلانيون والهوسا، وفق ما كانت تفعل الصحابة الذين وصفهم البوصيري بقوله:

مِنْ كُلِّ منتدبٍ لله مُحْتسب ... يسطو بمسْتَأْصِلٍ للكُفْر مُصْطَلِم
حتى غَدَت مِلَّة الإسلام وَهْيَ بِهِم ... مِنْ بَعْـــدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِم
مَكْفُولَة أَبَدًا مِنْهُمُ خَيْر أَبٍ ... وخَيْر بَعْـــلٍ فَـــلَم تَيْتَم ولـــم تَئم

عقبة بن نافع
فاتح غرب أفريقيا

صرح الشيخ عبد الله بن فودي في كتابه «تزيين الورقات» بما نصه مع صرف يسير: «إن دخول الإسلام إلى الغرب - يعني غرب إفريقيا - كان بالقرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الصحابي الجليل، إذ إنه وصل إلى قبيلة من قبائل الروم فدعاهم إلى الإسلام، فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة بنت ذلك الملك واسمها بج منغ، فولدت له أولادًا نشأوا في بلاد أمهم، وتكلموا بلغة أبيهم..».

ثم قال: «هذا ما تواتر عندنا وأخذناه عن الثقات العلماء الذين يخرجون من بلاد فوتا».

وعليه قوله في بعض أشعاره:

وعُقْبَة جَد للفُلانين مِنْ عَرَبٍ وَمِن تُور كَانَتْ أُمُّهُم «بج منغ» عَو

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية بإفريقيا، وجدنا أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ولّى عَمْرًا بن العاص على الشام ومصر، ثم ولى عمرو بدوره عقبة بن نافع على شمال إفريقيا وفتحها وأسس بها مدينة القيروان

وجعلها مركزًا لانطلاق دعوته، وترك بها جالية عربية إسلامية، ثم رجع إلى مصر. ولم تتسع فتوحاته هذه المرة إلى الأرجاء المجاورة.

ولما تولى عليها مرة ثانية في عهد يزيد بن معاوية واصل فتوحاته صوب الغرب حتى وصل بلاد السوس، حيث أسلم قبائل المصامدة، ثم استمر حتى انتهى إلى البحر المحيط، وأقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، وقال قولته المشهورة: «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز[1] ولو وجدت مجازًا لجزت»، ثم انصرف راجعًا، وسار نحو الجنوب حتى صادف قبائل صنهاجة وأسلموا على يديه، ودخل طنجة واستمر في أطراف بلاد السودان، ودخل بلاد غانة وتكرور وأسلم على يديه بعضهم. وفي طريق عودته إلى «القيروان» قتله بعض البرابرة، وهو أول زعيم إسلامي استشهد في أفريقيا.

وفي ذلك ما يبرر قول ابن فودي، إذ ليس ما يمنع عقبة من السير صوب الجنوب في بلاد السودان كما منعه البحر عن السير صوب الغرب، لذلك يحتمل أن يجتمع بقبيلة من بقايا الروم، وأن يُسْلِموا على يديه وأن يتزوج منهم بنتهم، وأن يخلف فيهم أولادًا، تنشأ منهم القبيلة الفلانية التي اشتهرت بالعلم والدين وحماية الإسلام وإقامة دولته على أعقاب الأجيال المتعاقبة في غرب أفريقيا.

(١) أن لا مجاز: أن لا معبر ولا ممر. (م).

ومن تولى على أفريقيا بعد موت عقبة: موسى بن نصير الذي سار على نهج سلفه، وأعاد إلى الإسلام البرابرة المرتدين، حتى أحسنوا إسلامهم، وشاركوا في فتح إفريقيا والأندلس.

ثم تولى عليها في عهد عبد الملك بن مروان، زهير بن قيس وتوسع في فتوحاته حتى استشهد بها.

ثم تولى عليها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة فغزا بلاد السوس وحفر سلسلة من الآبار في الصحراء، واستطاع أن يصل الشمال بجنوب الصحراء صلة قوية تسهل الصعاب في سبيل نشر الإسلام ببلاد السودان.

ولم يزل الخلفاء الأمويون يهتمون بشأن غرب أفريقيا ضمن اهتمامهم بشمالها التي هي تابعة لمصر في جميع تلك الأدوار التاريخية.

وكانت الفتوحات تتوسع في كل مرة إلى أن سقطت الدولة الأموية، وقتل أعيانها وأنصارها ولاذ بعضهم بالفرار إلى الأندلس كعبد الرحمن الداخل، وبعضهم إلى مجاهل بلاد البربر كإدريس بن عبد الله العلوي مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب سنة ١٧٢هـ.

وهكذا يوجد هناك الذين تغلغلوا في بلاد السودان، واختبأوا بها حتى الممات، وطويت أسماؤهم في سجل النسيان.

لهذه الحركات كلها آثار ونفوذ تمتد من الشمال إلى الغرب، وتوحي إلى السودان، كيف يقيمون دولتهم الإسلامية التي لمعت فيما بعد بغرب أفريقيا.

المالك التي قامت في غرب أفريقيا

لقد شهدت هذه البلاد ألوانًا مختلفة من الدول، وعرفت أشكالاً متباينة من الحكومات في مختلف العصور المتعاقبة من الزمان.

لقد تأسس بعض تلك الدول على أيدي السودان من السكان الأصليين، وسبق البيضان إلى تأسيس بعضها قبل أن تنتقل إلى السودان.

وامتد بعضها من الشمال عبر الصحراء، وقام بعضها من نفسها في بلاد السودان، وهي كثيرة متعددة وأعظمها وأشهرها غانة ومالي وسنغي وبرنو.

مملكة غانة

نشأت هذه المملكة منذ القرن الثاني الميلادي، وتولى عليها نحو أربعة عشر ملكًا من البيض قبل أن تتحول إلى السود. وربما كان أولئك البيض من القرطاجنيين أو الرومان، الذين اختلطوا بقوم من السكان الأصليين، وتفرع منهم الونغاره.

ولقد اشتهرت غانة عند العرب شهرة مستفيضة حتى زارها الكثير من رحالتهم، وكتبوا عنها في مؤلفاتهم، واشتهر من هؤلاء الكتاب ابن حوقل الذي زار مدينة أودغشت إحدى مدن غانة الشمالية «٩٧٢»م. ثم زارها محمد البكري ١٠٢٨، وذكر أنها بلغت أوج مجدها في القرن العاشر.

الإسلام في غانة

وصف البكري أنه وجد غانة مقسومة إلى قسمين عظيمين: الحي الوثني، والحي الإسلامي. وفي الحي الإسلامي اثنا عشر مسجدًا، تقام الجمعة في أكبرها، وفي كل مسجد إمام ومؤذن وقارئ ومعلم. وفي الحي الوثني قرب القصر الملكي مسجد يصلي فيه المسلمون من حاشية الملك.

وقد امتدت حدود مملكة غانة إلى بلاد نيجيريا شرقًا، وحدود الصحراء شمالاً، والغابات الاستوائية جنوبًا، والمحيط الأطلسي غربًا.

وفي كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»: «إن أهل غانة كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم العالم، وإن بها دولة من القوم العلويين يُعرفون ببني صالح بن عبد الله بن الحسين بن علي، ثم ذهبت دولتهم في المائة الخامسة. وربما كان صالح هذا من إخوان إدريس السالف الذكر في الدولة الإدريسية».

وقد هاجم غانة البرابرة المرابطون في القرن الرابع الهجري، واحتلوها تحت قيادة الزعيم اللمتوني أبي بكر بن عمر، وبذلك انكسرت شوكتهم بعد نحو ألف

عام من نهضتهم.

وعلى أيدي الونغاريين الغانويين انتشر الإسلام إلى بلاد «كاشنة وكانو» بالقرن الخامس الهجري، وذلك بعد سقوط دولتهم وانتشارهم في مختلف الأنحاء والأرجاء.

دولة المرابطين

لقد تعاون رجلان على تأسيس دولة المرابطين هما: عبد الله بن ياسين، والأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني.

وحاصله أن قبائل صنهاجة الذين أسلموا من زمن بعيد، وكان منهم أمراء مسلمون، كالأمير محمد بن تفارت اللمتوني، والأمير عبد الله بن محمد الذي حمل لواء الجهاد حتى مات في إحدى المعارك، ثم الأمير يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة الذي حج إلى بيت الله، وجدد عزمه بعد رجوعه على نشر الإسلام وإصلاح حالته في بلاده، واتصل بشيخ علماء السوس أبي محمد اللمطي، وطلب منه معلمًا يرشد قومه إلى دين الله، فوقع اختيار الشيخ أبي محمد على عبد الله بن ياسين الذي ولد في بلاد جزولة بسوس الأقصى، وطلب العلم في الأندلس وعاد إلى وطنه، فانضم إلى جماعة الشيخ أبي محمد الذي عينه ليذهب مع الأمير يحيى إلى واحات الصحراء للعمل الإسلامي بها، فصار يرشد الناس ويعلم القبائل الملثمين بعناية الأمير يحيى ورعايته، وأحس بمضايقة أعدائه

له، فاعتزل الناس إلى جنوب الصحراء هو والقليل من تلاميذه، وصاروا يعيشون عيشة البداوة على مياه الغابات وثمارها وحيواناتها.

فبنى في حوض السنغال رباطًا، وصار تلاميذه يتوافدون عليه في مكان رباطهم حتى بلغوا ألفًا وسماهم مرابطين، ولم يزل عددهم يربو مع الزمن.

ثم أمرهم أن يقوموا بالدعوة إلى بلاد السودان؛ ثم قاموا بالجهاد فحاربوا ممالك الزنوج، وأسسوا دولة المرابطين في جنوب الصحراء. وجعلوا عاصمتها أوداغشت ١٠٢٠م. ثم عين عبد الله بن ياسين الأمير أبا بكر بن عمر أميرًا في ناحية منها، كما عين أخاه يحيى بن عمر أميرًا في ناحية أخرى. وجاهد يحيى حتى استشهد في حروبه مع الزنوج، وبقي أبو بكر قائدًا عامًّا يفتح الممالك والأقاليم في السودان حتى شملت فتوحاته جميع الجهات المعمورة من شمال السنغال، وشمال غانة، وشمال الداهومي، وشمال نيجيريا.

واتجه ابن ياسين إلى شمال أفريقيا، وعين بها يوسف بن تاشفين أميرًا، فبنى هذا الأمير مدينة مراكش ٤٥٤هـ، واتخذها قاعدة مملكته.

ثم استعان ملك الأندلس به على ألفونس ملك قشتالة، فذهب لنجدته؛ فنجح في ذلك فتلقب يوسف هذا بأمير المؤمنين في المغرب ٥٠٠هـ.

وأما أبو بكر فظل يجاهد في بلاد السودان ويفتح عواصمها وينشر بها الإسلام. وقد هاجم غانة وتكرور ومالي وأدرجها في المملكة المرابطة، ولم يزل

يجاهد إلى أن قُتِل في إحدى المعارك سنة ١٠٨٧ ولعدم وجود من يخلفه في المحافظة على دولته بالسودان، زالت دولة المرابطين فيها، وبقيت في مراكش والأندلس.

مملكة مالي

تأسست منذ زمن بعيد وتملك عليها اثنان وعشرون ملكًا من البيضان، ولما انقرضوا خَلَفَهُم السودان وقد أدرجتها غانة في مملكتها ردحًا من الزمن.

والزعيم الذي حرر مالي من نير غانة هو المسمى «ماري جاطة» وقد هاجم غانة ١٢٤٠م. ودمرها وقضى على أمجادها وأقام دولة مالي، فشملت بلاد غانة وتكرور وسنغي. ووسع نطاق فتوحاته إلى الأقاليم المجاورة إلى أن توفي ١٣٠٠م. ثم صار ملوك مالي وسلاطينها يحملون لقب «منسا»، وأشهرهم منسا موسى حفيد ماري جاطة، الذي حج إلى مكة المكرمة بجيش مؤلف من ستين ألف رجل وخمسمائة عبد، يحمل كل واحد منهم عصًا من ذهب يقدر بنحو أربعة ملايين من الجنيهات.

وقد أحضر منسا موسى مهندسًا عربيًّا يدعى أبا إسحاق ليبني له قصرًا ضخمًا ومسجدًا عظيمًا من الحجارة. ولما أتم البناء كافأه باثني عشر ألف مثقال من الذهب.

وأقام هذا المهندس في غرب أفريقيا ينشر فن البناء الحجري بها ويترك آثاره في مالي وتمبكتو وبرنو إلى أن توفي في تمبكتو. ويقال إنه شاعر مُجيد ينسب الناس إليه بعض القصائد المتداولة في هذه البلاد.

وفي «صبح الأعشى»: «إن الملك منسا موسى بن أبي بكر مرَّ بمصر في طريقه إلى الحج في عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، واستقبله السلطان ناصر بحفاوة بالغة، واستفسر منه عن أمور كثيرة في بلاده، ولما سُئل عن سبب انتقال الملك إليه، أجاب بأن ابن عمه المنسا السابق «محمد بن قو» كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئات من السفن وشحنها بالرجال والمؤن التي تكفيهم لسنين، وأمرهم أن يسيروا في المحيط ولا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته. فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها واحدة أخبر الملكَ قائدُها أن سائر السفن قد ابتلعتها الأمواج فلم ينج منها إلا واحدة لهذا عاد ليخبر الملك بذلك.

فلم يصدق السلطان هذا الحديث وأراد أن يقف على صحة الأمر نفسه فأعد ألفي سفينة للرجال وألفًا للأزواد واستخلف ابن عمه منسا موسى في حكم البلاد فأقلع فكان آخر العهد به وبمن معه».

فاهتم منسا موسى بتوسيع رقاع مملكته في بلاد السودان حتى شملت أرض غانة وسنغي والسنغال وبلاد هوسا وبرنو ويوربا في نيجيريا. وفي عهده انتشر

الإسلام إلى بلاد يوربا فصار يعرف بدين مالي حتى يومنا هذا.

مملكة سنغاي

تقع هذه المملكة بناحية بلاد الداهومي وفلتا العليا إلى جهات بوسا بشمال نيجيريا وكانت عاصمتها مدينة غاَو بالقرب من مدينة زوغوا الحاضرة.

ولقد رأيت من تعليق المجاهد المغربي محيي الدين القليبي على بعض الكتب الفرنسية المترجمة إلى العربية يقول:(١)

«إن ملوك سنغاي أصلهم من اليمن، وذلك أن أخوين فرَّا من اليمن ولجآ إلى كوكيا في مملكة سنغاي، وأصبح أكبرهما ملكًا تحت اسم ضيا اليمن». وذلك يتفق مع ذكر السعدي في «تاريخ السودان» أنهم من اليمن نزحوا إلى السودان من زمن فرعون موسى، وكانوا أربعة عشر ملكًا في الجاهلية، تبدأ أسماؤهم بزا ولعله تحريف ضيا.

وأول من أسلم منهم زاكمن سنة ٤٠٠ هـ، ثم يليهم من تبدأ أسماؤهم بسن حتى جاء إلى آخرهم المسمى «سن علي» الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه المسلم ما بين ١٤٦٤- ١٤٩٢م ورفع رأس سنغاي أمام العالم. وأوجد سفارة بينه وبين ملك البرتغال، حتى جاء عدد من البرتغاليين إلى بلاده وأسسوا بها مصانع

(١) انظر صفحة ٨٠ من كتاب «الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء» تأليف رئيس المكتب الخامس الفرنسي، ترجمة وتقديم الأستاذ محيي الدين القليبي.

إلاَّ أنه فاسق عنيد مستبد كثيرًا مما يخالف تعاليم الإسلام. ولما أنكر عليه علماء تمبكتو وجني وشقوا عصا طاعته، حاربهم لمدة خمسة عشر عامًا، وحزَّب فيها تمبكتو وجني، وقتل علماءها ونهب أموالهم وباع أبناءهم فكان ذلك من أسباب فوات الملك من أيدي أعقابه إلى أسكيا محمد بن أبي أبكر التوري وأحفاده.

محمد بن أبي بكر التوري

كان محمد بن أبي بكر التوري عابدًا وَرِعًا تقيًّا، وكان أصله من زندر واستوطن سنغاي وتوزَّر[1] «سن علي» وكان يمنعه من تصرفاته السيئة. ولكن «سن علي» مستبد برأيه لا يقبل النصيحة ولا يلتفت إلى الناصح، فصبر معه وداراه وأصلح كثيرًا من سيئاته عند الرعية إلى أن مات، فأجمع العلماء رأيهم من أهل تمبكتو وجني وغيرها على أن يتولى هذا الرجل العادل على دولة سنغاي. إذ توزَّر لمدة ثلاثين سنة وعرف فيها آلام البلاد وآمالها وأصلح كثيرًا من أحوالها، واشتهر عند الناس بالصلاح والتقوى فكان أولى بتسلم الإمارة والملك.

فتولى ١٤٩٤م وتعرف بأسكيا محمد، ولقد قام بمناوءته أسرة سن علي ولم يجدوا لأنفسهم من الناس أنصارًا، فذهبت ريحهم تحت عاصفة أسكيا محمد. ونزل الإمام الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي قريبًا من ذلك الوقت ضيفًا على سنغاي، ولقي من التوري حفاوة بالغة واستفتاه في بعض المسائل. وكان من جملة ما سأله حكم الشريعة في انتقال الملك إليه في المسألة التاسعة

(١) توزَّر: أي أصبح وزيرًا له. (م).

من «أجوبة الفقير على أسئلة الأمير» ما نصه:

«المسألة التاسعة في شأن بلاد سنغاي وأهلها فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون، ومدينتهم فيها الجامع والجمعة والجماعة، والأذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد سلاطينها فقتلوا أولئك الكفار، وملكوا البلاد المذكورة وسكنوها على الإسلام أكثر من ثلاثين سلطانًا قبل سن علي، الذي كان أبوه مسلمًا وكانت أمه من بلدفار، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار ويتصدقون لها ويسألون حوائجهم عندها، فإن أصابوا خيرًا زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم، وإن لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم؛ فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفرهم قصدوها ونزلوا عندها وفيهم كُهَّان وسَحَرَة يقصدونهم كذلك.

وكان سن علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم في شركهم وعوائدهم. ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة، فقام على أهل سنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغاي.

إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين إخوانه الكفار، كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، وإنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيرًا بالذبائح عند المساجد

ونحوها. ومع ذلك يعبد الأصنام، ويصدق الكُهَّان، ويستعين بالسحرة، ويعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبائح عندها والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب الحوائج منها.

ومن صفته أيضًا أنه ما رُئي قط في جامع ولا مسجد، لا هو ولا أحد في دائرته في يوم جمعة ولا غيره. وفي دائرته ألوف لا يصوم أحد منهم ولا يصلي خوفًا من عقابه إلا خفية، وأما هو فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلي الصلاة المكتوبة في وقتها، ولا يقوم ولا يركع لها بل يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل، أو إلى وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة التشهد ويومئ إلى الركوع والسجود من جلوسه، وهو صحيح قوي لا علة به، ولا يقرأ في صلاته تلك شيئًا وإنما يذكر في خفضه ورفعه اسم الصلاة، ويقول مثلاً في المغرب: «المغرب»، وفي العشاء: «العشاء» وكذا سائر الصلوات.

ومن صفته أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، ولا يبالي بزوجها ولا أحد من أهلها.

ومن صفته أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، وقتل من القُرَّاء والفقهاء والعُبَّاد والنساء والصبيان والرُّضع، ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يُحصى؛ ولم يزل على ذلك مدة عصره حتى مات.

لهذا قام محمد أسكيا فملك البلاد وأزال الفساد». هذا نص الاستفتاء إليك الجواب:

«إن سن علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره ممن ينتسبون إلى العلم وغيرهم، لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه.

وأما هل هم كفار أم لا؟ فلا يكفر أحد بالذنب من أهل القبلة، وإنما يكون التكفير بأمر من الأمور الثلاثة:

الأول: إما أن يكون نفس اعتقاده كفرًا، كإنكار الصانع أو صفة من صفاته التي لا يكون صانعًا إلا بها أو جحد بالنبوة.

الثاني: صدور ما لا يقع إلا من كافرين لم يكن كفرًا في نفسه، مثل استحلال شرب الخمر، وغصب الأموال، وترك فرائض الدين والقتل والزنا وعبادة الأوثان، والاستخفاف بالرسل وجحد شيء من القرآن.

الثالث: أن يقول قولاً يعلم أنه لا يصدر إلا من جاهل، ففيه الخلف وعليه الخلف في تكفير المعتزلة وأهل البدع وعدمه وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذي ذكرتموه من حال سن علي كفر بلا شك. وإن كان الأمر فيه كما ذكرتم فهو كافر، وكذلك من عمل بمثل عمله، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك».

وبإضافة فتوى المغيلي إلى فتاوى علماء تمبكتو وجني وغيرها، اطمأنت نفس أسكيا محمد على إقامة دولته الإسلامية في غرب أفريقيا. وامتدت هذه الدولة حتى شملت مالي وغينيا والداهومي ونيجيريا الحاضرة، وكانت عاصمتها مدينة غاو بالقرب من مدينة زوغو.

حج أسكيا محمد في أبهة الملك التي لا تقل روعة وجلالاً من أبهة منسا موسى السابق. وبقي الإمام السيوطي وخالد الأزهري وكثير من أعلام الإسلام بعصره. وعاش في الدولة حوالي ٣٦ سنة وابيضت عيناه من متاعب الدولة، فتخلى عنها لابنه موسى من سنة ١٥٢٨م. واستمرت الدولة في عقبه حتى انتهت إلى آخرهم المسمى أسكيا نوح ١٥٩٤م. فسقطت تحت هجمات سلطان مراكش مولاي أحمد المنصور الذهبي، من الملوك السعديين الذين عملوا على توسيع ملكهم إلى السودان، واستولوا على مناجم الملح والذهب هناك.

مملكة برنو وكانم

لقد قامت هاتان المملكتان على التعاقب حول بحيرة شاد، وتنقّلت عاصمتهما بين كانم وكوكاوا كرّات عديدة، مرة في كانم وكرة في برنو.

البرناويون والكانميون قوم من البرابرة جيران النوبة، في حدود مصر العليا[١]. قامت أول دولتهم الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري، واكتسحت بلاد هوسا جنوبًا كما امتدت إلى حدود مملكتي فوروسنا، حتى حدود مصر شمالاً واتصلت بحدود كبي وصحراء ليبيا غربًا. وقد هاجمها ملوك غانة ومالي وغلبوا عليها وضموها إلى دولتهم، ثم عمل ملوكها على استقلالها.

وقد وصفها ابن خلدون في تاريخه أن لهم تغلبًا على بلاد الصحراء إلى فزان. وكانت لهم مهاداة مع الدولة الحفصية من أولها، ووصلت هدية ملك كانم، صاحب برنو من قبل طرابلس، إلى تونس، وفيها الزرافة الغريب الخلق، فكان لها بتونس مشهد عظيم سنة ٦٥٥هـ[٢].

وفي «صبح الأعشى» إن الذي فتح برنو رجل من بني عثمان بن عفان نزح إليها من مصر[٣] عبر بلاد النوبة ودارفور، حتى وافى بلاد برنو وفتحها وأسس بها دولة، وكان ملوكها الأولون يعرفون باسم أوم، ثم انتقل إلى أيدي ماي، ثم إلى أيدي شيوخ.

---

(١) هنا من ينسبون البرناويين إلى تبابعة اليمن أو إلى أُسرة سيف بن ذي يزن، وإنهم نزحوا إلى هذه البلاد عن طريق باب المندب قبل ظهور الإسلام.

(٢) نقلت هذا الكلام من كتاب مخطوط لابن فودي، إذ لم أقف على «التاريخ الكبير» لابن خلدون.

(٣) الجزء الذي جاء فيه الكلام على برنو.

ولقد بلغت برنو أوج مجدها أيام إدريس الأول ثم إدريس الثالث الملقب ألوما ١٥٣٤م. وكان جيشها مسلحًا بالبنادق التركية، وكان لها سفراء لدى الدول العربية والإسلامية، وكان لأهلها في القاهرة مدرسة خاصة بالفقه المالكي ثم خصص لهم بالأزهر رواقًا ضمن أروقة البلاد الإسلامية.

ولما زار ابن بطوطة غرب إفريقيا ودخل تكدة وأكدز وتمبكتو ومالي وغيرها، أراد أن يزور برنو ولكنه رجع لما سمع أن السلطان لا يظهر للناس إلا مرة في العام ولا يخاطب الغرباء.

الإسلام في بلاد هوسا

اتفقت أقوال المؤرخين لبلاد «هوسا» أن ملوكها السبع يرجعون في أصل تكوينهم إلى رجل عربي مسلم يعرف بـ «أبا زيد». وقال شيخنا آدم نماج الكنوي أن اسمه هوذة، نزح من بغداد في أواخر القرن الثامن الميلادي، وهام على وجهه في الأرض حتى وصل إلى دورة. ثم أصبح أحفاده ملوك «هوسا» السبع في «دورة»، و«كانو» و«كاشنة» و«زكزك» و«زنفرة» و«رنو» و«بُرَم».

وإن صح هذا القول فلا يبعد أن يكون هذا الرجل من بقايا بني أمية المشردين بقيام دولة بني العباس، إذ كان السفاح يتتبع آثارهم للقضاء عليهم. فيكون هذا الرجل العربي المسلم أول من أدخل الإسلام في بلاد «هوسا» وربما اندرست آثاره بعد ذلك، من أجل ما عرف من عادة كفار هذه البلاد من سرعة ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان.

ثم إننا رأينا أن أسبق بلاد «هوسا» إلى ميدان الحضارة والعمران هي مدينة «كاشنة» التي تقع على طريق القوافل المارة من «تمبكتو» إلى «برنو» ومصر. وقد قامت بها سوق عظيمة يحضرها البرابرة والوناغرة والعرب أواسط القرن الثاني عشر الميلادي.

لم نعرف بالوضوح وقت دخول الإسلام بها حقيقة، غير أن المشهور وهو أن أهلها قدماء الإسلام، بل هم الذين حملوه إلى مدينة «كانو» في القرن الثالث عشر الميلادي.

وإذا نظرنا إلى الحركات الإسلامية التي تدفقت من الشمال إلى الغرب، والتي امتدت من «غانة» و«مالي» و«أوداغشت» فلا نشك في أن نفوذ الإسلام قد امتد إلى بلاد «هوسا» منذ وقت ظهوره وانتشاره المعروف.

وقد كتب المؤرخون أن أهل مدينة «كنو» قد عرفوا الإسلام على أيدي الوناغرة، الذين وفدوا إليها من «كاشنة». وعرف الوناغرة الإسلام على أيدي العرب والبرابرة. وذكر أحمد بابا التمبكتي: «أن بلاد «برنو» و«كاشنة» و«زكزك» قد أسلم أهلها منذ القرن الخامس الهجري طوعًا من غير استيلاء أحد عليها»[١].

والواضح أنها صارت بلادًا إسلامية في القرن الخامس، بعد أن كان الإسلام ينتشر بالتدريج قبل ذلك بزمن، إذ لم يكن هناك فتح أو استيلاء لأحد عليهم، وعلمنا بذلك أن وقت انتشاره وذيوعه غير وقت دخوله واعتناقه. وأول من أسلم من ملوك مدينة «كنو» هو عثمان زمنقاوي ثم كنجيج، ثم ابنه عمر الذي تعلم القرآن والفقه والحديث، وقرب إليه العلماء وأقام الشريعة. ثم جاء بعده محمد رنفا الذي رفع شأن الإسلام في «كنو». وفي عهده حضر المغيلي إلى «كنو»

(١) انظر «ضياء السياسة» للشيخ عبد الله بن فودي. وهو مخطوط.

وعبد الرحمن الزيتي الونكري وغيرهما من الأعلام. بل هو الذي كتب المغيلي له نصائح ووصايا ورسائل وفتاوى.

الإسلام في بلاد يوربا

تقع بلاد «يوربا» جنوب نهر النيجر، وتمتد من حدود هذا النهر شمالاً وشرقًا وإلى المحيط الأطلسي جنوبًا وحدود الداهومي غربًا.

ويعود تاريخ قبائل «يوربا» في هذه البلاد إلى نحو ألف سنة، وكان يعمرها قوم من البرابرة والزنوج والنوبة، قبل نزول «يوربا» الذين هم من العرب. وأقدم بلاد يوربا جميعًا هي مدينة «أليفي» ثم «أيولي» ثم «إيكوبي» وهذه المدن الثلاث هي التي كانت بمثابة الأصل لسائر بلاد «يوربا» البائدة منها والقائمة حتى اليوم، ومنها نزحت القبائل المنتشرة وأسست جميع البلاد الحاضرة.

لم نسمع بخبر الإسلام إطلاقًا في مدينة «أليفي» إلا من أوائل القرن الماضي فقط. أما مدينة «أويولي» المجاورة للأقطار التي تأثرت بنفوذ الإسلام منذ قرون عديدة، فقد عرف أهلها الإسلام من عهد المنسا موسى سلطان مالي في القرن الثالث عشر الميلادي فنسبوه إلى الملاويين وصاروا يسمونه بدينهم إلى يومنا هذا. ولقد ثبت في تاريخ يوربا أن أهل مدينة أويولي عرفوا الملح من أيدي البيضان، الذين دخلوا أويولي في عهد الملك الأَفِن[1] المسمى «أوبالوكُنْ»، وإذا

(١) الأَفِن: ضعيف العقل والرأي. (م).

علمت أن العرب هم الذين يتاجرون إلى هذه البلاد من شمال إفريقيا، علمت أن العرب هم أولئك البيضان المذكورون.

ولقد علمت أن الحروب التي قامت بين سلطان مراكش وبين ملك سنغاي، إنما قامت من أجل الاستيلاء على مناجم الملح في بلاد تكده، بأرض سنغاي. وفي تاريخ «يوربا» لمؤلفه ميكيلي كراوثر: «إن الدعاة الإسلاميين من أهالي نوفي قد وصلوا الذروة في نفوذهم على مدينة أويولي، حتى حدث أن الملك الأفن المسمى (إيفن أوجو) أصدر أمرًا بقتل عدد من رجال حاشيته، فَشَقَّ الأمر على قومه ثم استطاعوا أن يخلصوهم من هذا القتل، بتدخل أحد العلماء النوفاويين صاحب القول المسموع لدى الملك في عهده، حيث شفع لهم عند الملك، فقبل شفاعته فيهم».

على أن النوفاويين قد استطاعوا ذلك كله بعد تغلبهم وانتصارهم على أهل أويولي في الحرب الواقعة بين الطرفين، بمنتصف القرن السادس عشر الميلادي.

ومن الأسف أن نسمع بأن الشيخ محمد بن مسنى الكشناوي المتوفى ١٠٧٨هـ قد ألف كتابًا سماه «أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا» فضاع الكتاب في خبر كان، ولو عثرنا عليه لأفادنا الكثير من أخبار هذه البلاد القديمة.

ولما كتب أحمد بابا التمبكتي: «أن جميع البلاد الواقعة جنوبًا من بلاد هوسا، كبلاد يوربا وغرما وكتكل وبرغو كلها بلاد كفر»، إنما بنى حكمه هذا على

عدم كون سلاطينها مسلمين، إذ الناس على دين ملوكهم، وذلك لا يمنع وجود المسلمين بها إطلاقًا.

وقد سبق ما رواه البكري في وجود الحي الإسلامي والحي الوثني جنبًا إلى جنب، تحت رعاية سلطان غانة الكافر، ووجود المساجد في الحي الوثني حتى في القصر الملكي بالذات.

وإنما ضعف شأن الإسلام في بلاد يوربا لكون ملوكها وأمرائها كفارًا، ولعدم ظهور بطل يجمع بين الدعوة والجهاد في سبيل الإسلام، كما في بلاد هوسا وغانا ومالي.

بل كان الإسلام فيها غالبًا دين الأجانب من الملاويين والهوساويين والبرناويين، وكانوا إلى الطرق السلمية أَمْيَل في دعوتهم إلى الإسلام منها إلى الطريق الحربية. وقد صح أن أول مسجد أُسّس في أويولي يعود إلى ١٥٥٠م بناه الشيخ محمد نوفاوي المذكور سابقًا.

وإن القرية المسماة «ربوة السنة» قرب «إلورن» قد تأسست منذ حوالي ١٧٠٠م، وكان جميع سكانها من المسلمين النازحين إليها من البلاد المجاورة.

وكذلك قرية المسلمين البرناويين المسماة «أيج» تأسست في القرن السابع عشر. وإن الإسلام كان معروفًا في بلاد «كيتو» على يد عالم بربري يدعى «مالم

سوفو» منذ ١٧٦٠م وبلاد «كيتو» من أكبر بلاد يوربا القديمة. وقد وقعت الآن في الداهومي.

وأول مسجد في مدينة «إسين» يرجع تاريخه إلى نحو ١٧٧٠م بناه «مالم أبوكي»، وهو كشناوي.

وأول مسجد في «لاغوس» كان في سنة ١٧٧٥م في عهد الملك المسمى «أديلي الأول».

وأول مسجد في مدينة «إيوو» كان منذ ١٧٥٥م، بني في عهد ملكها «محمد لامويي».

هكذا كان يوجد الإسلام في بلاد «يوربا» مبعثرًا ينتشر انتشارًا بطيئًا على أيدي التجار المتجولين أولاً، ثم على أيدي الدعاة المجهولين ثانيًا.

وكانوا يستعملون التيسير والتدريج في دعوتهم إلى الإسلام، لذلك ظل فيها غريبًا أو ضعيفًا أو محصورًا في بعض الجهات إلى أن قامت أخيرًا في مدينة «إلورن» دولة إسلامية تحت لواء «ابن فودي».

الإسلام وتطوراته في وداي النيجر

لقد ظل الإسلام يتطور في وادي النيجر بين النشوء والارتقاء، ويتقلب بين الانتشار والانحسار، حتى ليكاد القارئ يتهم الكُتّاب عن الإسلام، في إقليم واحد كأنهم يكتبون ضَعْفًا بعد قوة، أو كفرًا بعد إيمان، أو أثرًا بعد عين، أو جهلاً بعد علم.

لقد ابتدأ مثل ذلك من أيام الصحابة والتابعين في شمال إفريقيا، حيث يقال:

«إن البرابرة قد ارتدّوا بعد إسلامهم أكثر من اثنتي عشرة مرة قبل تمام استقرارهم عليه. وهكذا كان الأمر في سائر أقطار غرب إفريقيا؛ حيث يرتد الأخلاف إثر إيمان أسلافهم. وقد قال العلماء: إن الرجوع إلى الكفر يكون بأدنى سبب. ومثله قول الشاعر:

عَدْوَى البَلِيدِ[1] إلى الجَلِيد[2] سَرِيعة كالجَمْر يُوضَعُ في الرَّمَاد فَيَخْمُد

ومن الغريب أن تبقى بعض القبائل وثنية تحت حكومة بعض الدول الإسلامية القوية، مثل غانة ومالي وسنغي وبرنو وسوكوتو.

وربما نفسر هذه الظاهرة برغبة بعض الأمراء في بقاء تلك القبائل على الكفر؛ لأن إسلامهم يحرمهم الجزية التي يستفيدونها منهم كل عام.

على أن تسامح الإسلام وعدم إكراه الناس على الدخول فيه يدفع الإسلام أحيانًا إلى كفة الرجحان، كما ينزل به إلى كفة النقصان أحيانًا أخرى.

ويتعرض الإسلام للضعف والنقصان حيث تدور دولته، إلى تدهور بموت مجاهد الناحية من الأمراء أو العلماء، وتولي من هو أقل منه نفوذًا، أو أضعف منه قوة، فيرتد الذين أسلموا للقوة القاهرة لا للعقيدة الراسخة. أو يرتد ضعفاء الإيمان إذا تعرضوا للاضطهاد من ذوي الأديان الأخرى، ولم يكن هناك من يدافع عنهم ويأخذ بيدهم.

وكذلك يترجح الإسلام حيث نجد لباقة المسلمين في المعاملة، وإجادتهم الحكمة في الدعوة، حتى يتمكنوا من الإقامة على دينهم ومباشرة شعائره بكل حرية تامة؛ بين الكفار الأقوياء من غير أن يتعرضوا للخطر والاضطهاد. ولا يزالون

---

(١) البليد: المستكين الذي يقبل الضيم. (م).

(٢) الجليد: القوي الشديد البأس. (م).

يدعونهم إلى الإسلام حتى يقبل من أراد الله به خيرًا منهم أو من أبنائهم.

وللإسلام في غرب إفريقيا أطوار أربعة؛ ربما اقتصرت ناحية ببعضها دون البعض. وربما اجتمعت الكافة في الناحية الواحدة.

الأول: دور النفوذ والتهيؤ.

والثاني: دور الاعتناق والانتشار.

والثالث: دور النضوج والتحكم.

والرابع: دور التقهقر والتدهور.

أما دور النفوذ - فهو في القرن الأول الهجري - الذي طبق فيه النفوذ الإسلامي جميع العالم، خصوصًا قارتي آسيا وإفريقيا، وما من قُطر أو مصر في هاتين القارتين إلا وقد تأثر بالنفوذ الإسلامي منذ ذلك القرن الأول الهجري، ومن بين ذلك جميع الأقطار والبلدان العامرة حينذاك بغرب إفريقيا. وهذا الدور يهيئ الناس للدور الثاني.

أما الدور الثاني الذي هو الاعتناق والانتشار؛ ففيه ينتشر الإسلام انتشارًا بطيئًا في بعض الجهات على أيدي التجار المتجولين أو على أيدي الدعاة المجهولين أو ينتشر انتشارًا هائلاً على أيدي الغزاة المجاهدين والملوك الفاتحين.

أما الدور الثالث الذي هو النضوج؛ فمن حيث يتبلور الإسلام في أذهانهم ويمتزج الإيمان بدمائهم، حتى يصيروا ينظرون بعين الإسلام ويتكلمون بلسان الإسلام ويحكمون بشريعة الإسلام.

أما الدور الرابع فذلك حين يعتريهم الضعف والذبول والتدهور والخمول؛ إما بموت قائدهم أو ملكهم أو أميرهم أو إمامهم، ووقوع التنازع والتناحر بينهم، فتذهب ريحهم وتضعف قوتهم، فَتُسَام دولتهم بالخسف وكرامتهم بالبخس.

وكان الناس في غرب إفريقيا عمومًا على ثلاثة أقسام:

الأول: المسلمون الذين آمنوا بالله وأخلصوا له دينهم، وصدقوا ما عاهدوه عليه.

والثاني: الكافرون الذين لم يهتدوا إلى الإسلام ولم يرتضوا بالكفر بديلاً آخر.

والثالث: المنافقون الذين يترددون بين هؤلاء وهؤلاء يُظْهرون الإسلام بلسانهم، ويضمرون الكفر في قلوبهم، ويشاركون المسلمين في شعائر دينهم. وإذا جاءت أعياد الكفر اندفعوا معهم وشاركوهم فيها أيضًا.

وكانت كفة الإسلام ترجح دائمًا على كفة الكفر؛ حيث كان عدد المسلمين يزداد ولا ينتقص، ويدخل الوثنيون في دين الله وحدانًا وزَرَافات[١].

إذ قد تعود الوثنيون أن يستشيروا كاهنهم لمعرفة ما يصلح من الأديان لكل مولود لهم جديد، فكثيرًا ما يتنبأ الكهنة بصلاحية الإسلام لكثير من الأطفال فيعمل الآباء بما يشير لهم الكهنة، فيرسلون الأولاد إلى الأئمة والعلماء ليعرّفوهم على التعاليم الإسلامية من الصغر.

وكثيرًا ما يكون بعض الملوك والأغنياء عقماء. فيتوسلون ببعض العلماء إلى ربهم ليرزقوا ولدًا يرث ملكهم، أو يكونون ممن لا يعيش له أولاد فيشير العلماء بأن يخلو السبيل لما يولد لهم للإسلام وأن يسموه محمدًا فيعملون بإشارة العلماء فيرزقون ولدًا يبعثونه على أثر انفطامه من الرضاعة إلى الشيخ أو الإمام ليربيه تربية إسلامية صحيحة.

هكذا الحال إلى أن وطئت أقدام التبشير المسيحي أراضي هذه البلاد، فتغير مجرى التاريخ فصارت الصليبية ثالثة الأثافي[٢] للكفر والنفاق.

---

(١) زَرَافات: جماعات. (م).

(٢) الأثافي: جمع أُثْفِية، وهي الحجر، وثالثة الأثافي تعني أن الإسلام رُمِيَ بالكفر أولاً. ثم النفاق ثانيًا. وكانت الصليبية ثالثة الشرور التي رُمِيَ بها الإسلام. (م).

وكما أخذت الطريق على أبناء الوثنيين لتردَّهم من الإسلام إلى النصرانية، وقفت للمسلمين بمرصاد التطبيب والتعليم والتوظيف. فنصرت كثيرًا من أبناء المسلمين، بل من أبناء الأئمة والعلماء، الذين دخلوا مدارس التبشير للتعليم ومستشفياته للتعالج.

فالعلم والعلاج والعمل عسير على كل من احتفظ بعقيدته وعمل بشريعته، إلا من رضي بالمسيح ربًّا، وبالصليب خلاصًا، وبالإنجيل دليلاً وكتابًا.

وفي الدواوين الحكومية والشركات التجارية لا يوظفون من يتسمى باسم الإسلام والعربية، مثل محمد وعبد الله. وإن توظف فلا يترقى في وظيفته إلا ما جاء من ذلك على سبيل ذر الرماد في العيون أو تكميم أفواه الصائحين.

أنفقت الصليبية كل إمكانياتها للقضاء على الثقافة الإسلامية ولغتها في كل مكان، فصارت المعاهد التي تدرس العربية والإسلام محرومة من الاعتراف والاعتبار، حتى تموت حتف أنوفها. وصار المتخرجون منها يعيشون على هامش الحياة، ويعدون في سقط المتاع(١) حتى يكرهوها بأنفسهم ويبغضوها إلى أبنائهم.

أصناف من نشروا الإسلام في غرب إفريقيا

يمكن حصر الذين نشروا الإسلام في غرب إفريقيا في ثلاثة أصناف:

---

(١) سَقْط المتاع: أشياء حقيرةٌ لا خير فيها. (م).

الأول: هم الغزاة الفاتحون، الذين أقاموا دولة الإسلام في مختلف ربوع إفريقيا.

الثاني: هم التجار المتجولون الذين ينقلون البضائع والسلع التجارية من مكان إلى مكان.

الثالث: هم الدعاة الصوفيون الذين جمعوا بين نشر الإسلام ونشر محاسن الصوفية وطرقها.

أما الغزاة الفاتحون فهم الذين عملوا على نشر الإسلام أولاً في غرب إفريقيا ووطدوا السبل ومهدوا الطرق بفتوحاتهم، وأقاموا دولاً إسلامية بعد نجاحهم، وهم من أيام عقبة بن نافع الصحابي، ومن ولي على إفريقيا من بعده حتى الأدارسة والمرابطين والموحدين والحفصيين والملاويين والوناغرة والسنغاليين والفلانيين والبرناويين.

أولئك الذين مهدوا السبل للدعاة المجهولين، الذين كانوا يتطوعون للدعوة في أماكنهم، ويتوزعون لها في أقاصيهم وأدانيهم، لا تبعثهم حكومة، ولا تشرف عليهم إدارة، ولا تنظمهم قيادة، بل هم مبعثرون في تلك البقاع، يستعملون مختلف الوسائل الممكنة لنجاح دعوتهم.

أما التجار المتجولون فقد علمت أن القوافل التي وصلت بين شمال إفريقيا وغربها، منذ تاريخ متوغل في القدم، كانوا من الفينيقيين والقرطاجنيين

والرومان والعرب، وصح أن العرب في صدر الإسلام كانوا ينقلون بضائع الأسلحة كالسيوف والرماح والملابس الصوفية والحريرية من شمال إفريقيا إلى غربها، ويتوزعون لبيعها في غانة ومالي وتكرور وسنغي وكاشنة وكانو وبرنو، ثم يعودون من هذه البلاد بريش النعام والعاج والعبيد.

وكانوا بطبيعة الحال يسافرون جماعات وزرافات لتبادل هذه السلع وتلك البضائع، مزودين بالأسلحة التي تحميهم من المعتدين. وإذا حلُّوا ببلد أقاموا في حي لهم مستقل عن الحي الأصلي الوثني، وكوَّنوا لأنفسهم جالية إسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلد، وتحيي بها شعائر الإسلام كعادتهم في بلادهم. يتوضؤون ويقيمون الصلاة جماعات.

وإذا جاء شهر رمضان أحيوا لياليه بالاجتماعات للتراويح، وتلاوة القرآن ومجالس الوعظ والذكر.

وإذا أفطروا أو تسحروا تزاحموا جميعًا على طعام الإفطار والسحور في وقت واحد بصورة جذابة وكيفية مغرية.

وإذا حلّ فيهم عيد الفطر احتفلوا به وخرجوا لصلاته في المصلى، يظهرون في ذهابهم وإيابهم مزايا الإسلام ومحاسنه.

وإذا أدركهم عيد النحر عظّموا ضحاياهم وقدموها قربانًا لله، ثم فرقوا لحومها بين فقرائهم وتزاوروا فيما بينهم.

كل هذا وذاك مما يؤثر على عقول الصغار من غير المسلمين، ويلفت أنظار الكبار ممن شرح الله صدورهم للإسلام، فيدخلون مع المسلمين في دين الله. ويعد من قبيل ذلك تسامح المسلمين المقيمين مع غيرهم، في التعامل معهم بالخلق الحسن، والتودد إليهم بالقول اللين، وتأليف قلوبهم بالهدايا والهبات، ومداواة مرضاهم وإغاثة ملهوفيهم حتى يفضلوا دين الله على دين آبائهم فيدخلون فيه.

أما الدعاة الصوفيون فهم العبّاد والنسّاك المعروفون بلزوم الأذكار والأوراد، والإعراض عن زهرات الدنيا وزخارفها، والزهد في ملذاتها وشهواتها. لهؤلاء الصوفيين جهود ملموسة في نشر الإسلام ونفوذ محسوسة في إقامة الدول والممالك الإسلامية.

ولم تقم دولة المرابطين إلا بفضل النزعة الصوفية.

لو لم يكن التصوف رياضة روحية تمرن النفوس على إنكار الذات والفناء في الله والسمع والطاعة للقائد الروحي، ولو لم يكن شيخ الطريقة مسموع القول، متبوع الحال.

ولو لم يكن المريدون منظَّمين ومستعدين لتلقي الأوامر وتنفيذها على الفور، ولو لم يكن شيء من ذلك كله، لما استطاع عبد الله بن ياسين أن يؤسس دولة المرابطين!

ولما اقتدر «أسكيا محمد» على إقامة دولة سنغاي، والسير بها في موكب الإسلام!

ولما تسنى للشيخ عثمان بن فودي أن يجدد قوة الإسلام في نيجيريا!

ولما ساغ للمهدي محمد بن عبد الله أن يتغلب على الجيش الإنكليزي الذي يقوده «غردون» في السودان العربي!

ولما نجح الحاج عمر الفوتي في مقاومة الاستعمار الفرنسي نحو ربع قرن في فوتا!

ولما تمكن السنوسيون من مقاومة الاستعمار الفرنسي والإيطالي في ليبيا؟!

وأهم الطرق الصوفية التي لعبت دورًا هامًّا في غرب إفريقيا ثلاث وهي: القادرية والتجانية والسنوسية.

ولقد كانت الطريقة عند الصوفيين رابطة روحية، تتخذ التعبُّد والتنسُّك وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم بالرياضة التي تسمو بها النفس إلى

درجة الاتصال الروحي بالملأ الأعلى، فيصير كل ما عدا الله باطلاً حقيرًا في أعينهم. وفي ذلك تحقيق لمعنى: «لا إله إلا الله» عندهم.

وإن كانت الصوفية قد خرجت اليوم عن مقصدها الأول، وتسربت إليها البدع والأفكار الأجنبية، فلقد أدت خدمتها الجليلة للدعوة الإسلامية، خصوصًا في غرب إفريقيا، حتى لم يبق مجال لنكران فضلها في نشر الإسلام!

الطريقة القادرية

الطريقة القادرية رابطة روحية أسَّسها الشيخ عبد القادر (٤٧٠- ٥٦١هـ) ومركزها الأصلي في بغداد، ولكنها منتشرة في مختلف البقاع بالعالم.

وأول من نشرها بالمغرب العربي هو الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، الذي اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني على جبل عرفة، عام حجه، وخلع عليه الخلعة الصوفية، ولما رجع إلى المغرب نشر بها العلم والطريقة إلى أن توفي ٥٩٤هـ.

وأول من نشرها في بلاد السودان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ثم سيدي أحمد البكاء الكنتي بالقرن الخامس عشر الميلادي. ثم الشيخ محمد فاضل بن مامين وابنه ماء العينين والشيخ سعد أبيه. ثم انتشرت القادرية على يد الشيخ المختار الكنتي (١٧٨٠- ١٧٩٩م).

ثم الشيخ عثمان بن فودي الفلاني، وله في الطريقة القادرية أشعار ومؤلفات منها: «السلاسل الذهبية»، و«السلاسل القادرية»، و«تبشير الأمة الأحمدية بفضائل الطريقة القادرية»، ولابنه السلطان محمد بللو كتاب: «مفتاح السداد»، وكان جميع مشايخ ابن فودي وإخوانه وتلاميذه منتسبين للقادرية. وشاع أن السلطان محمد بللو بن عثمان انتقل من القادرية إلى التجانية، على يد الحاج عمر الفوتي، ولكن أصحاب السلطان قد فندوا[1] ذلك الخبر.

وللوزير غطاط بن يم في ذلك كتاب سماه: «المواهب الربانية في تحقيق الطريقة القادرية»، ولابنه الوزير عبد القادر أيضًا فيه كتاب آخر، وكتاب «تسديد الخواطر» للشيخ ابن سليمان.

واشتدت عناية أهل كنو بإحياء آثار القادرية من مطلع القرن الماضي؛ وأول من نشرها هناك «مالم كبر» الذي أخذ عن أحمد البكاء الكنتي، ثم الشيخ يحيى الصرصوري الطرابلسي، ثم الشيخ محمد المحمود المغربي، ثم الشيخ سعد الغدامسي البليلي الفندكي، وهو أول من بنى الزاوية القادرية في كنو، ثم الشيخ أبو بكر الفندكي الكنوي، ثم الشيخ أدم العطار نمعجي الفلكي، ثم صديقنا الشيخ محمد ناصر الكبري، الذي انتهت إليه الرئاسة القادرية اليوم في ديار نيجيريا.

---

(١) فَنَّدوا: خَطَّئُوا بالحجة والدليل (م).

الطريقة التجانية

نشأت هذه الرابطة الروحية في الجزائر على يد الشيخ أحمد التجاني ١٧٣٧- ١٨١٥م. وأعظم من نشر هذه الرابطة في غرب أفريقيا هو الحاج عمر الفوتي الذي ولد ١٧٩٨م. وأخذ الطريقة من الشيخ علي حرازم، صاحب «جواهر المعاني» والتلميذ الأكبر للشيخ أحمد التجاني.

وهو أول من نشر هذه الطريقة في بلاد السنغال، ولما اتصل بالسلطان محمد بللو بن عثمان في سوكوتو، وساعده على نشر هذه الطريقة حتى أشيعت الأنباء بانتساب محمد بللو إلى التجانية.

عاد عمر الفوتي إلى بلاده وقد تأثر بأعمال السلطان بللو وأبيه عثمان بن فودي. فقام هو في بلاد فوتا بالجهاد المماثل، وقاوم فرنسا مقاومة شديدة.

ثم اشتهر من مشايخ التجانية – حماه الله – في مدينة أنيور ١٩٠٠م. ولقد قام بينه وبين التنواجيين القادريين حوادث أليمة ١٩٢٩. مما حمل فرنسا على نفيه إلى ساحل العاج مدة، ثم أُطلق سراحه فعاد إلى نيور، فانتهز فرصة هزيمة فرنسا أمام جيش هتلر فاستعد لتحرير البلاد من نير الاستعمار ولكنه لم يكتب له النجاح فمات ١٩٤١.

هذا وقد زار نيجيريا ١٩٤٨ الحفيد الرابع للشيخ أحمد التجاني السيد أبنعمر ولقي الحفاوة البالغة لدى المسلمين عمومًا والتجانيين خصوصًا.

ومن جلة المشايخ التجانيين الذين نشروا هذه الطريقة في غرب أفريقيا السيد أحمد سكيرج صاحب «كشف الحجاب عمن تلقى مع التجاني في الأصحاب». وللتجانيين عمومًا في هذا العهد قطب كبير هو الشيخ إبراهيم بن عبد الله أنياس. وهو أكثر المشايخ أتباعًا في غرب أفريقيا، يزورونه كل عام ويحجون معه في موكب واحد ويستقدمونه لبلادهم في مختلف المناسبات، يتبركون به وأكثرهم في نيجيريا نفوذًا هو صديقنا الشيخ أحمد التجاني بن عثمان البربري في مدينة كنو، والشيخ أبو بكر عتيق، والشيخ مالم ثاني كافنغا.

الطريقة السنوسية

مؤسسها سيدي محمد بن علي السنوسي، المولود ١٧٨٧ المتوفى ١٥٨٩، أنشأ زوايا وأربطة حول برقة وفزان وشاد وكانم وبرنو، وعمل على نشر العلم والإسلام في تلك الربوع.

وقد ضرب أتباعه أمثلة رائعة للناس في مواقفهم الحاسمة مع فرنسا وإيطاليا وقد استولوا على مدائن أكدز وزندر ودامت بأيديهم مدة حتى استردتها منهم فرنسا ١٩٤٠.

واستطاعوا أن يصمدوا أمام القوات الإيطالية ردحًا من الزمن حتى سقطت مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

واستطاعوا أن يقيموا دولتهم السنوسية وعلى رأسها الملك إدريس الأول، الذي نودي به ملكًا على ليبيا ١٩٤٧ وقاد بلاده إلى التحرير التام عام ١٩٥١.

وأحيا الزوايا السنوسية وجمعها في إدارة خاصة كما طور معاهدها، حتى صارت جامعة إسلامية على طراز الجامعات الحديثة.

وقد تقدم الملك إدريس في العمر، وتحكمت في دولته بطانة خبيثة تعاونت مع الاستعمار على حين غفلة منه، فوضعت نقاطًا سوداء في صحيفة ليبيا البيضاء عند اعتداء إسرائيل على القدس الشريف، ولذلك قامت ثورة عسكرية أطاحت بالحكم الملكي وأعلنت الحكم الجمهوري عام ١٩٦٩.

صلة نيجيريا بالعالم الإسلامي

إن أواصر الرباط بين البلاد والقبائل كثيرة ومتعددة. أولها آصرة القرابة والجوار، وهي طبيعة لازمة لكل بلد وكل قبيلة نظرًا لما يتاخمها من الحدود في جهاتها الأربع.

غير أن موقع نيجيريا في القارة الإفريقية لم يمكنها من مجاورة البلاد إلا في ثلاث جهات: جنوب القارة وشرقها وشمالها فحسب.

أما صلتها بالجنوب، وهي الجهات الموازية لبلاد بانتو، فهي مجهولة غير معروفة في الأساطير والتواريخ.

أما صلتها بالشرق والشمال داخل القارة وخارجها فمسموعة من الأفواه، ومسجلة في التواريخ، وهو على أربع أواصر.

أولاها: آصرة التجارة

وهي التي فتحها الفنيقيون والقرطاجنيون والروم بنحو ألف سنة قبل الإسلام. وقد تحقق أن هؤلاء التجار في الدنيا القديمة كانوا رسل الحضارة

الإنسانية أينما حلوا وارتحلوا في الأقطار والبلدان، وكانوا يحملون من بلد إلى بلد ما يزيد على حاجات أهلها من الأثاث والملابس والأدوات. من ذلك ما يقال إن الفنيقيين والقرطاجنيين هم الذين حملوا صناعة الزجاج الملون والحديد والنحاس والأواني الفخارية وزراعة القطن والنسيج والحياكة إلى غرب أفريقيا.

وإليهم يرجع آثار ما اكتشف أخيرًا في مدينتي أليفي وبنين من صناعات الفن التصويري التي ورثها منهم البرابرة الأولون.

أولئك الذين مهدوا الطريق للفتح الإسلامي منذ القرن الأول الهجري، حتى تمكن العرب والبربر وسائر الملثمين من ربط غرب أفريقيا بشمالها، وتمكنوا من تأسيس جالياتهم في عواصم «غانة ومالي وتمبكتو وأكدز وكانو وبرنو وكانم» وهي البلاد التي بها جاليات عربية تقيم أسواقًا شبه دولية تحضرها القوافل بمختلف أنواع السلع الرائجة في تلك القرون السالفة من أنواع الملابس والأواني والأدوات والأسلحة. ومن آثار ذلك استحضار إدريس ألوما صاحب برنو الأسلحة النارية من البلاد التركية.

وآخر ما يعرف من هذا النوع هو صلة السوريين واللبنانيين التي بدأت منذ ١٨٩٠، حتى كونت جالية معتبرة في كثير من أقطار غرب أفريقيا. ولهذه الجاليات المذكورة آثار طيبة في دفع عجلة البلاد إلى الأمام والتقدم. ولقد ساهمت الجالية السورية في تحقيق عدة مشاريع إسلامية في نيجيريا. وكان لشركة الدبس

وإخوانه أثر ملموس في إنشاء مركز التعليم العربي في أغيغي، وذلك بعناية الأخ المجاهد عدنان مصطفى الدبس وإخوانه في لاغوس وكانو، كما كان لهم آثار في تعمير الكليات الإسلامية في لاغوس قبل استقلال نيجيريا.

ثانيتها: آصرة الديانة

وترتبط بزيارة مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، أو زيارة المدينة المنورة للصلاة في روضة الجنة في هذا المسجد النبوي الشريف، ثم السلام على هذا النبي الكريم وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما.

والحج أحد أركان الإسلام الخمس يأمل كل مسلم أن يكمل به دينه، بل يشتاق إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة الطاهرة، مهبط الوحي والتنزيل حيث ولد النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ، وتقلبوا على أرضها، وعاشوا بها حتى ماتوا ودفنوا فيها، وتشرفت هذه الأماكن بفضل وجودهم فيها.

تلك أمنية كل مسلم في كل قُطر، وفي كل مصر، بل وهي فريضة يتحين فرصة القيام لأدائها، ويدخر لها الأموال والأعراض، ليستطيع بها إلى ذلك سبيلاً.

وإذ لا بد له أن يجتاز الأقطار الإسلامية وعواصمها في طريق ذهابه وإيابه، صار من الضروري أن يلتقي بثقافات أدبية، وتقاليد دينية يستفيدها من تلك الأقطار فيعود بها إلى وطنه.

لقد فتح الحج طريق الاتصال بين غرب إفريقيا وبين الجزء الأكبر من العالم الإسلامي. كما هيأ أسباب لقاء عدد من المسلمين الحجاج الذين وفدوا من مختلف أنحاء العالم إلى مكة المكرمة، وهيأ أسباب الاستفادة منهم علميًّا وأدبيًّا وثقافيًّا.

وهذا منسا موسى الذي أحضر أبا إسحاق من حجه لعمارة قصره ومساجد بلاده على الفن العربي الجميل.

والمذهب المالكي إنما انتشر في المغرب بعد رجوع أسد بن الفرات من الحج، وبعد قراءته الموطأ على ابن القاسم تلميذ مالك بمصر.

والطريقة القادرية البغدادية إنما دخلت إلى شمال إفريقيا وغربها بعد رجوع الشيخ أبي مدين الأندلسي المغربي من الحج. ومحمد بن تومرت هو الذي أدخل كتب الغزالي إلى المغرب. وبالجملة فإن أكثر الحجاج كانوا يعودون إلى بلادهم بما يستفيدونه في حجهم من ثقافات وحضارات حتى توهم بعض المؤرخين الإفرنج أن لكل حركة إصلاحية في غرب إفريقيا صلة وثيقة بسفر الحج وذلك حكم استقرائي لا يجوز القطع بإطلاقه على العموم. إذ قد وجدت حركات إصلاحية كثيرة قامت من صميم المغرب، ولا صلة لها بالمشرق «ولا يجوز القطع بدليل قياس الاستقراء والتمثيل».

ثالثتها: آصرة الثقافة

وهي تابعة لآصرة الدين، الآنفة الذكر، وتعتمد على طلب العلم المفروض على كل مسلم. وكان اتصال مسلمي نيجيريا بمصر وشمال إفريقيا والحجاز من أجل التعلم اتصالاً قويًّا، حتى صارت هذه البلاد تضاهي تلك البلاد في العقيدة والمذهب ومنهج الحياة والتعليم، إذ كان طلاب العلم يرتحلون لطلبه إلى القيروان وفاس وطرابلس وتونس، كما يتدفقون إلى الأزهر الشريف بكثرة، حتى أدى إلى تخصيص رواق لهم فيه يعرف «بالرواق البرنوي». ويتلقون من فحول الأدب وأعلام الإسلام الذين سعدوا بلقائهم في الحج، كما يأخذون من الرحالين الذين يمرون ببلادهم لقصد الحج أو للسياحات.

رابعتها: آصرة السياسة

وهذه أضعف تلك الصلات كلها وأوهنها، إذ لم يكن لأي ملك عربي أو مسلم من الخارج سيطرة أو نفوذ على هذه البلاد. وكل ما كان من النفوذ والسيطرة إنما هو محدود بين السودانيين أنفسهم فقط. وقد حاول مؤخرًا مولى زبير باشا حاكم بحر غزال من قبل مصر، حاول أن يستولي على برنو سنة ١٩٠٠م ولكنه فشل باصطدامه مع القوات الفرنسية.

أما صلة الصداقة بين الدول والملوك، فقد سجل التاريخ من ذلك رسائل توضح مقدار ما عثر عليه حتى الآن. ولم يزل الباحثون يوالون جهودهم في

التنقيب، من ذلك ما كان بين سلاطين برنو وملوك تونس الحفصيين، أو ما ذكره السلطان بللو من رسالة سلطان المغارب إلى الشيخ عثمان بن فودي – وسيأتي نصها في محلها، أو ما كان قبيل سقوط الدولة العثمانية التركية من إنعام درجة البكوية على السيد محمد شتا، أحد أعيان مسلمي لاغوس ١٨٩٣م، وذلك بمناسبة افتتاح مسجده الجميل الذي بناه من جيبه الخاص، وأحضر لبنائه مهندسًا تركيًّا ليكون البناء على الشكل الإسلامي التركي.

وآخر ما حدث من ذلك بعد الاستقلال، هو فتح السفارات العربية وقنصلياتها في نيجيريا، وأولها القنصلية اللبنانية التي فتحت منذ ١٩٤٨م لمساعدة الجالية اللبنانية والسورية.

وأول السفارات العربية في نيجيريا هي سفارة الجمهورية العربية المتحدة، إذ فتحت على إثر استقلال نيجيريا، ثم سائر الدول العربية الباقية.

ولقد عملت هذه السفارات على حض حكوماتها لمساندة نيجيريا أيام محنتها وحروبها الأهلية مع «بيافرا» حتى النصر. كما أن لهذه السفارات مساعٍ خيرية كثيرة في توصية حكوماتها بمساعدة الهيئات الإسلامية، وبتوزيع المنح الدراسية على عدد ممن يرغبون في تعلم اللغة العربية، بالمعاهد العالية والجامعات الكبرى في البلاد العربية.

الثقافة العربية في غرب إفريقيا

لا تكاد قدم الإسلام تثبت في بلد من البلاد حتى تتأثل[1] ثقافته في أرضها، ولا تلبث حتى تظهر فيها مدرستان عربيتان، أولاهما: المدرسة القرآنية للصغار، وثانيتهما: مدرسة العلوم للكبار (المعاهد).

تُفْتَح المدرسة القرآنية (الكُتّاب) لأطفال المسلمين، لكي يرتادوها صباح مساء في بيوت العلماء أو الأئمة الذين يعكفون على تلك المدارس، ويلازمون أولئك التلاميذ حتى يكملوا قراءة القرآن سردًا من المصحف أو حفظًا عن ظهر الغيب. وإذا ختموا القرآن أقاموا للختم وليمة فاخرة في المدرسة يحضرها زملاؤه التلاميذ ليشاركوه الفرح بهذه البراعة وليرغبوا الآخرين في الجد والاجتهاد حتى الختم. ثم يختار التلميذ ما يروقه من مسالك الحياة، أو يعود إلى مسلك والده، تاجرًا، أو زارعًا، أو صانعًا، أو عالمًا.

وكان أبناء غير العلماء يكتفون غالبًا بالقرآن فقط في هذه المدرسة. أما أبناء العلماء فإنهم يضيفون إلى القرآن تعلم الكتابة ومبادئ التوحيد والفقه،

(١) تتأثل: تتأصّل. (م).

ليكونوا من الصغر على بصيرة من أمور دينهم الضرورية، وليفهموا ما يقولون في صلواتهم اليومية من أذان وإقامة وتهليل وتكبير وتشهد وتسبيح وقنوت. وقليل من أبناء غير العلماء من يجمع بين ذلك وبين قراءته القرآن. وقليل من لم يدخل مدرسة القرآن من أبناء المسلمين وإن لم يختموه.

أما أبناء العلماء والمتعبدين فلا يكتفون بختم القرآن وبعض مبادئ الدين، بل يستمرون في طلب العلم حتى يكونوا على قسط منه وفير، أو حتى يكونوا علماء ماهرين. على أن التزام الإسلام للعربية في تأدية الصلاة وفي التعبد بتلاوة القرآن خارج الصلاة، جعل لها قدسية كبرى في نفوس المسلمين، وجعلهم يعتبرون تعلمها ومعرفتها فضلاً وشرفًا وسعادة ودرجة، أو دينًا وعبادة.

منهج التعليم في مدارس القرآن

المنهج المتبع في مدارس القرآن قريب من منهج أهل المغرب العربي الذي ذكره ابن خلدون في المقدمة بقوله: «أما أهل المغرب فمذهبهم الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث وفقه وشعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يجاوزوا البلوغ إلى الشبيبة»، وهي طريقة قريبة إلى طريقة غرب إفريقيا بتغير يسير.

وذلك أنهم لا يخلطون القرآن بشيء من العلوم، بل يقدمون على استظهاره حفظًا، أو استطراده سردًا والاكتفاء بحفظ بعض السور القصار لتأدية الصلاة المفروضة، وربما يوجد في القليل من يضيف إلى القرآن دروسًا في التوحيد والصلاة، خصوصًا لبيوت العلماء المشهورين.

مدرسة العلم للكبار

أما مدرسة العلم للكبار فإنها توجد في المدن الإسلامية الهامة، ويتصدى للتدريس فيها من تفوقوا في قواعد اللغة العربية وفي أصول الشريعة الإسلامية، من الذين تخرجوا فيها من مدارس فاس وطرابلس وتمبكتو وجني ومصر وغيرها من المعاهد والمراكز. على أن وحدة الدين والدولة بوّآ العلماء مكانًا مرموقًا بين الأمة، وفرض على الحكومة أن تضع العلماء في المناصب الرسمية كالوزارة والقضاء. كما أن قيام بعض العلماء بالجهاد الإسلامي جعلهم قواد الحرب وبناة الدول والحكومات، كما وقع في غانة ومالي وسنغي وبرنو وهوسا.

وذلك مما دفع الناس إلى ارتياد دور العلوم حتى نبغ منهم عدد لا يستهان به من الأدباء والفقهاء، خلّفوا لنا آثارهم العلمية تنطق ببراعتهم، وتترجم عن نبوغهم. فظهرت بفضلهم جامعات إسلامية في غانة القديمة ومالي وتمبكتو وجني، بلغت أوج رقيها في القرن الثامن الهجري، ولم تتقوّض ولم تتدهور إلا بقيام الثقافة الإفرنجية الحديثة.

منهج مدارس العلم

يخصص الشيخ في بيته مكانًا واسعًا يلتقي فيه مع تلاميذه كل يوم بالدوريات التي لا تقل مدتها عن نصف ساعة لكل تلميذ.

يجلس الشيخ على منبر مرتفع قدر شبر فيدخل كل تلميذ مع كتبه ليقرأ منها والشيخ يفسر له كل كلمة وهو يستمع ويعي، فإذا سبقه شريك له انتظر دوره واستمع إلى درس زميله والتقط من دروسه فوائد يضيفها إلى دروسه الخاصة. ومن الشيوخ من يجلس للدرس من الصباح إلى الظهر ثم ينصرف إلى عمل آخر يكسب منه معيشته كالزراعة أو الحياكة أو الخياطة أو الكتابة (الوراقة). ومنهم من يستمر في التدريس حتى الغروب ولا يقوم إلا للصلاة والغذاء والضروريات الأخرى.

وكتاب «تعليم المتعلم» الذي وضعه برهان الدين الزرنوجي من علماء القرن الخامس الهجري، هو الأسلوب والمنهج المتبع في تلك المعاهد والمدارس.

والكتاب نفسه مقرر على التلاميذ يدرسونه في السنوات الأولى للتعليم، ليجعلوه قانونًا ودستورًا يعملون بإرشاداته وتوجيهاته.

وأهم المواد المقررة من العلوم والفنون هي: التوحيد الأشعري، والفقه المالكي، والقصائد الوعظية، ومتون اللغة، كمقامات الحريري، ومختار الشعر

الجاهلي، وقواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية والتجويد والقرآن والتفسير والحديث والأصول والمنطق والفلك.

أما الكتب المقررة فهي الكتب المشهورة قديمًا في بلاد العرب، وربما أضافوا إليها بعض كتب أخرى من مؤلفات علمائهم.

وكانوا يقتصرون على المتون دون الشروح، ولا يأخذون منها إلا الشواهد فقط، وكانت العادة أن يدرس التلميذ في المادة الواحدة أهم الكتب المشهورة فيها، وإذا استوعب الكتب المشهورة في أكثر الفنون اللازمة، مثل النحو والصرف والفقه والتفسير، استأذن الشيخ أن يستقل ويدرس، وربما بعثه الشيخ نفسه إلى جهة معينة وأجازه التدريس فيما علم، على أن يراجعه فيما لا يعلم وأن يستوضحه ما أشكل.

أعلام الثقافة العربية في وادي النيجر

لقد أخذت وادي النيجر (غرب إفريقيا) من العلوم الإسلامية ومن الثقافة العربية قسطًا لا يستهان به، وظهر من نبغ من أبنائها كأبناء العرب، وألَّفوا وشرحوا ونظموا ونثروا. وكانت كتبهم تضاهي أو تفوق أحيانًا مؤلفات بعض العرب في انسجام الأساليب، أو انسياق التراكيب.

ولقد فات كثير منهم من سجل التاريخ، كما ضاع أكثر مؤلفاتهم تحت أنقاض الأطلال، أو نُسِبَت مؤلفاتهم إلى غيرهم جهلاً أو انتحالاً.

ولقد ذكر السعدي في «تاريخ السودان» من كثرة العلماء عددًا ما قد يخيل إلى الإنسان أنه مبالغة؛ حيث ذكر أن ملك مدينة جني المسمى «كَنْبَر» جمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومائتين من العلماء ليعلن إسلامه بمشهدهم في منتصف القرن السادس الهجري. ومهما يكن في العدد من مبالغة فإنما يدل على وجود أهل العلم والعلماء بكثرة في هذه البلاد، ويدل على أننا لم ندرك من آثارهم إلا قليلاً، ولم نعرف منهم إلا ما ذكره الشيخ أحمد بابا في «تطوير الديباج»، أو ما ذكره السلطان محمد بللو في «إنفاق الميسور». ولقد سمعت بكتاب: «ترقيق

ماقسا» في ذكر علماء بلاد هوسا» لأستاذي المرحوم آدم نمعج، ولكنني لم أسعد حتى الآن بالعثور عليه. وإليكم ما تيسر من أسماء بعض العلماء إذ: ما لا يدرك كله فلا يترك جُلُّه.

علماء بلاد ونغار وتكرور

منهم الشيخ عبد العزيز التكروري الأول، الذي ذكره السيوطي في معجمه.

والشيخ عبد العزيز التكروري الثاني الذي ذكره أحمد بابا في تطريزه.

ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن زيتي الونكري، أول من نشر العلم في مدينة كنو.

ومنهم الشيخ الفقيه العابد محمد سافو الونكري، ذكره السعدي في تاريخه.

ومنهم الشيخ محمد بن محمود الونكري.

ومنهم الشيخ محمد بن أبي بكر الونكري، المعروف ببغيغ، ولد ٩٣٠هـ وتوفي ١٠٠٣هـ ومن مشايخ أحمد بابا التمبكتي.

وهناك عدد من العلماء الوناكرة لم نسعد بمعرفة أسمائهم لطول العهد، وعدم اعتناء السابقين بتاريخهم، أو بضياع آثارهم العلمية.

علماء تمبكتو وجني

الشيخ أحمد بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى الصنهاجي، جد أحمد بابا التمبكتي، حج ولقي السيوطي وخالد الأزهري، ولما رجع مكث مدة في مدينة كنو للتدريس فيها، وتوفي سنة ٩٤٣هـ عن ثمانين من عمره، وله مؤلفات.

والشيخ محمد أقيت بن عمر بن محمد قاضي قضاة تمبكتو توفي ٩٧٣ هـ.

الشيخ عبد الله بن عمر بن محمد أقيت ولد ٨٦٦ هـ، ودرس في مدينة «ولاتن» ومكث بها حتى مات ٩٣٩هـ، وله مؤلفات.

الشيخ محمود بن عمر بن محمد بن أقيت ولد ٨٦٨ هـ وتولى القضاء بتمبكتو، وحج عام ٩١٥ هـ، ولقي المقدسي والأنصاري والقلقشندي توفي ٩٥٥ هـ، وخلف ثلاثة أولاد: محمد وعاقب وعمر نبغوا كلهم في العلوم واشتهروا.

الشيخ «مورمغ كنكن» عابد، تقي، ورِع، دخل مدينة جني في أواسط القرن التاسع الهجري، وأسرع إليه طلبة العلم حتى ضاق البلد بعلمائه ودعوا الله أن يخرجه منه، فسمع الدعاء بنفسه فخرج، ذكره السعدي في تاريخه.

الشيخ أحمد السحولية، وهو من أكابر علماء جني، ومن أئمة الصوفية. يقول أحمد بابا أنه لم يقف على وفاته.

ومنهم الفقيهة أم هانئ بنت محمد العبدوسي، ذكرها أحمد بابا في تطريزه، ومحمد بللو في إنفاقه، وقال إنها ممن بشروا بظهور مجد الإسلام عثمان بن فودي.

الشيخ أحمد بن سعيد سبط محمود بن عمر، كان وحيد عصره في العلم والعمل توفي ٩٧٦هـ.

الشيخ العاقب بن محمود بن عمر ولد ٩١٣هـ. وتولى القضاء في تمبكتو، حج ولقي الناصر اللقاني والبكري وغيرهم وتوفي ٩٩١هـ.

الشيخ أحمد بابا التمبكتي ولد عام ٩٧٠هـ في تمبكتو وتربى على علمائها حتى تخرج، وامتحن مع جملة من العلماء عام ١٠٠٣هـ على يد محمود زرقوني قائد جيش السلطان أحمد مولاي، سلطان مراكش؛ أثناء هجومه على أسكيا إسحق، ملك سنغاي على مناجم الملح؛ فاتهم علماء جامعة سنكري على استنكارهم لفعله، وجمع العلماء وحبسهم ثم أرسلهم إلى مراكش فمات أكثرهم في الصحراء عطشًا، وأحرق بيوتهم فضاعت كتبهم ومؤلفاتهم.

ولما مات مولاي أحمد وتولى بعده مولاي زايدان، أطلق سراح أحمد بابا، وأفاد العالم الإسلامي بنتائج أفكاره، ومن مؤلفاته: «تطريز الديباج»، وتوفي ١٠٣٨هـ.

علماء أهير وأكدز وتكدة

منهم الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصماني المسوفي التكداوي، أخذ عن المغيلي وعن جلال الدين السيوطي في هذه البلاد، وله مؤلفات وتعاليق وفتاوى، وتوفي ٩٥٠هـ.

ومنهم الشيخ النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي، شيخ شيوخ زمانه، شرح المختصر بشرحين: أحدهما في أربعة أسفار، وثانيهما في سفرين، له تعليق على «تخميس العشرينيات» للفازازي، و«المعجزات الكبرى» للسيوطي أخذ عن أحمد سحولية وتوفي حوالي ١٠٠٦هـ.

ومنهم الشيخ الرباني والعالم الصمداني سيدي محمود البغدادي، ذو المناقب العديدة والكرامات الكثيرة وحيد عصره، قامع البدع والضلال، سلطان الطريقة وبرهان الشريعة. وكان أصحابه يجلونه كثيرًا حتى خلعوا عليه صفة المهدوية. فقام عليه علماء عصره وأنكروا عليه وأغروا به السلطان فجرى بينه وبين السلطان محاربة شديدة قتلوه فيها وفرّقوا جماعته.

ومنهم الشيخ الحافظ مخلوف البلبالي دخل مدينة كنو وكاشنة وأكدز، واستفاد منه أهلها. وكان بينه وبين العاقب الانصماني نزاع طويل في المسائل الفقهية.

علماء باغرم وبرنو

منهم العارف بالله أبو محمد عبد الله البرنوي، الذي تتلمذ له العارف بالله عبد العزيز الدباغ.

منهم أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الشاعر الأسود، الذي دخل على المنصور الموحدي فأنشده:

أَزالَ حِجَابَه عَنيِّ وعَيْني تَرَاهُ مِنَ المهَابَة في حِجَابِ
وقَرَّبَني تَفَضُّلُه ولَكِن بَعُدتَ مَهَابَةً عِنْد اقْتِرَابي

ومنهم الشيخ البكري، شيخ شيوخ زمانه، أخذ الفقه والعربية والبلاغة في بلاد برنو، ثم ارتحل إلى الشيخ النجيب التكداوي ولازمه واستفاد منه، ثم رجع إلى بلاده، وكان أول من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه البلاد، له «نظم السنوسية الكبرى» وغيره.

ومنهم الشيخ ولديد، وهو عالم رباني من الصالحين المُعْتَقَد فيهم، وُلِدَ في برنو حوالي ٩٣٩هـ، ورحل في طلب العلم إلى أكدز وتمبكتو ونبغ هناك، ثم رجع إلى باغرم واجتمع بالشيخ والي بن الجرمي التاركي، وجعلا يدعوان الناس إلى الإسلام الصحيح، وسعى بهما إلى سلطان مي عمر، سلطان برنو، وأحضرهما

وقتل الوالي بن الجرمي فجرى دمه على كلمة الشهادة، وأطلق سراح ولديد، فهرب إلى باغرم واستوطنها حتى توفي بها حوالي ١٠٠٢هـ.

ومنهم الشيخ سليمان الفلاني الذي استوطن باغرم لنشر العلم بها، أخذ عن الشيخ البكري وبرع في العلوم وأخذ عنه عدد كثير وتوفي ١٠٠٩هـ.

ومنهم الشيخ محمد الوالي بن سليمان أخذ أيضًا عن والده وعن البكري، ونبغ في العلوم. ومن مؤلفاته: «نظم النقاية للسيوطي»، ومن أشعاره المتداولة:

أُوصِيكُم يَا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ   عَلَيْكُم بِطَاعَةِ الدَّيَّانِ
وإِنَّما غَنِيمَةُ الإِنْسَان   شَبَابُهُ والخُسْرُ في التَّوَاني

وهي نحو أربعين بيتًا يحفظها الطالب في أول دخوله المدارس العلمية في نيجيريا.

ومنهم الشيخ الطاهر بن إبراهيم المشهور بقيرمه، أحد تلاميذ البكري ومن مؤلفاته: «الدرر اللوامع ومنار الجوامع»، وله «نظم السنوسية الكبرى» في ألف ونيف بيت. وتوفي ١١٦٠هـ. ومنهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن البرناوي، فقيه محدث، ومن مؤلفاته: منظومته «الأخضري في الفقه المالكي»، نظمها سنة ١١١٩، ولم نقف على وفاته.

ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر الباكوم المعروف بابن آجروم، أخذ عن البكري. ومن أواخر علماء برنو الشيخ عبد القادر القرقري، إمام جامع برنو، الذي ذكره له صاحب «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب» قصيدة مدح بها العارف بالله محمد حسن ظافر الطرابلسي المتوفى ١٢٦٣، منها:

بَلِّغ تحيَّة عَاشِق مُشْتَاق وَسَلام ذِي كَلَفٍ إلى السباق
شمْسُ الهدى بَدْر الدّجى مُرْوِي الصَّدى بَحْرُ النَّدى المدَني الإمام الرّاقي
أَحْيَيْتَ مِنْ سِرِّ الطّريقة مَا عَفَا وَنَشَرْتَه في سَائِر الآفَاق
ورَمَيْتَ عَنْ قَوْسِ الطّريقَة فارْتَقَى سِرُّ الحَقيقَة سَائِر الأَعْرَاق

علماء بلاد هوسا

منهم القاضي محمد بن أحمد التادختي من علماء كاشنة، لقي المغيلي وزكرياء الأنصاري وعبد الحق السنباطي واللقاني والقلقشندي والنويري، توفي ٩٣٦هـ وعمره ٦٣ سنة.

ومنهم الشيخ عبد الله ثقة الفلاني الكشناوي، فريد دهره، ووحيد عصره، طلب العلم في أكدز وفزان وتكده، ثم رجع إلى كاشنة وتصدى للتدريس بها، له منظومة في المواعظ والحكم، وهي في نحو ألف وخمسمائة بيت تسمى «عطية المعطي» ولا ينقصها إلا كثرة الضرورات الشعرية. له مع شيخه البكري

مناظرة في تكفير أهل المعاصي، حسب رأي البكري، وعدم تكفيرهم حسب رأي عبد الله الثقة.

ويقال إن عبد الله هذا أول من حفظ الصحاح الست في هذه البلاد. وفيه قال شاعرهم:

مَدِينَةُ العِلْمِ عَبْدُ الله ذا ثِقَةٍ وَفي التّعَدُّد خُذْ مِنْ بَعْدِه عُمَرَا

ومنهم الشيخ المكاشف المعروف بابن الصباغ، له شرح على العشرينيات وقصائد كثيرة.

ومنهم الشيخ محمد بن مسنى، أخذ عن ابن الصباغ وبرع حتى ألَّف مؤلفات عديدة، منها: «النفحة العنبرية في شرح العشرينية»، و«بزوغ الشمسية في شرح العشماوية»، و«أزهار الرُّبا في أخبار بلاد يوربا». ومن كراماته أنه لما هجمت قبيلة كورارافا على مدينة كنو وعثوا فيها فسادًا وطردوا منها أهلها دعا عليهم ابن مسنى حتى وقع عليهم البلاء العظيم، فتفرقوا ثم عاد الكنويون إلى بلادهم وتوفي ابن مسنى ١٠٧٨هـ.

ومنهم الشيخ عمر بن محمد بن أبي بكر الكوكبي له تخميس على: «بانت سعاد وشرفها».

ومنهم الشيخ محمد الكشناوي الذي رحل إلى الشرق وجاور الحرمين مدة ثم رجع إلى مصر ولازمها حتى توفي بها ١١٥٣هـ، ذكره الجبرتي في تاريخه الكبير.

ومنهم الشيخ هارون الزكزكي شيخ شيوخ زمانه، أخذ عنه عدد لا يحصى.

ومنهم الشيخ رمضان بن أحمد، أصله من فزان استوطن زنفر حتى توفي بها، أخذ عن هارون الزكزكي ونبغ في العلوم الشرعية والأدبية، وأخذ عنه أعلام.

ومنهم الشيخ محمد مود الكشناوي صاحب كتاب «صرف العنان» ألفه عام ١١٨٦هـ لم نقف على وفاته.

ومنهم الشيخ علي جب، وهو عالم جليل، شرح لاميَّة الأفعال لابن مالك، أخذ عنه الشيخ جبريل بن عمر الذي صار بعد ذلك من جلة العلماء.

والشيخ محمد المقروري شيخ شيوخ زمانه، ومن تلاميذه النجباء الشيخ إبراهيم البرناوي، والقاضي شعيب، والشيخ عبد القادر بن المصطفى، ولكل منهم آثار ومؤلفات وتلاميذ.

ومنهم الشيخ جبريل بن عمر، شيخ شيوخ زمانه، أخذ عن الشيخ علي حسب والشيخ محمد مرتضى وعن الأخوين أبي بكر بن الحاج عثمان وعلي بن

الحاج عثمان. حج مرتين، ولقي يوسف الحفناوي والمرتضى وأخذ عنهما.

وأخذ عنه الكثيرون منهم الشيخ عثمان بن فودي وعبد الله، وفيه يقول عثمان:

إن قيل فيَّ بحُسْن الظَّن مَا قِيلا   فَمَوْجَةٌ أَنا مِنْ أَمواجِ جِبْرِيلا

وقال عبد الله يهنئه بعد رجوعه من الحج:

جِبْرِيل مَنْ جَــبَرَ الإله بِه لنا   دينــًا حنيــفًا مُسْتَقيم المنْهَج
شَمْسُ الضُّحى بَزَغَت بغـربٍ فانتهت   للشَّرْق تُشْرِقُ في قُرَيش وخَزْرَج

ومنهم الحاج محمد راجي، وهو من شيوخ ابن فودي في علم الحديث، قد حج، ولقي علماء الحرمين واستفاد منهم. وهنأه تلميذه عبد الله بن فودي بعد رجوعه بقصيدة منها:

هنيئًا نَبيــلَ خَـيْرٍ بانعراجِ   إلى حَـاج شَهير بِابْنِ رَاجي
صَبور فائــقٌ عُلماء عِلْمِ الحد   يث مُضــيئُه مِثْــلَ السِّراج

ومنهم مالم كبر من أحفاد عم أحمد بابا التمبكتي، ولد حوالي ١٧٥٠م وتخرج من جامعة سنكري، وكان معاصرًا للشيخ جبريل بن عمر والشيخ الطاهر بن إبراهيم، وقد أخذ عنه منظومته السنوسية الكبرى، وكان من

أولياء الله الكبار، وله تلاميذ وأبناء نجباء توفي حوالي ١٨٤٤م. ومن بناته السيدة عائشة التي كانت تفسر القرآن في بيت سلطان كنو بشهر رمضان، ومن أولاده أحمد وابنه إبراهيم، وكلاهما من الأعلام.

ومنهم الشيخ محمد موطا الذي أخذ عن شيوخ كاشنة، وأخذ عنه عبد الرحمن السيوطي الذي أسس مدرسة الفقه في حارة «مدابوبكنو»، وكان الشيخ يحفظ الموطأ، لذلك اشتهر به، توفي حوالي ١٨٥٠م.

ابن فودي، ومن معه، ومن بعده

الشيخ عثمان بن فودي المجدد الإسلامي الكبير ولد ١١٦٦هـ، وتلقى العلوم من مختلف المشايخ – كما سيأتي بيانه – ثم قام بالدعوة إلى الله ولم يزل حتى قامت دولة إسلامية عاشت مائة عام قبل دخول الإنكليز، وتوفي ١٢٣٢هـ وله مؤلفات كثيرة، منها: «أصول الولاية» و«إحياء السُّنّة» و«بيان البدع» و«ترغيب العباد» و«تمييز المسلمين» و«سوق الصادقين» و«علوم المعاملة» و«عمدة العباد» و«كف الطالبين» و«مرآة الطلاب» و«حِصْن الأفهام» و«المسائل المهمة» و«نصائح الأمة» و«نور الأولياء»، وغير ذلك من الرسائل الصغيرة والكبيرة..

والشيخ عبد الله بن فودي: ولد ١١٧١هـ أخذ العلم عن أخيه، وعن جملة من علماء بلاده، وتبحر في العلوم وبرع حتى لقبه معاصروه بنادرة الزمان، له من المؤلفات ما ينيف على مائتين وتوفي ١٢٤٤هـ.

ومن مؤلفاته: «ألفية الأصول» و«البحر المحيط في النحو» و«الحصن الحصين في التصريف» و«ضياء التأويل في التفسير» و«ضياء السياسة» و«ضياء الحكام» و«مفتاح التفسير» و«مفتاح الأصول» و«نظم النقاية» و«تخميس العشريّات» و«تزيين الورقات».

ومنهم الحاج محمد الأمين الكانمي ولد بفزان من أب عربي وأم كانمية، حج وأقام مدة بين المدينة ومصر وفاس، ثم عاد إلى وطنه. وكان من العلماء الأعلام، لم يُعْرَف له تأليف غير قصيدة واحدة في التوسل بالأسماء الحسنى، وأولها:

أَيَا طَيِّبَ الأَسْماء يَا مَنْ هُوَ اللهُ وَمَنْ لا يُسَمَّى ذَلك الاسمُ إلاَّ هُو

عارض ابن فودي في جهاده برسائل عديدة دونها الشيخ محمد بللو في: «إنفاق الميسور». قام بالدفاع عن «برنو» و«كانم» حتى استردها من جيوش ابن فودي فأصبح بذلك عظيمًا على أرض برنو وكانم. وجُعِل سلطانًا إلى أن توفي ١٨٨١م. وآلت إلى أولاده وأحفاده دولة برنو وكانم وهم يتلقبون بالشيخ حتى اليوم.

منهم الشيخ محمد بللو بن عثمان بن فودي ولد ١١٩٥، وأخذ العلم عن عمه عبد الله وكبار إخوته من أبيه، وقويت ملكته العلمية وألف كتبًا عديدة منها: «إنفاق الميسور» و«روضة الأفكار» و«مفتاح السداد». وقد اجتمع به الرائد

الإنكليزي كلاباتن سنة ١٨٢٦ وعقد معه معاهدة تجارية باسم ملك إنجلترا وتبادل معه الهدايا وتوفي ١٨٣٧.

ومنهم الشيخ محمد بن جبريل بن عمر له عدة مؤلفات لم نعثر إلا على تخميس داليَّة المديح لشيخه عبد الله بن فودي ومطلعها:

قُلْ مُسْتَعينًا بالإله الماجِد　　في كُلِّ أَمْرٍ للحَدِيث الوَارِدِ
ومُعَوِّذًا من كُلِّ مَار مَارِدٍ　　حَمْدًا وشُكرًا للإله الوَاحِدِ
البَاعِثِ الإِرْسَال هَادي مَنْ هَدَى

منهم الحاج عمر الفوتي ولد ١٧٨٧م، وهو من أحفاد المرابطين في بلاد فوتا، تعلم في بلاده ثم حج ومر على مصر ومكث بالأزهر مدة ثم عاد إلى وطنه، ونزل في سوكوتو عند السلطان بللو وتزوج ابنته، ثم رجع إلى فوتا وقد تأثر بأعمال أبناء فودي وحذا حذوهم في الجهاد ببلاده، وأدخل قبائل بمبيرة في الإسلام، وقاوم الاستعمار الفرنسي مدة وأقام دولة إسلامية في فوتا وتوفي ١٨٦٢م.

ومنهم الوزير غطاط بن يم، توزّر للشيخ عثمان ولابنه محمد بللو ولحفيد علي بابا. وكان عالمًا جليلاً ومن مؤلفاته: «الكشف» و«البيان» و«أنيس الجليس في مناقب عثمان وأخيه وابنه» و«روض الجنان في مناقب الشيخ عثمان» و«المواهب الربانية في تحقيق الطريقة القادرية».

ومنهم الشيخ راجي بن صاحب الرما، وهو عالم نجيب له أكثر من خمسين كتابًا، وأشهر مؤلفاته «مصباح الأفعال في علم التصريف» يقول فيه:

جَميعُ مَا فيهِ مِنَ الأَفْعَــــال سَــــبْعَةُ آلافٍ وَرَمْزُ ثَال

ومنهم الشيخ يوسف البرناوي تلميذ الحاج الأمين الكانمي وصاحب الجيمية الكبرى في المولد النبوي توفي حوالي ١٢٦٦هـ.

ومنهم الشيخ أبو بكر بن الأرض البيضاء، وهو عربيّ مغربيّ ومن الأولياء الكبار. عاصر ابن الموطا وجرى بينهما حوادث وأخبار. وكان مُهَابًا عند أهل زمانه ومجاب الدعوة. ومن الذين أسّسوا شعبة النحو والصرف في مدينة زاريا الشيخ شئت أبو حجي، أخذ عن الشيخ عثمان بن فودي، وأخذ عنه الكثيرون منهم: مالم واكي وأبو محمد.

وممن أخذوا من الشيخ عبد الله في مدينة غندو الشيخ القاضي سعد، كان متبحرًا في الفقه واللغة ثم امتاز أهل غندو بمعرفة متون اللغة.

ومن النساء اللواتي نبغن في العلم والأدب السيدة حبيبة أخت مالم بكشني، أخذت العلم مع أخيها عند الشيخ عثمان بن فودي ونبغت وكانت تعلّم النساء.

ومن النبغاء الحاج عمر بن أبي بكر صلفا وُلِد ١٢٤١هـ، تعلم في كنو وكبي، ثم ارتحل إلى ساحل الذهب (غانا)، وتصدى للتدريس بها وأخذ عنه عبد الله تان شيخ علماء كوماسي. ومن مؤلفاته تربيعة للزهد، والوصية المشهورة في هذه البلاد، توفي ١٣٥٣هـ.

ومن الذين أسسوا الفقه المالكي في حارة مدابو بكنو الشيخ عبد الرحمن السيوطي، الذي أخذ عن الشيخ محمد موطا وأخذ عنه كثيرون، منهم الشيخ عمر باجومي والشيخ صالح بن بردي وأمثالهم.

ومن الذين رفعوا اسم هذه البلاد في العالم ألفا هاشم الفلاني الفوتي، واسمه محمد بن أحمد بن سعيد الفوتي، ولد ١٢٨٣ وتعلم في بلاده، ثم ارتحل إلى الشرق وجاور الحرمين ستًّا وعشرين سنة، وانتهت إليه الرئاسة العلمية بالمدينة المنورة. وله مؤلفات عديدة وتوفي ١٣٥٠هـ.

ومن علماء نيجيريا الذين جاوروا الحرمين الشريفين إلى هذه الأيام ولهم آثار طيبة لإخوانهم النيجريين بهما:

الشيخ موسى الكشناوي المتوفى ١٩٥٠م عن نيف وسبعين سنة من العمر والشيخ أبو بكر بن حسن الكشناوي الذي شرح كتاب «الإرشاد السالك في فقه الإمام مالك» في ثلاثة أجزاء. والشيخ بشير بن أحمد في مدينة مايرنو بالسودان، والشيخ أحمد الكتاغمي بالمدينة المنورة.

علماء بلاد يوربا

لم نعرف من يستحق الذكر من علماء يوربا قبل تأسيس الدولة الإسلامية في إلورن، وإنما وجد في مختلف القرى والأحياء بعض أفراد من أهل الصلاح والتقوى والعبادة، ولكنهم ليسوا في المستوى العالي من الثقافة العربية والإسلامية ما يقربهم من مصاف الطبقة الراقية من علماء بلاد هوسا.

منهم الشيخ محمد السنسي السني عالم ربوة السنة، والشيخ محمد ينبؤ ويقال إن في ربوة السنة من الأولياء والعلماء ما يقرب من سبعة قبل مَقْدِم الشيخ عالم.

منهم الشيخ موسى البرنوري الأبجي وإخوانه كالإمام متاشي وغيره.. من الذين تعهدا غرس الإسلام في واحات مختلفة من صحراء الكفر والوثنية في بلاد يوربا. وبعد قيام الدولة الإسلامية في مدينة إلورن وجد العلماء الفلانيون والنوفاويون والهوساويون وغيرهم أرضًا جديدة خصبة صالحة لغرس آدابهم وعلومهم فيها، فاندفعوا نحوها، كما أن أمراء إلورن كانوا كثيرًا ما يستقدمون إلى بلادهم نخبة من أولئك العلماء ليساعدوهم في إقامة هذه الدولة الجديدة على الأسس الشرعية الصحيحة، وفي الطليعة الأولى منهم.

الشيخ أبو بكر الشهير بلقبه (بوبي) استقدمه الأمير شئت من سوكوتو، ونزل في إلورن حوالي ١٢٤٥هـ، وتصدر للتدريس بها، وأخذ عنه الكثيرون، منهم

الشيخ مالك والشيخ محمود، ابنا الأمير شئت، والشيخ محمد بيغوري الفلاني الذي مدحه في قصيدة طويلة، نقتطف منها ما يأتي لنستدل بها على قدر المادح والممدوح:

فَمِـــني تَحـــياتٌ مُزيّنَة الحَـلا تَأَرّج كالمسْك المنمِّ على الولا
لِمَن هـــو كالمصْبَاح ضَاءَ بليلة ليـأوي إليه النّاس طُرًّا تَسَللا
وذلك جَدّي أو أبي أو خَوَابي[1] أبو بكـر فَوْقَ القُرونِ الذي عَلا
هو العالم الأســتاذ ناوٍ بمن مَضَى مِنَ العُلَماء السُّودان مُشْتَهِرُ العُلا

توفي الشيخ أبو بكر حوالي ١٢٧٠هـ وترك من الأولاد النجباء محمد ثاني وعثمان ومحمد الأمين آنذا الكبير.

ومنهم الشيخ عبد الله الدندي الكشناوي أخذ العلم من تلاميذ الشيخ عبد الله بن فودي وقدم إلى إلورن وتصدر بها للتدريس، وأقبل عليه كثير من طلبة العلم ونبغ على يديه خلق كثير إلى أن توفي ١٩٢١ عن مائة سنة ونيف.

والشيخ إبراهيم الهوساوي الملقب بقبر العلوم، وانتهت إليه الرئاسة العلمية بعد وفاة بوبي وظهرت بركاته للناس. وله ولد نجيب اسمه عبد الرحمن بن إبراهيم الذي تولى منصب أبيه بعد وفاته في التعليم وشرب من بحره الكثير من العلماء.

(١) خَوابيّ: الخَوَابّ هي القرابات والصّهر. (م).

ومنهم الشيخ محمد التاكتي النفاوي كان تقيًا عالمًا متفننًا، وفدت إليه طلبة العلم من جميع بلاد يوربا وممن نجب على يديه في إلورن الشيخ موسى بربوة ليلى والإمام حبيب الله بتوري والشيخ سليمان جيجي والشيخ عبد القادر أفنسو وتوفي ١٩٠٠م.

ومنهم الشيخ محمد بيغوري الفلاني كان عالمًا متفننًا تقيًا ورعًا، نبغ على يديه عدد كثير، منهم أحمد ومحمد ابنا محمود، وأحمد بن أبي بكر، وأمثالهم من الأعيان توفي ١٩١٣م.

ومنهم الشيخ محمود بن الأمير شئت، زهد في الإمارة وأقبل على العلم حتى صار فيه بحرًا زاخرًا وهو الذي مدحه ابنه أحمد بن محمود في قصيدة منها هذه الأبيات:

أَلا فَاشْكُروا نَعْماء رَبي إلهنا ... لِوالِدنا محمود أَهلِ الدِّرايَةِ
لأَنّ ابنَه قَبلي مُحمّد اسمه ... حَفِيظُ كِتاب الله بين الجَمَاعةِ
يَجُول بِه جَولان يَجْري في لُجَج ... لِيُخْرِج مِنْها لُؤْلؤَةً ذا إِضاءةِ
واسمُ أَخيه أَحْمَد ذُو جَهالة ... يَخُوضُ فُتُونَ العِلَم رَوْمَ الهِدَايةِ
وبَعْدَهُما سَعْد وكان مؤدِّبًا ... لأَوْلادنا القرآن في كُلِّ حَالةِ

وللشيخ محمود تخميس جيد على دالية المديح للشيخ عثمان بن فودي في ثلاث وستين بيتًا مطلعها:

إني خليط بالذنوب مُبَرْقَعا ولذاك صِرْت عن الزِّيارة ممنعا
عيناي دامت بالتشوُّق مَدْمعا هل لي مَسيرة نَحْوَ طِيبة مُسْرعا
لأزور قبر الهاشمي محمد

ومنهم الشيخ موسى بربوة ليلى كان متخصصًا في علوم اللغة ومتونها توفي ١٩٠٧.

ومنهم الشيخ بوصيري بن بدر الدين صاحب العسل، كان متخصصًا في النحو أخذ عنه الكثيرون، منهم الشيخ محمد الأمين السارمي وأقرانه، وتوفي ١٩١٥م.

ومنهم الشيخ أحمد بن أبي بكر بن أكوكورو، آخر علماء إلورن المحققين، ولد ١٨٧٠م، وأخذ العلم من الطبقة الأولى والثانية من علماء إلورن، وتعلم شيئًا من اللغة الإنكليزية وتعين وكيلاً للمالية مدة ثم استقال منها واشتغل بنشر العلم والتدريس. وهو الذي كتب عن تاريخ مدينة إلورن، وله قصائد جيدة في المدائح والتهاني والمراثي. وقد توفي ١٩٣٦م ولم يلحق غباره أحد بعده من علماء إلورن.

ومنهم الحاج محمد الوزير البرناوي حج مع والده عبد الله الأطركمامي وتركه في الأزهر سبع سنين، ثم رجع إلى بلاده واقتبس من جلة العلماء، وتصدر للتدريس في لاغوس وإبادن وإلورن وبدا، ثم توزّر للأمير سعيد بن محمود مدة

في مدينة بدا. وقد بعث له أحمد بن أبكر الألوري بقصيدة يهنئه فيها لمناسبة تعينه وزيرًا.

حَمَدْت إله العرش رَبّي ذا العُلا ورَافع بَعْض فَوْقَ بَعْض لَه القَضَا
صَلاتي سَلامي دَائمين يَد المَدَى على أَفْضَل المَخْلُوق أَحْمَدَ ذي الصَّفا
وَمن مُبَلِّغ عني لشَيْخي رِسَالةَ وَزير ابن عبد الله بدي ذي الحجا
مُحمَّدنا مَنْ زار قــبر محمــد وحَجَّ لبيت الله مكة ذي الحِمى
وَوَافى وقَدْ ساد الأَنام بِعِلْمِه أَقَرَّ بذاك العِلمَ كل ذَوي الحِجَا [١]
ولكن هذا الماء يُنْكِرُ طَعْمَه سقيم وضوءُ الشَّمس تُنْكره العمى
ولا تَعْجَبُوا يا أهل بِدَا بمثْل ذَا وذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يَشَا
لقومك فاعدل يا وزير ودُلَّهم إلى ما يَقِيهم في دُنَاهُم من التَّوَى [٢]

استمر الحاج محمد في الوزارة نحو سبع سنوات فقط، ثم استقال منها ورجع إلى الاشتغال بالتأليف والتدريس حتى أخرج نحو مائة كتاب ما بين منظوم ومنثور، وتوفي في بدا سنة ١٩٤٥م عن ثلاث وستين سنة من العمر.

منهم الشيخ اللبيب محمد بن عبد القادر بن صالح الملقب بتاج الأدب، ولد حوالي ١٨٨٥م، كان صوفيًّا مجذوبًا ذا كرامات عديدة وأحوال عجيبة، وله طريقة في الأذكار والأوراد. وهو أول من حَبَّذَ الطريقة الحديثة، واستعمل في

(١) ذوي الحجا: أصحاب العقل والفطنة. (م).
(٢) التوى: الهلاك. (م).

التعليم الكتب المصورة في التوضيح. وكان يخلع على من أكمل التعليم عنده لقبًا كألقاب العلماء في عصر المماليك، مثل تاج الدين وبدر الدين وجمال الدين وزين الدين. وقد نجب على يديه عدد كثير، منهم الشيخ زكرياء أومد والشيخ محمد كمال الدين وتوفي ١٩٢٢.

وأما من نشروا الإسلام والعلم في أواسط بلاد يوربا بجهات «إبادن» و«إسين» فمنهم الإمام عثمان أبي بكر الدندي كان عالمًا، عابدًا، ورعًا، تقيًّا عمل على نشر الإسلام في «إبادن»وما حولها، وهو أول من تولى الإمام الأكبر في «إبادن» وتوفي ١٨٧١م.

ومنهم الشيخ أبو بكر بن صاحب الكرسي، شيخ شيوخ مدينة «إبادن»، أوفده الوالي عثمان بشورن إلى الشيخ تاكتي في «إلورن» وأتم بها دراسته وتخرج منها. ثم رجع إلى «إبادن»، وأخذ عنه جميع أهلها، وقد خرج مع جملة من تلاميذه يريدون الحج، فهاجم قطاع الطريق وقُتِلَ شهيدًا ١٨٧٠م عن نيف وثلاثين سنة.

ورضي الباقون من الحج بالإياب، وهم: الشيخ هارون والشيخ عبد الله بن عثمان، والشيخ مالك بن طاهر والشيخ أمين أبو بدماص والشيخ حسن.

أما الشيخ هارون بن السلطان فولد سنة ١٨٣٧، وهو من تلاميذ ابن صاحب الكرسي، انتهت إليه الرئاسة العلمية بعد موت شيخه أبي بكر، ونجب على يديه الشيخ ثاني الشهير بدانيا، والشيخ بللو بن اليابس، والشيخ صالح

أبو السنوسي الأكا، والشيخ سنوسي كاتبي وأمثالهم، وقد تولى منصب الإمام الأكبر في «إبادن» لمدة اثني عشر عامًا، وتوفي ١٩٣٥. ورثاه أحمد الألوري بمرثية نقتطف منها هذه الأبيات:

لهفي على مَا القَلْبُ منه تَفَجَّعَا ... ومَا عَارَضَ الأَكْبَاد حَتَّى تَصَدَّعَا
لموت فَقيهٍ عَالم مُتَوَرِّعٍ ... صَبُورٍ صَدُوقٍ مُسْتَجَابٍ إذا دَعَا
وَأَعْني بِه شَيْخَ الشُّيُوخِ ومُقْتَدًى ... لدى كل مُسْتَهْدي إذا الأمر أَفْزَعَا
قَضَى مَنْ يُرْجَى للنَّدَى والعُلَى ومَنْ ... يُرْجَى الأَمَاني والمَعَالي بِه مَعَا
قَضَى الشَّيْخُ هَارون الإِمَام لِقَوْمِه ... ومُرْشِدُهُمْ في جُمْلَةِ الأَمْرِ أَجْمَعَا
عَزِيزٌ قَضَى نَحبًا وقَدْ كَان في الوَرَى ... مِنَ الغَيْثِ أَرْوَى أو مِنَ اللَّيث أَروَعَا
لَقَدْ زُلزِلَتْ أَرضُ الأَبَادن بِأَهلِها ... وَبيتُ العُلا مِمَّا أَلَمَّ تَزعْزَعَا

ومن الذين نشروا العلم في مدينة «إسين» الشيخ داود شيخ شيوخ زمانه، وأول من قرر تفسير القرآن في شهر رمضان بمدينة «إسين». وقد تتلمذ له عدد كثير من أهل البلاد المجاورة. وممن أخذوا منه الشيخ محمد راجي صاحب «البيان» الذي كان يحفظ تفسير الجلالين ويقرؤه على الناس من حفظه، وهو مع ذلك فاقد البصر.

ومنهم الإمام صاحب «القباء» والإمام محمد الأول وأمثالهم، وتوفي الشيخ داود ١٩٠٠م.

ومن أوائل علماء لاغوس الذين عملوا على نشر الإسلام فيها الشيخ أبو بكر الذي نزح من أوكي سنة نزل بلاغوس حوالي ١٧٨٠م، وقد تولى ابنه محمد نال وحفيده محمد الغالي على إمامة جامع لاغوس.

ومن أواخر علماء لاغوس المبرزين في العلم والمستميلين إلى السياسة الحاج أحمد شاكي المولود ١٨٩٢م والمتوفى بلاغوس ١٩٦٧ له حظ في العلم، ومن آثار قلمه في قصيدة له، مطلعها:

أَعُـوذُ بِاللهِ مِنَ الرَّزَايَـا[1] وَكُـلِّ شَـيْطَان أَبي البَلايَا
باسـم الإله خَـالق البَرَايَا الغَـافِرِ الذُّنُـوبِ وَالخَطَايَا
لله حَمْـدي عَـالم الخَبَايَا مِنَ الأُمـور الكُـلِّ والجَلايَا
ثم الصَّـلاة مع التَّحـايَا على النبي صـاحب المزَايـا

ومنهم الحاج أبو بكر أوتون كان فقيهًا متورعًا يأكل من عمل يده، وله مكتبة جامعة لنفائس الكتب، ولد ١٨٨٦م، وحج ١٩٢٣م كان يصلي بالناس في مسجد علي بلوغن منذ ١٩٣٦م، ولم يتخلف عن الصلاة يومًا، إلى أن توفي ١٩٦٨م.

(١) الرَّزَايا: جمع رَزيئة وهي المصيبة. (م).

نظام الحكم والقضاء فيما حول النيجر

نظام الحكم الإفريقي القديم أرستقراطي بحت، إذ يتوارث الحكام مناصبهم كابرًا عن كابر. وزمام الملوك والأقيال[1]، ويعاونهم أمناؤهم من كبار مواليهم المخلصين لهم، ومن رؤساء جنودهم الحارسين لمملكتهم ومن كهنتهم المثيرين لحركاتهم. أما القضاة فكبير كل عائلة قاضيها، ورئيس كل قبيلة حاكمها، وقاضي القضاة هو الملك الذي يعتبر نفسه نائبًا عن الله في أرضه.

ولكل كبير ورئيس حق سماع القضايا الصغرى في ناحيته وولايته الخاصة، أما القضايا الكبرى فإنها ترفع إلى مجلس الملك فيجتمع الأعيان لسماعها، والنظر فيها.

وليس لهم قانون مدون في كتاب، إنما يحفظون في صدورهم ما يتوارثونه عن أسلافهم من تقاليد وعادات. أما العقوبات فأولها القتل لمن قتل نفسًا بغير حق، أو كان لصًّا محاربًا أو خائنًا للوطن، أو مخالفًا لأمر السلطان على سبيل

(١) الأقيال: مفردها قَيْل وهو الملك. (م).

الاستفزاز. ثم النفي، وهو جزاء من استحق القتل من العظماء الذين يخشى من قتلهم الفتنة. ثم الغرامة، وهو جزاء من زنى بامرأة محصنة متزوجة، فيؤخذ ما يعدل ثلث المهر الأصلي على المرأة وتسلم الزوج الشرعي تعويضًا له عن التمتع والتلذذ بالمرأة المتزوجة. والرهان هو ما يحبسه المديون لدائنه كأن يحبس عنده ولده ليستغله حتى يدفع ما عليه من الدين عاجلاً أو آجلاً. هذا هو النظام السائد في جميع الأقطار الإفريقية قبل ظهور الإسلام.

ولما جاء الإسلام ودان به كثير من أقطارها عمل أمراؤها وملوكها بالنظام الإسلامي، وكان للعلماء والفقهاء دور عظيم في تبيين أحكام الله ورسوله فيما يصدر للناس في حياتهم الفردية والاجتماعية.

وعلى كل إقليم أو قُطْر إسلامي ملك أو سلطان يحمل لقبًا معينًا مثل: «الماي» لأهل برنو، و«المنسا» لأهل مالي، و«والزا» و«السن» و«أسكيا» لأهل سنغاي، و«سركي» لأهل هوسا. وأكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالمًا فقيهًا اتخذ أحد العلماء المبرزين وزيرًا يدير له الدولة على وفق الشريعة.

ولابدَّ من هيئة شورية على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء، على ما سنَّ الخليفتان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - من النظم، لذلك تلقب أكثرهم بأمير المؤمنين.

وأول من تلقب بأمير المؤمنين في وادي النيجر هو محمد أسكيا الأكبر ثم الشيخ عثمان بن فودي وخلفاؤه، وكان له أمراء في الأقاليم على نحو ما للخلفاء من الولاة والحكام والأمراء.

ولكل أمير في إقليمه وزير الدولة وقائد الجنود والإمام الأكبر للصلاة، وقاضي القضاة وكبار العلماء وكبار الجنود وعمال الولايات.

وقد كتب الإمام المغيلي في مجلسه، كما وضع له وصية فيما يجب على الحكام في ردع الناس عن الحرام.

وكتب الإمام السيوطي رسالة إلى ملوك التكرور ينصحهم فيها في أمور السلطنة وأحكامها الشرعية.

وألّف الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بللو كتبًا ورسائل في شرح أمور السياسة والحكم والقضاء على ضوء الكتاب والسنة والإجماع. وكان عليها العمل في الأقطار الإسلامية بغرب إفريقيا قبل استيلاء الإفرنج عليها، وها نحن نورد منها طائفة لتكون تبصرة وذكرى لأولي الألباب.

مجموعة المغيلي في شؤون الإمارة

كتبها لأمير كنو:

أما بعد: وفقك الله للتقوى، وعصمك من نزغان الهوى؛ فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذبحته التقوى بقطع أوداج الهوى، وإن جار ذبحه الهوى، بقطع أوداج التقوى. فعليك بتقوى الله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران/ ١٨٥].

الباب الأول: يجب على الأمير حُسن النية في الإمارة، ويجب على كل ذي عقل وديانة أن يبتعد عنها إلا إذا لم يكن له بد منها، فيتوكل على الله فيها ويستعين به في أمره كله، وينوي أن ينال بها رضى الله في إصلاح أمور عباد الله الدينية والدنيوية، ويعلم أن الله ما ولاه عليهم ليكون سيدهم بل ليصلح لهم دينهم ودنياهم، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثاني: فيما يجب على الأمير من تحسين الهيئة في مجلسه بإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله. وفي لباسه أن يلبس المباح للرجال غير متشبه بالنساء، ولا مفسد لبيت المال، ولا يتزين بذهب، ولا فضة، ولا حرير.

وفي جلوسه يجب أن يجلس بالوقار والسكينة من غير عبث ولا قهقهة، مع غض البصر، والإقبال على الرعية بالحق، وأقبح القبائح كذب السلطان وإخلاف الوعد، والغفلة في أمره ونهيه. وفي دائرته بأن يقرب منه الأخيار والعلماء والأتقياء والصلحاء والزهاد، ويبعد عنه الأشرار والجهلة والفجار. وفي قسم بيت المال بأن يؤثر رعيته على نفسه وأهله، فلا يكن عبدَ ثوبٍ، ولا حصان، ولا بساط، ولا مكان، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثالث: فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها؛ لأنه راعٍ على جميعهم، وهو مسئول عنهم، ولا يتمكن على ذلك بنفسه، بل بالنوابِ. فمنهم وزراء: أي الأعوان في سياسة جميع الرعية لا يخشون إلا الله.

وأئمة: يوالون على البلاد البعيدة عنه يجمعون له الناس حين يحتاج إليهم.

وقضاة: أي الذين هم تقاة يفصلون الخصومات.

ومحتسبون: أي أهل الحسبة الأمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، ويكشفون أمور القرية وغيرها من المجامع، ويصلحون ما فسد.

وشرط: أي أعوانه في تنفيذ الأحكام.

وخدام الحضرة: يتصرفون في حوائجه لئلا يحتاج إلى غيرهم.

وعقلاء: يشيرون له في الأمور قبل عامة الناس.

وأمناء: يقبضون الأموال ويصرفونها إلى الرعية في مصارفها.

وكُتَّاب: حُسَّاب يحفظون جميع الأشياء.

ورسل: يكونون سفراء في بلاد الإسلام.

وجُسَّاس: يكونون عيونًا في بلاد الأعداء.

وحفظة: يحفظون الأمير في بلده نهارًا.

وعُسَّاس: يحفظونه ليلاً.

وعلماء: ثقاة في العلم والتقوى يرشدونه في جميع أموره.

وشفعاء: يشفعون من اقتضى الحال بشفاعته من ذوي المروءات إذا عثروا في التعزيرات لا في الحد والحقوق.

ومنظِّمون: أي الصلحاء لوجه الله تعالى.

وعمال: يجْبُون حق الله كالزكاة وبيت المال.

وحصن: حرز حصين مكفي بالخزائن من طعامه وشرابه وسوقه.

وخيل: أفراس جديدة تعد من بيت المال في كل قرية يحبسها للجهاد.

وظهور: زادٌ يُعَدُّ من بيت المال لحمل الفقراء إلى الجهاد ونحوه.

ورجال: شجعان حاضرة في كل أوان عند الأمير لأمور تعرض.

وعدد: من آلات الحرب ونحوها متينة قوية.

وأطباء: أمناء يطببون الناس لئلا يحتاجوا إلى الخروج إلى غير بلاده.

وأمراء الجيوش: الذين ينوبون عنه في سد الثغور وترتيب الجيوش وحفظ بيضة الإسلام، واستعداد البلغاء الذين ينشطون القلوب ويقبحون الهروب.

وعرفاء الحروب: الذين برأيهم تتكشف الكروب، فإن الحروب خدعة، ليس بكثرة ولا سرعة، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الرابع: في التزام الحذر في الحضر والسفر، بإظهار القوة والجلد عند تغير الأحوال بالخوف، وإظهار الزهد في الصاحبة والولد لئلا يمنعه ذلك عن العدل. قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن/ ١٤]. وإظهار الرغبة في الأبطال والعدد وحب الخروج إلى الجهاد، وبُغْض المقام في الديار بلا نهوض إلى الأعداء.

ومقام السلطان في داره عن رعيته هو رأس كل فتنة وضرر، فالملك بالسيف لا بالتسويف، أي لا يحصل بقوله: سوف نخرج إليهم، سوف أفعل؛ وهل يدفع الخوف إلا بالتخويف؟ إن كل من خوفك لا تسلم منه إلا بتخويفك إياه لا بالهروب منه، وطلب الصلح معه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد/ ٣٥]. ويجب عليه الحذر في طعامه وشرابه وفراشه أن لا يوليها إلا أقرب أحبائه إليه، وفي مجلسه ألا يفارق السلاح وأهل الأمانة والصلاح من الشجعان الرماة والفرسان، وليس وقت الخوف كوقت الأمان. وفي

سره أن يكتمه حتى يتمكن، وفي النمامين بعدم قبول قولهم ولو كانوا أكثر من سبعين. وفي المتهمين ألا يغتر بظواهر رسل الهداية آمنهم عيونًا، وأصدقهم كيسًا: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل / ٣٥].

وفي الحصون القريبة من الأعداء أن يزيل كل حصن لم يتمكن من أن يسكن أمناء فيه، لئلا يستند أعداؤه إليه، وليخف من الحبل لئلا تلسعه الحية، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الخامس: فيما يجب كشفه من الأمور التي يجهل في رعيته بالعدول والأمناء، كأمور المحبوسين والأوصياء على الأيتام، وحجر المهمل من يتيم وسفيه يأمر برفع أمره إليه، وكأمور الغياب وإرث الأموات وأمور بيت المال وأرزاق العمال على الاستبصار والورع لا على الأضرار والطمع، وكأعمال العمال وما يزيد لهم فيها من الأموال، فمن ظهر منه تقصير زجره أو ظلم عزله، أو شكوى منه أبدله إن وجد بدله، وإلا انتقد من الأمناء، ومن زاد له مال على ما يعطي أخذه وجعله في مصالح المسلمين، وإن شك فيه قاسمه، وليكن عليهم كراعِ الماشية بين الأسود الضارية، فمن عمال السوء جميع الفساد.

إذا كُنْت في أَمْرٍ فَقُمْ فيه نَاصِحًا   وإن تَسْتَنِبْ فاخْتَر خِيَارًا لأهله
ومَنْ يَأْتِ بالكَلْب العَقُور بِبَابِه   فعقر جميع النّاسِ مِنْ سُوء فِعْلِه

عَمَلُ عَامِلِك عَمَلُك، إن أحسن، فالثواب لكما، وإن أساء فالعقاب عليكما، وكأمور المتهمين بالفساد فإن قريب التهمة بوجود علامتها، فلابد من كشفه، فإن ثبت عليه وإلا توعده وزجره بحسب قربه وبعده.

وكأمور الأعداء فلابد من كشفها بالجساس الأمناء، فإن الجهل عميٌّ وبصير واحد يغلب ألف عميٍّ، وأعظم البلية الغفلة عن الرعية، وكَذَمٍّ الذامين ومدح المادحين فلابد من كشفه من الأمناء.

الباب السادس: فيما يجب عليه من العدل والإحسان، فالعدل أن يوفي كل ذي حق حقه من نفسه وغيره، سواء كان الحق عليه أو على غيره من رعيته، فمن لا يأخذ للرعية حقوقهم من بعضهم ليس بعدل.

وأما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه، أي يزيد لكل من أراد أن يحسن عليه زيادة على حقه مما كان من نصيبه، لا ما كان من نصيب غيره، فمن كان يحسن إلى الناس بإعطائهم أكثر ما يستحقون مما لجميع الناس شركة فيه بغير إذنهم فليس بمحسن بل ظالم، لأن ما يحسن به ليس ما اختص به شرعًا، فافهم هذا الأمر ولا تهمله، ومن العدل أن يسوي بين الخصمين في جميع أمورهما، وأن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلاً رضًى فيما لا تهمة له فيه، فإن تعذرت العدالة فعليه أن يراعي أمثلهم في الصدق مع كشف واستكثار، لا يكتفي باثنين مع السياسة والاستبصار، ثم لا بد أن يطّلع المطلوب على أسباب الطالب، ويعذر

إليه إذا أراد أن يحكم على المطلوب فلابد أن يطلعه على الأسباب التي سببت الحكم عليه، ثم يعذر إليه بقوله: أبقيت لك حجة، فإن قال: نعم تلوم له، وإن قال: لا حكم عليه، ثم بعد مشاورة العلماء ولا يجوز له الحكم في شيء إلا بمشهور مذهب إمامه، فإن الحكم بغير المعتمد جَوْر وضلال يجب نقضه على كل حال، وتختص دعاوي الجنايات بأنواع السياسات.

فالجنايات كالسرقة وقتل النفس، فمن ادعى عليه بالسرقة من غير بينة فلا يخلو من ثلاثة: قسم بعيد عما نسب إليه فلا يلتفت لدعوى المدعي بل يؤدب لأجل المدَّعى عليه إن كان من أهل الصلاح.

وقسم قريب من الدعوى، فلابد من حبسه وتهديده وجلده بحسب الجريمة وبعده من التقوى، وربما يغرم بمجرد الدعوى واليمين حيث علم بمثل الدعوى واشتهر وتكرر منه، لأن شهرته بما نسب إليه صارت شاهدًا للمدعي عرفيًّا، ومن تكرر منه الإذاية واشتهر حُبِسَ حتى تظهر توبته أو يقبر.

وقسم مجهول الحال فلابد من اعتقاله، أي حبسه، وكشف الحاكم عن حاله ثم يحكم له بحكمه، وإلا أرسله بعد سياسة وتهديد، وكشف ووعيد، بحسب ما يقتضيه النظر من التشديد. كل ذلك بالتقوى، لا بالهوى، وليس كل الناس سواء.

ومن ادعى عليه بكنفس فلابد فيه أولاً عن حبس بالحديد وكشفٍ وتهديد، ثم إن ظهر الأمر عمل عليه وإلا نظر في قربه وبعده مما نُسِبَ إليه، فإن قرب طَوّل في اعتقاله وإن بَعُد عَجَّل بإرساله. ولابد للأمير الأعظم أن يجلس في كل يوم للناس بحيث يصل إليه جميع الناس، ولا يكفيه القضاة والعمال؛ لأن شكوى الرعية قد تكون منهم ويجب عليه أن يزجرهم وإلا فهو كَسُلَّم الدار لأربابها وكماسك قرون البقر لحلاَّبها. وقد عزل الخلفاء العمال الصالحين بسبب الشكوى وهو أقرب للتقوى. ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب السابع: فيما يجب عليه من جبـي الأموال من وجوه الحلال، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق/ ١]. ومِلاك السلطنة هو الكَفّ عن أموال الناس بأن لا يطلب منهم شيئًا لم يكلِّفهم الله به، والطمع في أموالهم خراب المملكة، فمن الأموال التي حلل الله للأمراء قبضها وصرفها:

زكاة العين والحرث والماشية والفطر والمعدن وخُمس الغنيمة والرّكاز، وأموال الجزية والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب. فإذا كان الأمير عادلاً في صرف مال الله وجب على من بيده شيء من زكاة وغيرها، أن يدفعه له ليصرفه إن لم يكن عادلاً فلا يعطيه فتأمله.

ومن الأموال التي حرم على الأمراء وغيرهم كُلُّ ظلم. ومن الظلم ما يأخذه الأمير على تولية القضاء أو غيره وهو حرام بإجماع المسلمين وذريعة لإفساد الدين وفتح لأبواب الرشى وقهر المساكين؛ لأن الولاة يرون حين أخذ منهم المال على الولاية لا بد أن يأخذوا المال من الرعية فيقهرون عصمة الله من ذلك.

ومن الظلم الرشى لسلطان وقاض وعامل، وهو أن يأخذ من أحد الخصمين أو من كليهما شيئًا قبل الحكم أو بعده. وكذا قبول الهدية من الرعية فإنه باب كل بلية. إذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عنه العدل والأمان وصار صاحبه بالخيانة.

ومن الظلم العقوبة بالمال كأخذ مال السارق والزاني وهي حرام على كل حال، إلا إذا كانت جناية الجاني متعلقة بذلك كلبن خُلِطَ بالماء، فالصدقة به حلال. ومن الظلم المكس[1] وهو حرام بإجماع، ومن الظلم أخذ العشر أو غيره كالنصف والثلث من أرباب الحقوق والتركات، وهو حرام بإجماع المسلمين ونصوص الآيات.

الباب الثامن: في مصارف أموال الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة/ ٤٥]. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ

(١) المَكْس: انتقاص الثمن في البيع واستحطاطه وقيل إنها الرشوة. (م).

يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء/ ٢٢٧]. فيجب على الأمير صرف أموال الله في مصارفها بالكرم، لا بالبخل، فالتبذير، فالكرم هو بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم ولا حَظَّ له من الكرم، وهو: إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال. وفي كل منهما خراب المملكة على كل حال. فيجب على من كانا جبلته أن يستنيب من عطايا مملكته ثقات – خاصة أهله – فمال الله قسمان: قسم زكاة مصارفه الأصناف الثمانية التي في القرآن ويجب صرفها في محل الوجوب ناجزًا إن وُجِدَ به مستحق، وإلا نقلت لأقرب مكان فيه وإن كان في محل وجوبها بعضها، ونقل للأحوج بعضها بحسب الاجتهاد، وأجرة نقلها من الفيء لا منها. ولا يجب تعميم الأصناف كلها، بل إن أخرجت لبعضها أجزأت، إلا أن تعطي للعامل فقط فلا تجزي، ويقدم الأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، ويفضل بعضهم على بعض بقدر الحاجة. ومصرف زكاة الفطر صنفان الأولان فقط أي الفقراء والمساكين، ولا يعطي حارسها منها.

والقسم الثاني: الفيء كخمس الركاز والمعادن والغنيمة وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح، وما يؤخذ من تجارتها وخراج الأرضين وتركة لا وراث لها، وما أفاء الله من أموال الحرب بلا حرب، فصرف ذلك حكمه إلى الإمام يصرفه في المصالح بالتقوى، لا بالهوى، وأحق الناس بالتوسعة عليه من مال الفيء حماة الدين من قضاة المسلمين والعلماء الأتقياء المرشدين، وأهل كل بلد أحق بفيئه من غيرهم، إلا أن تنزل بغيرهم حاجة فينقل إليهم شيء منه بعد

إعطاء أهلها ما يغنيهم على أرجح النظر، فإن كان غير أهل بلد المال أحوج من أهل بلده نقل لهم الأكثر بحسب النظر. وسيرة أئمة العدل في قسم الفيء أن يبدأ الإمام بِسَدِّ ما لا غنى من سَدِّه من حصن وسلاح وغيره، ثم بأرزاق العلماء والمقاتلين، ثم بالفقراء الأحوجِ فالأحوج، حتى يعمهم بأجمعهم من ذكر أو أنثى وصغير وكبير، فإن اتسع المال أُبْقِيَ منه في بيت المال شيء لما يحدث من النوائب وبناء المساجد وفك الأسارى وقضاء الديون ومؤنة تزويج العزاب، وإعانة الحجاج، وغير ذلك من وجوه الاحتياج فهذه سُنَّة صرف أموال الله للمسلمين. ولكن الظالمين اليوم في ضلال مبين، قطعوا العدل والإحسان، ووصلوا الظلم والبهتان، فَقَلَّتْ أرزاقهم، وساءت أخلاقهم، وجاءهم الموج من كل مكان.

وللمغيلي وصية أخرى لسلطان كنو المذكور، فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، ونصها:

«من عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى أبي عبد الله محمد بن يعقوب، سلطان كنو وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه من أمور دينه ودنياه بجاه سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، فاعلم أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، إنه لا بد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية

على حسب الطاقة البشرية، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده، مع إمكان ردعه عنه، أو لعنه، أو حبسه، أو ضربه، أو صلبه، أو قتله، أو نفيه، أو نهب ماله، أو حرق بيته، أو غير ذلك من العقوبات الشرعية.

لكل داء دواء، ولكل مقام مقال وفعال، بحسب ما يظهر من الأحوال، فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم ينته؛ لأن ردع ذلك ومثله حق الله تعالى ورسوله، وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات، وامنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل، وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في شهر رمضان، أو زنا، أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضَعَفَةُ العقول من العامة والنسوان والصبيان، لا سيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى وأصلهم كان كذلك. وقد قال العلماء: الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب.

فانْهَهُم عن ذلك، وأشهر إنكاره وتوعد بالعقوبة لمن فعله، ثم بعد ذلك عاقبه بأقرب شيء يردعه ويردع مثله، وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع

يده أو رجله أو صلبه أو قتله، أو غير ذلك من الروادع الشرعية، فافعله لأنه ظالم، والظالم أحق أن يحمل عليه.

ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه، إلا إذا رأيت أنه لا يرجع لغيره، مثال ذلك: من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم، أو إجلائهم، أو بيع الكفار منهم، أو غير ذلك فافعله ولا تبال. ومن لم يستر أمته أو عبده ولم ينته إلا ببيعه عليه أو بأخذه منه فافعل ولا تبال، وكذلك من يغش بمسحات ناقصات وأبى أن ينتهي عن المعاملة بها فخذها منه واجعلها في مصالح المسلمين. وأما من لم يغش بها ولا أبى أن ينتهي فَمُرْهُ بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يلتقي ما يأتي للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله، وبيعه على يده، وإن لم ينتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذلك منهم فافعل؛ لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان. وليس الخبر كالعيان، ولذلك قال الإمام العادل عمر بن عبد العزيز - رحمة الله عليه: «تَحدُث للناس أقضية بقدر ما أَحْدثوا من الفجور»، فلابد من إزالة الفساد على كل حال. وإن تعارضت مفسدتان إحداهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى. وهذا الذي بينا لك إن شاء الله في تلك المناكر وغيرها..

وإن الناس في حكم الله ورسوله سواء فلا تُخْرِج من ذلك عالمًا ولا عابدًا، ولا شريفًا ولا أميرًا، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى، لا بالهوى.

ومن عارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله، وإن لم يكن إلا بقطع يده أو رجله أو أنفه أو صلبه فافعله ولا تبال، ولكن بعد ثبوت وتثبت في ذلك كله، ومقابلة كل واحد بما يليق به، بحسب حاله من الخير والشر والتواضع والطغيان، فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان، وليس الخبر كالعيان، والله المستعان، وعليه التكلان. وفي هذا القدر كفاية لمن سبقت له العناية. وكلما نوصيك به من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك وإذا نسيت شيئًا منه فلا تنس أن من غَيَّر حُكْم الله فقد كفر، ومن تغيير حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضيًا؛ لأنه يحكم بالظلم وهو يقول: هذا هو الشرع، ومن فعل ذلك فهو كافر لأنه صير الباطل حقًا، والحق باطلاً فإن كان لا بد أن تجعل بعض الظالمين حكامًا فلا تجعله باسم القاضي، فإن القضاء من صفات رسول الله لا يوصف به إلا عالم تقي لا يأخذ الرِّشا، ولا يحكم بالهوى.

الله، الله، الله. وهذه الوصية هي أوكد جميع الوصايا أما يكفيك أن تظلموا باسم السلطنة فتكونوا مذبذبين ترجون رحمة الله ثم تظلمون باسم الشرع، حتى تكونوا كفارًا، والكافر لا نصيب له من رحمة الله، فطهر مقام الشريعة من خبث لأنه مقام رسول الله، لعل الله أن يغفر لك ذنوبك جميعًا، والسلام على من اتبع الهدى».

وكتبه ٨٩٧هـ.

ومن هذا النوع والقبيل رسالة الإمام الحافظ السيوطي إلى أمراء بلاد التكرور عمومًا، وإلى سلطان كاشنة خصوصًا، ونصها كالآتي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا . يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٧٠، ٧١].

«من الفقير عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في بلاد التكرور عمومًا، وإلى الملك الزاهد محمد بن صطفوا صاحب أكنر وإخوته محمد وعمر وابن أختهم محمد بن عبد الرحمن، وإلى الملك إبراهيم صاحب كاشنة خصوصًا: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فأحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، ثم أوصيكم بتقوى الله ﷻ فإنها رأس الأمر وسنامه، وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه، واحتكموا على العدل بين الرعية والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية، ولا يغرن أمرأ منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة، وما خوله من زينة الحياة الدنيا، فإنما الدنيا كلها سِنة منام ولا بدَّ أن يستيقظ من السِّنة، وقد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه ويضمه إليه ويحصنه، ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحضنه، ويقول:

هذا دخل في ملكي أو جُعِل في سلطاني، ويرد ما حكم به الشارع اغترارًا بالأماني، أفلا يخشى أحدكم من ملك الملوك أن يجعل به العذاب الأكبر أو ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يُقْبَر: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج/ ١٢]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت/ ٤٦]. أيغترُّ أحدكم بملكه الذي هو كقطرة. ويريد أن يلغي حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوي عند الله جناح ذبابة؟ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك/ ١٦]. أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض. قال النبي ﷺ: «السلطان ظل الله على الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، وإذا عدل كان له الأجر، وعلى الرعية الشكر، وإذا جار كان له الإصر، وعلى الرعية الصبر».

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «ماذا قلت يا رسول الله عن السلطان الذي ذلت به الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: ظل الله تعالى في أرضه فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الصبر». وقال أيضًا: «صنفان من أمتي لن تنالها شفاعتي سلطان ظلوم غشوم وغالٍ مارق في الدين».

وعنه أيضًا: «ما من أحد يُؤم على عشرة فصاعدًا إلا جاء في الأصفاد والأغلال».

وفي لفظ: «إلا أُتي به يوم القيامة مغلولة يداه يفكه العدل ويوبقه الجور».

وقال أيضًا: «من وَلي عشرًا فحكم بما أحبوا وكرهوا جيء به مغلولاً يده فإن عدل ولم يرتشِ، ولم يَجُرْ، فَكَّ الله عنه، وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وجار شُدَّت يساره إلى يمناه ثم ألقي في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة سنة».

وقال أيضًا: «إذا كان يوم القيامة أُتي بالوالي فيوقف على جسر فيأمر الله الجسر فينتفض انتفاضة يزول كل عظم من مكانه، فيأمر الله العظام أن ترجع إلى مكانها ثم يسأله، فإن كان مطيعًا أخذ بيده فأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان عاصيًا خُرِقَ به الجسر يهوي به في جهنم مقدار سبعين خريفًا».

وقال أيضا: «ستة لعنتهم ولعنهم الله، وكل نبي مجاب الدعوة، المكذب بقدرة الله، والزائد في كتاب الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والمسلط بالجبروت ليعز ما أذل الله ويذل ما أعظم الله، والمستحل لحرم الله والتارك لسنّتي».

وقال أيضًا: «ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبَّه الله في النار». وقال أيضًا: «أهل الجور وأعوانهم في النار».

وقال أيضًا: «أشهد الله على الوالي من بعدي لمّا رق على جماعة المسلمين، ورحم صغيرهم وأجلّ كبيرهم، وأعطى عمالهم لا يضرهم فيخذلهم، ولا يحصرهم فيقطع نسلهم، ولا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ألا هَلْ بلَّغت، اللهم اشهد». وقال أيضًا:

«إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وقال أيضًا: «عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها، وجور ساعة أشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة».

وقال أيضًا: «السلطان ظل الله في أرضه فمن غشه ضل ومن نصحه اهتدى» ولذلك بذلت لكم النصيحة، وبلغتكم ما جاء عن رسول الله ﷺ من أحاديث النصيحة، فأقيموا السلطنة بعدلها، وأدُّوا الأمانة إلى أهلها. ومما ينص عليكم بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق، وحكم عليه القاضي محمد بن عبد الكريم بأنه باقٍ في رقه، وأمر بأن يسلم إلى مستحقه، فأعنتم بعد على الباطل وجعلتم حكم الشرع كالعاطل، فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة. ولا يحول بين السيد وعبده إلا أن يكاتبه أو يعتقه، وقد بلغني أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب ورجع إلى الله وأناب، هذا هو الذي يعتقه في المآب.

وبلغني من أهل «غوبر» أن منهم من إذا مرض ذبح عبدًا له أو أمة، ويزعم أن ذلك يفديه من الموت فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه، وهذا ما يسوله الشيطان ويزينه من العدوان، ومما يؤول به صاحبه إلى الكفران، فيعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله.

وليس هو يبلغ بذلك مناه وسؤله، ولو أعتقه لكان أقرب إلى الفداء بعيدًا عن الاعتداء. فمن عرض له أمر فليعرضه على حملة الشريعة، ويسأل عالمًا يوثق بعلمه ويجب عليه أن تطيعه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٨١]. لقد أثبتنا هذه النصوص الناطقة برسوخ قِدَم الدين ودولته، وسمو مكانة العلم والعلماء في هذه البلاد قبل هجوم المستعمرين عليها، فجعلوا يحاربون الإسلام ودولته والعربية وثقافتها بكل سلاح وعتاد.

من هو المغيلي؟

هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، وهو من أعلام الإسلام في القرن التاسع الهجري. كتب عنه صاحب «البستان في ذكر علماء تلمسان»، وأحمد بابا في «تطريز الديباج» وذلك أنه من علماء تلمسان، وقد خرج منها لواقعة حدثت بينه وبين اليهود هناك، وارتحل إلى بلاد السودان ودخل مدينة «تكدة» ومكث فيها، وأخذ عنه علماؤها ثم جاء إلى مدينة «كاشنة» واجتمع بسلطانها وانتفع به أهلها، ثم جاء إلى مدينة «كنو» وتولى القضاء والإفتاء بها، وأخذ عنه علماؤها، ونزل ضيفًا على أسكيا محمد وكتب له فتاوى دينية ووصايا سياسية. وقد اجتمع هو بالإمام السيوطي في بلاد السودان في «كاشنة» أو في «تكدة» أو في «تمبكتو» وجرى بينهما مناظرة في تحريم المنطق من جانب السيوطي،

وفي تحليله من جانب المغيلي. وسنوردها هنا للتسجيل نقلاً عن «تطريز الديباج».
توفي المغيلي في مدينة «توات» سنة ٩٠٩ هـ، رحمة الله عليه.

ومن هو السيوطي؟

أما الإمام السيوطي فهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ولد في مصر٨٤٥، وطلب العلم بها، ثم ارتحل لطلبه إلى الحجاز والشام واليمن والهند والمغرب والتكرور، كما كتب عن نفسه في: «حسن المحاضرة»، ويقال إنه مكث في كاشنة وأكدز وكنو ثم رجع إلى مصر وتصدر للتدريس بها من ٨٧٦ حتى توفي ٩١١ هـ، وقد ترك ما يزيد عن ستمائة كتاب في مختلف الفنون.

يقول المغيلي:

سَمِعْتُ بأمْرها سَـــمعت بمِثْله وكلُّ حَديث حُكْمه حُكْم أَصْله
أَيمكِن أَنَّ المـــــرء في العِلْم حُجَّة ويَنْهى عن الفُرقَان في بَعْض قَوْله
هل المنْطِــق المعنيّ إلا عبـــــارة عن الحَق أو تحقيقه حِين جَهْله
مَعَانيــــــه في كُلِّ الكَلام فَهْل تَرى دَليلاً صَحــيحًا لا يُــردُّ لشَكْله
أَرنــــــي هَــدَاك الله مِنْه قَضِيَّةً عَلى غــيرَ هذا تَنْفِها عَن مَحلِّه
ودَعْ عنك ما أبدى كَفُور وذمَّهُ رِجـــــال وإن أَثْبَت صِحَّة نَقْله
خذ الحقَّ حتى من كَفُورٍ ولا تُقِم دَليــــلاً على شَخْص بمذهب مثله
عَرفْنَاهم بالحق لا العكس فاستَبِن بِه لا بِهِــم إذْ هُمْ هُدَاةً لأجْله
لئن صَحَّ عَنهُم ما ذكَرْت فَكَمْ هُمُ وكم عالمٍ بالشَّـــرع باحَ بِفَضْلِه

فأجابه السيوطي بقوله:

عَجِبت لنظمٍ ما سَمِعْتُ بمثْلِه أَتَاني عَنْ حَبْرٍ أُقِرُّ بنُبْلِه
تَعجَّب مني حين أَلَّفْت مُبْدعًا كَتابًا جموعًا فيه جَمٌّ بنقله
أُقَرِّر فيه النَّهي عن عِلْم منطِقٍ وما قَاله مَن قَال من ذَمٍّ شكله
وسماه بالفرقـــان يا ليت لم يَقُل فذا وَصْف قـــرآنٍ كريمٍ لفَضْله
وقد قَال محتجًّـــا بغــــير رِواية مَقَالاً عجيبًا نائيًا عن مَحله
ودَعْ عنك ما أَبدى كَفُور وبعْدَ ذا خُذ الحقَّ من كَفُــورٍ بخَتْلِه
وقد جاءت الآثار في ذَمّ من حَوى علوم يهودٍ أو نَصارى لأَجْلِه
يجـــوز بــه علمًا لديــــه وإنه يُعَـــذَّب تعذيبًا يليقُ بفعــله
وقد مَنَع المخْتَار فَاروق صَحْبَه وقد خَطَّ لوحًا بعد تَوْراةِ أهله
وكَم جاء من نَهي اتباع لكافرٍ وإن كان ذاك الأمر حقًّا بأصله
أقمت دليــلاً بالحديث ولم أُقِمْ دليلاً على شَخصٍ بمذهب مثله
سلام على هذا الإمام فكم له لديَّ ثنـــاء واعــتراف بفضله

الشيخ عثمان بن فودي الفلاني

عالم وفقيه، وواعظ ومربٍّ، ومصلح وزعيم، وقائد وأمير، وحاكم وإمام، بل هو أمة وحده.

الفلانيون ومبدأ ظهورهم

للمؤرخين في أصل الفلانيين أقوال، منها أنهم من الفرس نزحوا من آسيا، ومنها أنهم من اليهود، ومنها أنهم من الروم والعرب وهذا القول الأخير منسوب إلى آل فودي وقد نقله الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بللو عن أجدادهم وعلمائهم الثقات؛ حيث قالوا إن الجد الأعلى للفلان عربي، هو عقبة بن نافع الصحابي، وإن الأم العليا لهم رومية تدعى بج مغ، وهي بنت ملك لإحدى قبائل الروم، تزوجها عقبة وأنجبت له أربعة أولاد صاروا فيما بعد آباء القبائل الفلانية بأسرها، في بلاد ونغارة وغانة ومالي وتكرور وسنغي، وبلاد هوسا وبرنو.

وقد ذكر الشيخ محمد بللو في «إنفاق الميسور» أن قبائل الفلان افترقوا ثلاث فرق[1] لبعض وقائع حدثت هناك في القرن الثالث عشر الميلادي.

دخلت فرقة في بلاد فوتاتور، وفرقة أخرى في فوتاجالو وسكنوا هناك،

---

(١) «إنفاق الميسور» ص٢٢٦.

وفرقة عزموا على أن يسيروا إلى الشرق ليدخلوا مع قبائل آبائهم العرب فمضوا حتى وصلوا إلى هذه البلاد وأقاموا، واستمر بعضهم حتى وصلوا إلى بلاد العرب واندمجوا.

أما الذين تأخروا في بلاد هوسا وانتشروا في أرجائها فهم قسمان:

قسمٌ بدويون يشتغلون بتربية المواشي والزراعة ولهم قطعان من الأبقار والأغنام، وهم دائمًا شبه رحل ينتقلون من مكان إلى مكان في طلب أطيب المراعي لمواشيهم ويسمون برورو.

وقسمٌ حضريون تصاهروا مع السكان الأصليين في البلاد، ولكنهم رغم ذلك محتفظون بميزاتهم وعصبيتهم وعقيدتهم وتقاليدهم كعادة اليهود.

ومن هؤلاء من يتعاطون التجارة والصناعة وأكثرهم يشتغلون بالتعليم إلى أقصى حد حتى ظهر منهم العلماء الفحول في الفقه والأدب والاجتماع والدين. وللعلماء في قلوب عوامهم مكان مرموق، ولهم قول مسموع، ورأي متبوع، في المنشط والمكره، على أن تمسكهم بدينهم وحرصهم على إحياء معالمه وثقافته ليدل دلالة واضحة على أن عرق الإسلام والعروبة فيهم دسَّاس.

ومن الغريب أن يخلو منهم قطر من أقطار غرب إفريقيا ولا بلد من بلدانها، وأن يتوزعوا في كل إقليم من أقاليم كنو وكاشنة وبرنو وزكزك وغوبر، كأنما تواصوا

بذلك فيما بينهم منذ مئات السنين قبل ولادة ابن فودي الذي نظم صفوفهم وقاد جنودهم إلى النصر وأسس بهم دولة إسلامية سجلها التاريخ وسمع بها العالم كله.

نسب الشيخ عثمان بن فودي

عثمان بن محمد فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثنبو بن أيوب بن ماسران بن أيوب بن بابا بن موسى جكولو الذي هاجر بجماعته من بلاد فوتاتور على قصد الهجرة إلى الحجاز وتأخر مع طائفته في بلاد هوسا واختلطوا بأهلها حتى وُلِد فيهم باعث دولتهم فيها «عثمان بن فودي»، فاستمر الباقون في هجرتهم حتى وصلوا إلى دارفور وسنار، وألقوا بها عصا الترحال.

مولده ونشأته

ولد الشيخ عثمان بأرض غوبر حوالي ١١٦٩هـ/ ١٧٤٤م، ونشأ في حجر والديه الصالحين وكان لهما فضل توجيهه إلى الدين والعلم والعبادة.

ولقد أولع بها مذ أن ناهز البلوغ وفتح الله عليه الفتوحات الغيبية، ونور قلبه بالإيمان، فشاهد عجائب ملكوت السماوات والأرض، فجذبه الله إلى حضرته وعممه بعمامة الولاية، وكساه بجلباب الكرامة، فصار من أوليائه الكبار.

مشايخه وطلبه للعلم

أخذ مبادئ العلم عن والده محمد فودي، ومعناه بالفلانية الفقيه، وعن والدته حواء وجَدّته رقية، ثم أخذ عن الشيخ عثمان بندور الكبوي، وأخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، وسمع الفقه من محمد ثنبو بن عبد الله، والتفسير من الشيخ أحمد بن محمد بن هاشم الزنفري، وأخذ الصحاح الست عن الحاج محمد بن راجي، وعن الشيخ جبريل بن عمر ولازمه مدة في بلاد آهير واستفاد منه. وهكذا أخذ من مختلف الشيوخ وكلهم علماء بلاده من الفلانيين والهوساويين والبرناويين وليس من بينهم عربي والود، وذلك من فضل الله على أهل السودان في العلم والإسلام.

شخصية عثمان بن فودي

لقد اجتمع في شخصية ابن فودي عدة صفات لم تتفق ولم تجتمع لكثير من العلماء قبله ولا بعده في بلاد السودان وفي بلاد العربان فيما نعلم ذلك؛ لأنه أول داعية في إفريقيا، قام بتغيير المنكر ثم بالقلب وباللسان ثم باليد ثم بجمع الجنود وتشهير السلاح ثم بإقامة دولة تحكم بكتاب الله وسنة رسوله على نمط الحكومات الإسلامية الأولى في صدر الإسلام.

لم يشترك ابن فودي مع أمير أو ملك أو سلطان في تأسيس هذه الدولة كما فعل الشيخ عبد الله بن ياسين الذي استعان بالأمير يحيى بن إبراهيم وأبي بكر

بن عمر في تأسيس دولة المرابطين، أو كما استعان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالأمير السعودي في تأسيس الدولة السعودية.

ولم ينتحل دعوى الفاطمية ولا المهدوية كما فعل محمد بن تومرت في تأسيس دولة الموحدين بالمغرب، أو كما فعل أحمد المهدي في تأسيس دولة الدراويش في السودان المصري.

ولقد شارك ابن فودي العلماء والفقهاء في إقامة قومهم بأقلامهم، وأخرج لهم عدة كتب في مختلف الفنون الدينية والسياسية والثقافية، ونجب على يديه أكثر من مائة عالم فقيه، ممن بلغوا رتبة الاجتهاد المذهبي في الفقه المالكي.

ثم شارك ابن فودي الصوفيين في تهذيب أخلاق المسلمين، وسلك مسلك أهل الطرق الصوفية في تربية النفوس بالأذكار والأوراد، وأنشأ طريقة منسوبة إليه باسم الطريقة الفودوية وهي فرع من القادرية.

وحيث كان ابن فودي نفسه قادريًّا في الأصل، وسلسلته في القادرية متصلة بالشيخ محمد المختار الكنتي في ورد أهل البيت، وهي المنتشرة في هذه البلاد قبل ظهور السلسلة السمانية المشرقية المنتشرة الآن.

ثم شارك ابن فودي المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم، فحمل السلاح وقاد الجنود وقاتل حتى جعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى،

وأسس دولة إسلامية اكتسحت جميع البلاد المعروفة اليوم بالولايات الشمالية من بلاد نيجيريا، تشمل ما لا يقل عن ثلاثين مليون نسمة، خمسة وعشرون منهم مسلمون.

وجملة القول أن ابن فودي عالم وفقيه وواعظ ومربٍّ ومصلح وزعيم وقائد وأمير وحاكم وإمام، بل هو أمة واحدة.

ليس على الله بمُسْتَنْكَر أن يجمع العَالم في وَاحِد

ابن فودي الأشعري في عقيدته

كان الشيخ عثمان بن فودي أشعريًّا كسائر علمائه، وله كتيب صغير يقول فيه:

«أما بعد فهذا كتاب أصول الدين نافع إن شاء الله تعالى لمن عول عليه وبالله التوفيق:

العالم كله من عرشه إلى فرشه حادث وصانعه الله تعالى، وهو تعالى واجب الوجود قديم لا أول له، باقٍ لا آخر له، مخالف للحوادث، ما هو بجرم ولا صفة للجرم، ولا جهة له ولا مكان له، بل هو كما كان في الأزل قبل العالم غني عن المحل، والمخصص واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، قادر بقدرة مريدًا بإرادة، عالم بعلم، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مختار في فعله

وتركه، والكمال الإلهي كله واجب له، والنقص الذي هو ضد الكمال الإلهي كله مستحيل عليه.

ورسله كلهم من آدم إلى محمد ﷺ صادقون أمناء مبلغون ما أمروا بإبلاغه للخلق، والكمال البشري كله واجب لهم، والنقص البشري كله مستحيل عليهم.

ويجوز في حقهم الأكل والشرب والنكاح والبيع والشراء والمرض الذي لا يؤدي إلى النقص.

والملائكة كلهم معصومون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، نورانيون ليسوا بذكور ولا إناث ولا يأكلون ولا يشربون.

والكتب السماوية كلها حق، والموت بالأجل حق، وسؤال منكر ونكير للمقبور وغيره حق، وعذاب القبر حق، ونعيمه حق، ويوم القيامة حق، وبعث الأموات في ذلك اليوم حق، وجمع الناس في ذلك اليوم في مكان واحد حق، وإيتاء الكتب حق، والحساب حق، والصراط حق، والجنة حق، والكوثر حق، والنار حق، ودوام الجنة والنار مع أهلها حق، ورؤية المؤمنين له تعالى في الآخرة حق، وكل ما جاء به محمد ﷺ حق.

فهذه أصول الدين إلهياتها ونبوياتها وسمعياتها قد أثبتها الله في القرآن كلها، ويجب على كل مكلف أن يعتقدها كما جاءت، واعتقاد هذه الأصول

في حق العامة قائم مقام العلم في حق الخاصة لعسر وقوفهم على الأدلة. قاله عز الدين سلطان العلماء في «قواعد الأحكام في إسلام الأنام» قال: ولذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يلزم أحدًا ممن أسلم بالبحث عن ذلك، بل كان يقرهم على ما يعلم أنه لا انفكاك لهم عنه، وما زال الخلفاء الراشدون والعلماء المهتدون يقرونهم على ذلك.

ابن فودي المالكي المجتهد

لقد كتب الشيخ عثمان بن فودي رسالة سماها: «هداية الطلاب» أودع فيها آراءه في التقليد والاجتهاد، ومع ذلك فهو مجتهد في المذهب المالكي، قال في الرسالة: أما بعد، فهذا كتاب «هداية الطلاب» أودعت فيها عشرة أشياء:

أولها: أن جميع ما جاء عن الشارع عليه الصلاة والسلام لا يسمى مذهبًا لأحد بل هو شريعة تجب إجابة كل من دعا إليه.

ثانيها: أن الله تعالى لم يوجب على أحد في كتابه، ولا رسوله في سنته، التزام مذهب من مذاهب المجتهدين بخصوصه، ولم يبلغنا أن أحدًا من علماء السلف أمر أحدًا أن يتقلد بمذهب معين ولو وقع ذلك لأوقعوا في الإثم لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذي أمر باتباعه وحده.

ثالثها: هل يجب على العامي وغيره ممن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد التزام مذهب؟ قولان: الأول نعم، وصححه في: «جمع الجوامع» والثاني لا، واختاره النووي.

رابعها: هل يجوز خروجه بعد التزام مذهب معين عنه؟ قيل: نعم مطلقًا وصححه الرافعي، وقيل: لا مطلقًا لأنه التزمه، الثالث: لا يجوز في بعض المسائل.

خامسها: إن كل واحد من المجتهدين لا يُتَّبع قوله إذا خالف نص الكتاب أو نص السنة والإجماع.

سادسها: إن كل ما فهمه أصحاب كل مجتهد من كلامه لا يسمى مذهبًا له. وقد كثر تساهل الناس بعد ذلك حتى عزوا مفاهيم كلام المؤلفين والشارحين إلى مذهب ذلك المجتهد الذي قلدوه، وانحل الأمر إلى تقليد بعضهم بعضًا حتى صار كل كتاب نحو عشرين مجلدًا لا يجيء كلام المجتهد مجلدًا واحدًا من هذه المجلدات.

سابعها: يجب على كل مكلف أن يعتقد أن سائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم.

ثامنها: يجب على كل مكلف أن لا ينفر نفسه من العمل بأقوالهم، وقد صار بعض الناس اليوم إذا اضطر إلى العمل بقول غير إمامه، يقول يقلد فلانًا للضرورة، من باب الضرورات تبيح المحظورات. كأنه وقع في معصية بل فِعْله هذا هو المعصية

الكبرى فيجب عليه التوبة والاستغفار من ذلك، فإنهم لو كانوا يعتقدون أن الأئمة على هدى ما نفرت نفوسهم من العمل بأقوالهم لأن الهدى لا تنفر منه نفس من شاهده أنه هدى.

تاسعها: إن كل من ترك ما اختلف في وجوبه، أو فعل ما اختلف في تحريمه، لا ينكر عليه إن قلد بعض العلماء في ذلك، إلا أن يقلد في قول خالف نص الكتاب، أو نص السنة، أو الإجماع.

وأما إن وافق قول مجتهد أهل السنة فلا ينكر عليه، والمراد بالإنكار إنكار الحرام، ولو أنكره إنكار الإرشاد أو أمر به أمر النصح والإرشاد فذلك نصح وإحسان. وهذا كله في باب الحكم والعمل.

وأما في باب الفتوى فينكر عليه إذا أفتى بالشاذ والمرجوح؛ لأن الفتوى بهما لا يجوز إجماعًا بالمشهور والراجح.

عاشرها: إن من ينكر عليه إنكار الحرام هو الذي خالف نص الكتاب أو نص السنة، أو الإجماع. انتهى الكتاب.

عثمان بن فودي الصوفي المجذوب[1]

يقول السلطان بللو في كتابه «إنفاق الميسور» ما نصه: «أخبرني والدي أنه حين حصل له الجذب الإلهي ببركة الصلاة على النبي ﷺ، إذ كان يواظب

(١) المجذوب: في اصطلاح الصوفية، هو من اصطفاه الله لنفسه، وأدخله حضرة أُنسه وطهّره. (م).

عليها من غير ملل، ولا كلال ولا فَتْرَة[1]، أمده الله بفيض الأنوار بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ، وجده الرسول ﷺ، فشاهد من عجائب الملكوت، وحصل على غرائب الجبروت، وشاهد أفعال الأسماء والصفات والذات، ووقف على اللوح المحفوظ، وفك رموزه الملحوظ، وكساه الحق تعالى حلة الدعوة إليه، وتوَّجَه تاج الهداية والإرشاد إليه.

وكتب الشيخ عثمان عن نفسه في رسالة سماها: «ولما بلغت ستًّا وثلاثين» أودع فيها بيان الجذب الإلهي الذي حصل له، وبيان تلقينه الورد الخاص به، وهو أن يقال: الحمد لله رب العالمين عشر مرات، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عشر مرات، أستغفر الله العظيم عشر مرات. بذكر هذا الورد مرة واحدة في اليوم.

وهو ورد خفيف وقصير لا يأخذ الوقت الطويل الثقيل، يستطيع الإنسان أن يذكره على حالة الاستعجال فيحصل له الفضل الكبير والأجر الجزيل.

بين ابن فودي وابن عبد الوهاب

افترض الإفرنج وبعض من نقلوا عنهم أن ابن فودي حج إلى بيت الله الحرام واجتمع بعلماء الدعوة الوهابية وتأثروا بها، ولما رجع إلى بلاده قام بإصلاحه وجهاده. وذلك الافتراض مبني على الظن والتخمين، لا أساس له في حياة ابن

---

(١) فَتْرَة: ضعف وفتور. (م).

فودي كلها، ولا علاقة بين دعوة ابن فودي ودعوة ابن عبد الوهاب من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول

إن الدعوة الوهابية إنما قامت أول قيامها في بلاد نجد ١١٥٣هـ، ولم تنتشر في الحجاز انتشارًا يجعلها مقبولة أو معروفة في العالم الإسلامي قبل قيام دعوة ابن فودي التي قامت ١١٨٠هـ.

ولم تعرف الدعوة الوهابية في مكة المكرمة إلا في ١٢١٨هـ، وقد بلغت في هذا التاريخ دعوة ابن فودي ذروتها وبدأ في الجهاد مع ملوك هوسا.

أما دعوة ابن عبد الوهاب فلم تلق ترحيبًا لدى علماء الحرمين حتى ينقلها الحجاج، بل دامت مقاومتهم لها إلى حين أن ألّف مفتي مكة الأكبر الشيخ أحمد زيني دحلان المتوفى ١٣٠٤هـ مختارًا في الرد على الوهابية سارت به الركبان إلى مختلف البلدان.

وهكذا لقيت الدعوة الوهابية مقاومة السلطان محمود الثاني الذي أصدر أمره إلى محمد علي والي مصر أن يكسر شوكة الوهابيين السعوديين، فتغلب الجيش المصري التركي على الجيش السعودي الوهابي، وأسروا أميرهم عبد الله بن سعود وأرسلوه إلى الآستانة واحتلوا عاصمتهم الدرعية وخربوها ١٢٣٣هـ. وذلك بعد وفاة ابن فودي بسنة، وبقوا هناك خمس سنين ثم استردها الوهابيون

السعوديون، ولكن لم تستقر دعوتهم في أرجاء مكة والمدينة لبقائها تحت حكم الأشراف ومقاومة العلماء. ولم تستقر الدعوة الوهابية في الحجاز إلا بعد استيلاء الملك عبد العزيز على مكة عام ١٩٢٥م.

الوجه الثاني

أنه لم يكتب الله لابن فودي حجًّا ولا عمرة، ولم يخرج مطلقًا من حدود بلاده إلى بلاد العرب. ولو أنه حج أو زار بلدًا من بلاد العرب لكتب ذلك في مؤلفاته أو لَكَتَبَه عنه تلاميذه الذين سجلوا حياته والحوادث التي تعلقت بها من صغيرة وكبيرة. لقد حاول عبد الله بن فودي أخو عثمان أن يخرج إلى الحج، ولكن حيل دون قصده عندما وصل إلى مدينة «كنو»، ثم رجع إلى الجماعة وانضم إلى الموكب، انظر «ضياء الحكام وتزيين الورقات» لعبد الله بن فودي.

الوجه الثالث

أنه يختلف مذهب ابن عبد الوهاب عن مذهب ابن فودي في أصول دعوتهما لأربعة أسباب:

الأول: ابن فودي مالكي المذهب، أشعري العقيدة، قادري الطريقة. وابن عبد الوهاب حنبلي سلفي - والسلفيون غالبًا حنابلة - ولا طريقة لهم.

الثاني: لم يَرِد ذكر محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات ابن فودي وأخيه وابنه ولا أحد من تلاميذهم، وذلك مما يدل على أنهم لم يتصلوا بدعوته، ولو اتصلوا بها لذكروها في أشعارهم ومؤلفاتهم، كما يذكرون أسماء المشايخ الذين نقلوا عنهم، كابن الحاج والأزرق والسيوطي، وقلما ذكروا ابن تيمية في مؤلفاتهم. ولقد ذكروا من تشرفوا بلقائهم، أو سماع أخبارهم من العرب كالشيخ محمد المختار الكنتي وغيره.

الثالث: كان ابن فودي يعتقد في التوسل بالنبي ﷺ والولي. وله في قصائده توسلات كثيرة جدًّا بالنبي ﷺ والصحابة والأولياء. وقد عرَّب أخوه عبد الله قصيدة أعجمية نظمها في التوسل بالشيخ عبد القادر، وهي في نحو أربعين بيتًا جاء فيها:

يا رب عــــالم باطنٍ كالظّـــاهر ... أَجِب الذي يدعو بعبد القـــادر
بَرَكات أَحْمد في بِـــــلاد الله قد ... عَمَّت وجمَّت عند عبد القـــادر
يـــــا رب يا مُتَفَضِّلاً لعـــباده ... صِلْني بفَضْلك عند عبد القـــادر
إن المُسيء لدى الأكَابر يَلْتَجي ... فَلَجَأْتُ عند الشيخ عبد القـــادر
ما كنت أهلاً إن أَجَاب أَجِبْ لكوْ ... نِ وســيلتي درجات عبد القـــادر
عَرَّبَتُ ما لأخي وشَيْخِي عُجْمَة ... متوسِّـــلين معًا بعبد القـــادر

والغرض من إثبات المقارنة بين أساس الدعوتين هو إثبات القول بأن دعوة ابن فودي متأثرة إلى حد بعيد بالنزعة الصوفية وبالعلماء المغاربة والسودانيين، وإنها قائمة بذاتها، لا متفرعة عن غيرها، ولا معتمدة على غيرها، ثم الإثبات بأن رسالة الإسلام وثقافته بضاعة عالمية يقوم بحملها الأسود والأحمر، كما يقوم بذلك الأبيض والأسمر.

وإن العربية، كما قال النبي ﷺ، ليست من أحد بأب ولا بأم، وإنما هي لسان، وكل من تكلم بالعربية فهو عربي. وقد حقق ابن خلدون ما للعجم من فضائل جمة على الإسلام والعربية من الصدر الأول للإسلام إلى يومنا هذا. وليس ببعيد عنا السيد جمال الأفغاني نافخ روح النهضة الحديثة في نفوس العرب، والسيد أبو الحسن الندوي الكاتب الإسلامي الكبير في هذا العصر، وأمثالهم الكثيرون..

وضع البلاد قبل قيام ابن فودي للإرشاد

كانت هذه البلاد منذ طلوع فجر الإسلام فيها تتأرجح بين ظلمة الكفر، ونور الإيمان، وكان الإسلام فيها يتقلب بين كفتي النقصان والرجحان، ويتراوح بين الانتشار والانحسار، هكذا يتقلب حتى العصر الذي ولد فيه ابن فودي.

وقد بلغ الفساد غايته، وكادت آثار الإسلام تمحى، وقد ارتد أكثر المسلمين بأفعالهم، وإن كانوا يدينون بالإسلام بلسانهم.

وعبد الآخرون الأحجار، والأشجار، والأنهار، وصاروا يرجونها لدفع الشر وجلب الخير، وتعالى الملوك والسلاطين في الجور والطغيان. وركن العلماء إلى الراحة والدعة، وتهادنوا مع الطغاة الجبابرة.

وفي هذا الوسط المتكدر، وهذا الجو المكفهر ولد الشيخ عثمان بن فودي من أسرة مؤمنة، وتربى على أيدي علماء صالحين، وتثقف بهم في الدين والعلم والعمل والصلاح والورع، ولما بلغ مبلغ الرجال العاملين المجاهدين في سبيل الله أدرك أهل زمانه على خمسة أقسام:

القسم الأول: كفار بالأصالة يعبدون الأشجار والأنهار والجان والشياطين ولم يرتضوا بشيء غير الكفر بديلاً.

والقسم الثاني: مرتدون عن الإسلام من جراء اختلاطهم بالكفار، ويسمون «ماغنوا».

والقسم الثالث: مسلمون يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون ويزكون، ولكنهم جهلاء يأتون بالعبادات على غير استكمال شروطها، ثم يخلطون عباداتهم بالبدع والعادات الكفرية والرواسب الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم أو أحدثوها من أنفسهم.

والقسم الرابع: العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا واستمالوا لزخارفها، وتهادنوا مع الملوك الظالمين، وسكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد لقي ابن فودي من هؤلاء أذى وجفاء، ومثلهم كمثل ما ذكر محمد أسكيا للشيخ المغيلي عند استفتائه وقال:

«... وقد ابتلينا في بلادنا بعدم الأمانة فيمن ينسب له العلم من قرائنا، ومن صفتهم أنهم عجم لا يفهمون من كلام العربية إلا قليلاً، ومع ذلك لهم كتب يُدَرَّسون وقضاة مفسدون، يتكلمون في دين الله بما يشاؤون ويزعمون أنهم ورثة الأنبياء، وإنه يجب علينا الاقتداء بهم».

والقسم الخامس: العلماء الصالحون العاملون، والذين يقتدون بهم من تلامذتهم مِنْ الذين يعملون على نشر الهداية والحق. ومن هؤلاء كان مشايخ ابن فودي الذين ربوه وعلموه حتى أنجبوه هو وأصحابه الذين نصروه في دعوته.

منهج ابن فودي في الدعوة

كان له مجلسان: أحدهما للتدريس والآخر للوعظ والإرشاد.

أما تدريسه فكان يخرج بعد صلاة العصر والعشاء للتدريس، يفسر القرآن ويدرِّس الحديث والفقه والتصوف وسائر العلوم الأخرى.

أما وعظه فكان يخرج له ليلة كل جمعة، ويعظ الناس فيها، وكان يحضر مجلس وعظه خلق كثير، رجالاً ونساء.

وكان يخرج إلى الآفاق القريبة والبلدان المجاورة للإفادة والوعظ أيامًا ثم يرجع إلى بلده. وكان منهج وعظه على خمسة أقسام:

الأول: فيما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة.

الثاني: في البحث على اتباع سنة رسوله.

الثالث: في ردّ أوهام الطلبة في التوحيد والفقه والتصرف إلى الصواب.

الرابع: في إخماد البدع الشيطانية وردّ العادات الرديئة.

الخامس: في بث العلوم الشرعية، وتحرير المشكلات، والإفادة بالغرائب والنوادر في العلوم.

وكان إذا جلس لوعظه بدأ يحدث الناس في فن أصول الدين ثم في فن الفقه.

يبدأ من باب الاستنجاء، ثم الوضوء وصفته، ثم الغسل والتيمم والصلاة وقضاء ما فات من الصلاة، ثم سجود السهو، ثم في الزكاة، والصيام، والحج، والزكاة، واليمين، ثم النذر، ثم النكاح، ثم البيع.

ثم يذكّر الناس في فن التصوف، ويذكرهم بآيات الترهيب وذكر النار ثم بآيات الترغيب وصفات الجنة.

وكان يقرأ كل ذلك من تأليفه أو مؤلفات أخرى، ويترجم ذلك إلى لغة الحاضرين، وإذا أتم ذلك كله انصرف من مجلسه.

صار للشيخ عثمان صيت عظيم في الآفاق بوعظه ودروسه، وصار يقصده الأقربون، ويكاتبه الأبعدون، وتكونت من المستمعين لوعظه هيئة منتظمة سماهم الجماعة، وهم الذين صاروا له أنصارًا في دعوته الإصلاحية.

ولما علم الشيخ بأن بلاد «زنفر» تحتاج إلى مرشد يأخذ بأيدي أهلها توجه إليها وأقام فيها خمسة أعوام، ثم جال في أطراف بلاد «كبي» حتى جاوز نهر النيجر إلى ناحية الجنوب، ودخل بلاد الدند ومكث في بعض عواصمها فتاب على يديه خلق كثير ثم عاد إلى وطنه.

وكان الشيخ ابن فودي في المبدأ لا يتصل بالملوك والأمراء ولا يزورهم، كما يزورهم العلماء في الأعياد والمواسم. ولكن ملك «غوبر» لما سمع بأمره وكثرة جماعته أرسل إليه يستحضره مع جملة من العلماء، ولما رأى ابن فودي أن لا بد من المسير إليه ليتم بذلك عمله وتَتَقَوَّى دعوته ويتحقق ما يدعو له، أجاب دعوة الملك المسمى «بساو» ملك «غوبر». ولما حضر بين يديه قام وشرح له الإسلام الصحيح، وطلب إليه الرجوع إلى إحياء معالم الإسلام وإقامة العدل بين الرعية

وتطبيق الأحكام الشرعية، فكان من توفيق الله أن أجابه الملك بالسمع والطاعة وأسند إليه الفتوى في مجلسه. فصار ابن فودي المرجع الوحيد للملك من بين أولئك العلماء فأخذ هؤلاء يحسدونه على هذا الشرف ويعيرونه في اتصاله بهذا الملك، وصاروا يرمونه بطلب الجاه وحب الرئاسة والرياء وينسبونه إلى الهوى، وتجنّى عليه بعض العلماء وتطلّبوا له المثالب والمعايب في أفعاله وأقواله، وجعلوا ينكرون عليه بعض تصرفاته. من ذلك ما كتب إليه الشيخ الماهر الذي استنكر عليه حضور النساء لوعظه، يقول:

عليك منَّا تحيات مُبَاركة شَمَمَن مِسْكًا وسكا مَنْ يُلاقُونا
أَيا ابن فودي قُمْ فأنْذِر أُولي الجَهْلا لعلَّهم يَفْقَهون الدِّين والدُّونا
فَامْنَع زِيَارة نِسْوَان لوَعْظِك إذ خَالَطَ الرِّجَال بِنسْوَان كَفى شِينَا
لا تَفْعَلَن ما يُؤَدِّي للمَعَايب إذ لَمْ يَأْمُر الله عَيْبًا كَان يُؤْذِينا
إِنَّ المَمَات ومَا بَعْدَ المَمَات وجَهْلاً بالعَوَاقب وَعْظ كَان يَكْفينا
وأبيت المصْطَفَى بج يُتَمِّمُها في عَامِ رش مَعَ زيد العد يُغْنِينَا

ولما تلقى الشيخ هذه الرسالة أمر أخاه عبد الله أن يرد عليها، فجاء الرد على مثل بحرها ورويّها كالآتي:

يَا أَيُّها ذا الذي قَدْ جَاء يُرْشِدُنا سمعًا لما قُلْتَ فاسمع أَنْت مَا قُلْنا
نَصَحْت جهدك لكن ليت تعذرنا وقلت سُبْحَان هذا كان بُهْتَانا
إن الشَّيَاطين إن جَاءوا لمجْلِسنَا هُمْ مَن يَبثّون سُوء القَوْل طُغْيانا
لَسْنَا نُخَالط بالنّسوان كَيْف وذَا كُنَّا نُحـــذّر لَكنْ قلت سلمنا
إن كَان ذاك ولَكِن لا أُسَلم أن يتركن بالجَهْل هَمْلاً كان يُؤْذينا
إِذْ ارتِكاب أَخَفّ الضّر قَد حَتَمَا يكفر الجَهْل إِن ذا كَان عِصيَانا
هَذي البِلاد وَجْدنا قَوْمَها غَرِقَوا بالجهل تَمْنَعُهُم أَن يفْقَهُوا الدّينا
قَد قِيل تَحدُث للأَقْوَام أَقْضِية بَقَدْر ما أَحْدَثوا خُذْ ذَاك مِيزَانا
الحَمْدُ لله ذي الإنْعام هَادينا ثُمَّ الصـــلاة عَلى المُخْتَار هَادينا
وآله وصحبـــه أَبياتُنـــا كَملت وعدها حب والتـــاريخ نشقنا

هذه صورة مصغّرة مما كان يجري بين ابن فودي وبين المناوئين له من علماء زمانه، غير أنه كان يرد عليهم هو بنفسه أو ينيب أخاه عبد الله أو ابنه محمد بللو، فيأتي الرد ببراهين ساطعة وحجج قاطعة، فيقتنع بعضهم للحق أو يمتنع الآخر فيركب رأسه ويتمادى في اللجاج.

هكذا صار الشيخ ابن فودي يترقى في شأنه وتزداد جماعته الذين يسمعون قوله ويطيعون أمره، حتى صار الملك يتوجس منه خيفة على عرشه.

ولم يفتر الشيخ ينصحه كلما أحس أنه يميل عن جادة الاستقامة، ولم يكن يلاطفه ويداريه كما يفعل العلماء، إلى أن فتح ذلك كله باب السعاية والوشاية بينه وبين الملك، فأفسد العلماء ذات بينهما، فصار الملك يتحين فرصة الانتقام. ولما طال عليه ذلك التجأ إلى سياسة شراء الضمائر بالأموال ليقطع به لسانه عن التصريح بالحق. فاجتمع لديه علماء أرضه يوم عيد الأضحى سنة ١٢٠٢هـ، حسب عاداتهم كل عام، فتقدم الملك إليهم بالهدايا والصدقات من الأموال والأعراض، ففرح بها العلماء ومدحوا الملك كثيرًا وأثنوا على صنعه، وخلعوا عليه جميع أوصاف العدل والاستقامة.

ولما فطن الشيخ عثمان بحقيقة الأمر وعلم أن ذلك كله أحبولة الصيد أو هو إحسان لقطع اللسان، رفض نصيبه من عطيات الملك من جميع الأموال والأعراض، وصرح بأن حاجته الوحيدة في اتصاله بالملك والدخول عليه وزيارته، إنما هي النصح والإرشاد لا غير.

وعلى هذا خرج الجميع من الملك وقد امتلأ صدره من ابن فودي حقدًا، كما امتلأ صدر العلماء منه حسدًا، ومضى الشيخ في شأنه لا يلوي على شيء من ذلك كله. ولم تزل جماعته تزداد وتتكاثر ولم تزل همته تمتد وتتضاعف.

ثم التجأ الملك إلى حيلة أخرى يشفي منه غيظه ويرتاح ضميره، ولم يجد ذلك إلا في محاولة اغتيال الشيخ على غرة من جماعته، فأرسل إلى الشيخ

يومًا يطلب حضوره إلى مدينة الملك ليفتيه في مسألة خطيرة، فذهب الشيخ ومعه صديقه عمر الكموني وأخوه عبد الله، فلما دخلوا عليه أقعدهم في إحدى غرف قصره وغافلهم حتى أطلق عليهم الرصاص فجأة وعلى غرة، ولكن الله رد كيده في نحره، فرجعت إليه النار بإذن الله فارتمى على الأرض ولم يصب مقتله. ثم دنا منهم وهو يعتذر إليهم ويستميحهم فأغلظوا له القول وخرجوا من قصره إلى بلدهم سالمين، وهم يشكرون الله على هذه الكرامة الباهرة.

وكان بالقرب من مدينة هذا الملك قرية اختطها المسلمون الفلانيون تحت زعامة رجل يدعى الشيخ عبد الله الفلاني، وهو عالم تقي وورع وواعظ مرشد وكان ينصح قومه بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه والعمل بما يدعو إليه ابن فودي.

فقام الملك بشن غاراته عليهم في حين غفلة منهم وفي نهار رمضان، فقتل علماءهم وقراءهم، ونهب أموالهم وسبى نساءهم وذراريهم، فزاد الملك ذلك تكبرًا وطغيانًا، وصار أتباعه وأنصاره يهددون جماعة الشيخ بمثل ذلك ويتوعدونهم سرًّا وجهرًا، ولكن الشيخ يطمئن جماعته بأن الله ينصرهم ولن يترهم أعمالهم. وبينما هم في هذه الحالة إذ بالملك باو يقضي نحبه ويخلفه ابنه «يُنيف»، وكان أشد بأسًا من أبيه وأكثر طغيانًا ونزوانًا.

ولم يلبث عقب توليه حتى أرسل إلى الشيخ عثمان يأمره بالخروج من بلده الذي كان يقيم به هو وعياله، ويبتعد عن حدود بلاده إلى بلاد أخرى من غير أن يصاحب أحدًا من جماعته غير عياله، فأخبر الشيخ عثمان الجماعة بالخبر فكان سببًا في تقوية روحهم المعنوية، فعزم الجميع على الخروج مع شيخهم فاستعدوا للهجرة، فلما سمع الملك بذلك سقط في يده وطلب إليهم جميعًا ملازمة مكانهم فامتنعوا.

هجرته ومبدأ دولته

هاجر الشيخ وجماعته من قرية طغل عام شريح ١٢١٨هـ. ونزلوا بأطراف الصحراء على حدود بلاد غوبر بالمكان المسمى قدو، وهم يبلغون خمسة آلاف نسمة.

فقام الفقيه الشيخ أغال التاركي يحرض المؤمنين في جميع أنحاء تلك البلاد على الهجرة إلى مكان الشيخ، ودعا إخوانه من التوارك إلى معاونة الشيخ وحمايته من كل ما يتوقع من أعداء الله.

وكذلك قام الشيخ محمود غردم والشيخ علي جيد الذي صار فيما بعد قائدًا عظيمًا من قواد ابن فودي الذين قاموا لنصرته.

فتتابعت أمواج الهجرة إلى مكان الشيخ حتى كثر المهاجرون فبلغوا نحو عشرة آلاف، فجعل أهل غوبر يقطعون الطريق على المهاجرين وينهبون أموالهم.

ثم كتب الملك إلى الشيخ يطلب منه الرجوع إلى مكانه الأول، فرد عليه الشيخ بالرفض حتى يتوب من ذنوبه ويرجع إلى الإسلام الصحيح ويرد جميع ما سلب أتباعه من الجماعة من أموالهم.

فيستفتي الملك علماءه فقالوا له مثل ما قالت اليهود لكفار قريش في أمر النبي ﷺ، إن الملك على الحق وابن فودي وجماعته على الباطل، فازداد الملك بذلك تكبرًا وطغيانًا، ثم أرسل إلى ابن فودي يعلن عليه الحرب لاستئصال شأفته هو وجماعته. فلما بلغ الخبر إلى الجماعة ضاقت عليهم الأرض برحبها، ثم رأوا أن لا بد من مقاومة هذه الحالة، فاتفقوا على مبايعة الشيخ على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله. ولقد كان ابن فودي إمامهم ومعلمهم ومرشدهم، فليكن من الآن قائدهم وأميرهم، وعزموا على ذلك وتوكلوا على الله.

يرى القارئ المنصف من سرد هذه الأسباب والحوادث أن ابن فودي وجماعته إنما اضطروا إلى ما صاروا إليه من أمر الدولة، فكان على وفق إرادة الله تعالى، كمثل قصة أبينا آدم في هبوطه إلى الدنيا من جراء أكله من الشجرة التي نهى الله عنها ليتم سكنى الأرض وعمارة البلاد، أو كمثل هجرة النبي من مكة المكرمة بدينه إلى المدينة المنورة لإقامة دولة الإسلام فيها.

تمام البيعة وقيام الدولة

أول من بايع ابن فودي أخوه عبد الله ثم صديقه عمر الكموني ثم ابنه محمد بللو ثم سائر العلماء والأعيان من أصحابه وتلاميذه.

ولقد بايعوه على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، والسمع له والطاعة في المنشط والمكره وكان ذلك عام ١٢١٨هـ ١٨٠٤م.

وبعد تمام البيعة عمد إلى تشكيل الدولة على النظام الإسلامي، فاختار أخاه عبد الله وزيره الأول، وصديقه عمر الكموني وزيره الثاني، وصديقه محمد ثنبو بن عبد الرحمن إمامهم في الصلاة وقاضيهم في الخصومات، وجعل محمد بن الحسن الملقب سعدار صاحب اللواء وقائد الجيوش وهكذا..

فتم بذلك تشكيل الدولة الإسلامية العظيمة التي تنفذ أوامر الله ورسوله وتحافظ على حدودهما وتحمي ذمار المسلمين وتدافع عن أرواحهم وأموالهم.

فاطمأنت نفوس الجماعة للعبادة فانشرحت صدورهم للجهاد وأعدوا لذلك كل قوة ورباط، وبنوا على مكانهم حصنًا حصينًا وحفروا حول الحصن خندقًا عميقًا.

فجمع ملك غوبر أوباشًا من النوبة والتوارك والهوسا فأقبل بجنوده للهجوم عليهم في مكانهم.

فزحف إليهم المسلمون للدفاع عن أنفسهم، فقاد الشيخ عبد الله هذا الجيش فالتقى الجيشان في مكان اسمه كوتو، فهزم الله جيوش يُنيف بأيدي المؤمنين فغنموا أموالهم وأسلحتهم، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله قصيدة جاء فيها:

بَدَأْتُ بِبِســـم الله والشُّكر يتبَعُ   على قَمْع كُفَـــارٍ علينا تَجمّعوا
ليستَأْصِلُوا الإسلام والمسلمين من   بِلادهم والله في الفَضْل أوسع
تَـــوارك مع غوبر ويُنْفَ سفيههم   يخرِّبهـــم والله يَرى ويَسْمع
فقلت وفَأْلي مِثْـــلَ أَمر محقّق   لـــدى سينفى يُنْف بالذّلّ يَرجع
إلى أن تَراءينـــا وزاد اقترابنا   رَمَوا فَرمَيناهُمْ فوَلّـــوا واقشعوا
فَلم يَكُ إلا أن رَأَيتُ جَهامهم   قدانكشفت عن شَمْسِ الإسلام تَلْمَع
بِنَصْر الذي نَصَر النّبي عَلى العِدَى   بَبَــدر يجمـــع ململائك[1] يجمع
فيا أُمّة الإسلام جِدّوا وجَاهِدوا   ولا تَهِنُوا فالصَّبر للنّصر مَرْجِع
فَقَتْـــلاكُم في جنَّة الخُلْد دائمًا   ورَاجِعُكم بالعـــزّ والمال يرجع
فقد تَمَّ وعْـــدُ الله في نصر دينه   ولم يَبْقَ إلا شُـــكره والتّضَرّع

فشاع خبر هزيمة غوبر بين ملوك هوسا السبع «ملوك هابي» فنكسوا على رؤوسهم وأوجسوا على أنفسهم خيفة مما لاقاه أحد حلفائهم من أيدي الفلانيين تحت إمرتهم، فبعث إليهم ملك غوبر «ينف» رسولاً يستنجدهم ويستحثهم على

(١) قوله «ململائك» نحت وأصله من «الملائك».

ابن فودي وجماعته، وعلى سائر الفلانيين المتوزعين في تلك الرقاع الواسعة من البلاد.

فلما بلغ ابن فودي الخبر بعث بدوره الرسائل إلى أولئك الملوك يوضح لهم الحقيقة ويدعوهم إلى نصرة الإسلام، والتعاون على البر والتقوى فأبى أكثرهم إلا نفورًا.

فأخذ كل ملك من ملوك هوسا يضطهد كل من بناحيته من أعوان الشيخ من الهوساويين والفلانيين، بل يقتلون من قدروا عليه، فجعل هؤلاء يشكون بثهم وحزنهم إلى الله ثم يستنجدون بالشيخ. وكتب الشيخ إلى جميع أنصاره وأتباعه في كل بلدة وفي كل مدينة من بلاد هوسا ومدنها أن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم ويستعينوا بالله على أعدائهم لينصرهم الله عليهم.

أوفد كل طائفة من هؤلاء إمامهم أو قائدهم أو رئيسهم إلى ابن فودي ليبايعه ويأخذ منه لواء الجهاد في سبيل الله.

فعقد ابن فودي لهم ما يبلغ أربعة عشر لواءً مع كل قائد، وأذن لكل قائد أن يجاهد المناوئين له في ناحيته، ثم جهز جيشًا وأمَّر عليه عبد الله إلى حصن الفالاوي الذي هو أمنع حصون ملك غوبر، بل هو أمنع حصون بلاد هوسا على الإطلاق، فاستعصى عليهم فتحه فرجعوا بعد مدة، فتبعهم جيش غوبر وباغتهم في مكان يدعى ثنثو، فاستشهد فيها خيار أصحاب الشيخ، منهم صاحب اللواء

محمد بن الحسن والإمام محمد ثنبو وأمثالهم من الفقهاء والفقراء، فحمل اللواء من يومئذ نمود وعلي جيد. وفي هذا يقول الشيخ عبد الله:

تَذَكّرت والذِّكرى تُثير لذي النَّوَى هُمومًا وفي الذِّكرى تَهبّ صَبَا الهوى
أخِلاّيَ مَاتوا في الجهاد وغيره وبُعْدي عن شيخي فَأَرَّقَني الجوى
مَتى ما تَذَكّرت الإمام وحِزْبه تَموجُ في قَلْبي بُحورٌ مِن الدّوى
فإن سَرّ غوبر والتّوَارك ذاك والـ قِتال سِجَال لَيس مَرْجعنا سوا
فمن قَتْلاهم في جَهَنّم دَائمًا ومَن في جِنان الخُلد ليسوا على اسْتوى
وكم مَرَّة جَاءوا بَياتًا فاقْتشَعوا وما فيهم من صَوْبِ صاحبه ضوى
وطَوْرًا أَتَوْا جَمعًا وحِينًا توزَّعوا بِشَرق وغَرب ثَم خَاب الذي غَوى
ولّما رَأَوْنـــــا لا نَمَلُّ جِهَـــادنا لَقَتْلٍ وأَسْرٍ جُلُّهم خَاف فَارْعوى
فَفَرُّوا إِلى البلدان شَتى وجَمْعُهم بِجَمْع أُنـــاس كــان في سَــبإ بوا

ثم جهز الشيخ عبد الله بنفسه جيش الفتوح وقاده إلى بلاد كبي التي شقت عصا أميرها عثمان وخلعته وطردته من مُلْكه؛ لأنه يناصر الشيخ وجماعته ويدعو بما يدعون إليه من نصرة الحق وإظهار الإسلام، ففر هاربًا إلى الشيخ ولذلك جهز الشيخ عبد الله له جيشًا توجه به إلى بلاده، فحمل اللواء علي جيدو، ومروا على بلاد زنفرة ففتحها الله عليهم من غير قتال، واستمروا حتى فتحوا بضعًا وعشرين حصنًا في بلاد كبي، منها حصن أحد سلاطينها المسمى محمد بن سليمان وأعادوا

الأمير المخلوع إلى دولته. وهناك بنى محمد بللو حصنًا منيعًا في أرض «كبي» بموقع يقال له «غندوا» فانتقل إليه أمير المؤمنين ابن فودي هو وعائلته.

ثم وقعت غزوة «ألوسا» وهو موضع في بلاد «كبي» فاستشهد فيها نحو ألفين من الجماعة ونحو مائتين من العلماء والقُرّاء. وفي ذلك يقول عبد الله:

إلهي لقلبٍ شَابَهُ الهَمّ والأَسَى بلَيْل التّمَامِ والصَّباح إلى المسا
لِفَقْد أَخِلاَّء مَضَوْا في جِهَادِهم (بثنثو) بَعْض في قَرَاري وألوسا
هم عُدَّتي في نَصْر دين محمد فَمَن كَان فِيهم في الجهاد تَنَفَّسَا
وكُلّهم قَارٍ فقيهٌ وتابع أُولي العلم قاري الضيف في الحرب أحمسا
ونَاصر دينِ الله لازم مَسْجد ومَجلس وَعْظ لا يُفَارِق مجلسا
لمظهر دين الله عُثْمَان كلهم بالأقوال والأفعال مِنْه قد ائتسا

وفي عام ١٨٠٨م جهز أمير المؤمنين ابن فودي جيشًا عرمرمًا للمرة الثانية لفتح حصن «القالاوي» وأمّر على الجيش محمد بللو الذي جعل على الجهات الشرقية من الحصن القائد المظفر نمود، وجعل على الجهات الغربية القائد الباسل علي جيدو. وكان أحد تلاميذ ابن فودي المسمى «عمر دلاج» قائدًا لطائفة من الجنود الفلانيين في بلاد كاشنة. فلما سمع بتحرك الجيش إلى حصن «قالاوي» قَدِم بجنوده فأحاطوا بالحصن، إحاطة السوار بالمعصم، فحاصروه شهرًا، ولم يجد العدو بدًّا من التسليم، ففتح المسلمون الحصن بإذن الله وقتلوا «يُنف» الطاغية،

كما قتلوا صناديده وسبوا ذراريهم سنة ١٨٠٨م. وهكذا سقطت بلاد «غوبر» و«كبي» و«زنفرد» تحت سنابك جنود ابن فودي.

فإذا قارن القارئ بين الغازي الأول في صدر الإسلام وبين جهاد ابن فودي والوقائع التي دارت بينه وبين غوبر وَجَدَها، مِثْلاً بمِثْل، كأنما يعيد التاريخ الإسلامي نفسه في نيجيريا.

لقد بدأ ابن فودي بالوعظ والإرشاد، كما بدأت الدعوة الإسلامية، وعارضه كفار غوبر، كما عارض النبي ﷺ كفار قريش، وألجأوه إلى الهجرة إلى أطراف الصحراء، كما ألجأ قريش المسلمين الأولين إلى الهجرة للمدينة، وجعلوا يقطعون الطريق على من يهاجر، كما فعل قريش للمهاجرين الأولين. ثم لما رأى الكفار تمكن المسلمين في مهجرهم استعدوا لاستئصالهم، كما استعد قريش لذلك، فالتقى الجيشان في أول وقعة في «كاوتو»، كما التقت الفئتان في أول غزوة في «بدر» فانتصر المسلمون هنا، كما انتصروا هناك.

واستعد الكفار للانتقام في وقعة «تنثو»، كما فعل قريش في غزوة «أحد» وأصيب المسلمون فيها، كما أصيبوا في الصدر الأول، ثُم تمَّ النصر الباهر في الغزوات التالية، كما تم للأولين وفتحوا حصن «قالاوي»، كما فتحوا مكة. «فما أشبه الليلة بالبارحة»..

أما ملوك هابي الذين سبق أن استنجد بهم ملك غوبر، فلم يستطيعوا أن يفيدوه بشيء إذ كان كل سلطان مشغولاً بما يعانيه من ناحيته، وكل ما عزم على نصرة غوبر شغله عن ذلك الفلانيون من أنصار الشيخ الموجودين في ناحيته..

على أن هؤلاء الملوك هم الذين كانوا يقومون أولاً باضطهاد الفلانيين وقتلهم ونهب أموالهم انتقامًا منهم لحليفهم ملك غوبر، فيقوم هؤلاء برد الفعل وبالدفاع عن أنفسهم فيأتيهم من الله النصر المبين، فتسقط البلاد واحدة بعد أخرى تحت أقدامهم، ويصبحوا بفضل الله أسيادها وأمراءها يقيمون فيها العدل والشرع، وينشرون بها الدين والعلم.

❁ حملة لواء ابن فودي وعماله

أولهم سلطان آهير

يوجد قرب مدينة «سوكوتو» بلدة «آهير» يعمرها التوارك وبقايا الصنهاجة والبرابرة، وقد ظهر فيها البركة والعلم والدين، ونجب فيها العلماء والفقهاء والأولياء. وكانت دولتهم قوية، وشوكتهم فتية، إلا أنها ذهبت منذ مدة لكثرة تنازعهم على تولية سلاطينهم وعزلهم بغير موجب شرعي، لكنها ظلت عامرة إلى أيام ابن فودي.

وكان عليهم السلطان محمد الباقر الذي سمع بأخبار ابن فودي وأتاه في بلده وبايعه ونصر دعوته وكتب إلى الآفاق يحض الناس على اتباعه، ولقد أدركته المنية في «أكدز» عند عودته من زيارة الشيخ إلى بلاده.

وتولى بعده أخوه محمد، كما سار على نهج سلفه وسافر إلى الشيخ عثمان هو وحاشيته، وطلب من الشيخ العهد والميثاق لتأكيد المحبة والأمانة فأعطاه الشيخ ما طلب. ومن جملة ما قرر له:

«أن دعاه إلى نصرة الدين ومساعدته واتباع سنة رسوله والتزام الورع والتقوى في خاصة نفسه، وإنكار الحرام والبراءة من كل عادة رديئة وبدعة شيطانية؛ لأن كلاً منهما لا يشهد له كتاب ولا سُنّة، ولا قول عالم من علماء السُّنة. ثم دعاه الشيخ إلى محاربة من حارب، ومسالمة من سالم؛ لأنه لا يحارب إلا من حارب الله ورسوله، ولا يسالم إلا من سالم الله تعالى».

ثم قال: «إن أجَبْتني إلى متابعة الحق والشرع فأنا وجماعتي من أوليائك وأنصارك، فاحكم بالعدل والشرع، ولا تخف في الله لومة لائم، وكل من خالفك فإني لا أزال أدعو الله أن يكفيني وإياك كل من خالف الحق. ومتى دعوت جماعتي إلى جهاد فرقة خالفتكم في الدين أو منعت حُكمًا من أحكام الله أو حقًّا من حقوقه فإنهم يجيبونك وينصرونك، وتُكْفى أمر الفتنة إن شاء الله».

ثم التفت ابن فودي إلى الوزراء والأعوان وأمرهم بالسمع والطاعة لأميرهم ومعاونته على ما تحمل.

ثم طلب منهم أن يؤمنوا السبيل ويخلوا البلاد للجماعة ومن والاهم، فأجابوا. ثم تباحث محمد بللو مع علمائهم فيما يسمع من أخبارهم وأحوال بلادهم، وأصلح منها ما يحتاج إلى الإصلاح وأرشدهم إلى الإسلام الصحيح.

هذا، وقد كتب السلطان محمد الباقر قبيل وفاته رسالة إلى سلطان المغرب ملاي أحمد، يثني فيها بالجميل على الشيخ ثناء كثيرًا ويخبره بما شاهد

من أحواله في الدعوة إلى الله خلال زيارته له، فكتب السلطان إلى الشيخ عثمان ما نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلوات الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وآله وأصحابه الذين انتهجوا نهجه القويم.

إلى السيد الذي فشا في الأقطار السودانية عدله، واشتهر في الآفاق المغربية ديانته وفضله، العلاّمة النبيه العديم في زمانه الشبيه، ذي النورين العلم والعمل اللذين هما منتهى الأمر: السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني، نفع الله بعلومه القاصي والداني، سلام منا عليه ما اشتد شوقنا إليه، ورحمة من الله حتى لا يخشى إلا الله والله أحق أن تخشاه.

وبعد، فلقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك، ذلك ما أوجب محبتنا وتسليمنا إليك، وذلك على لسان سلطان ناحيتكم أمير الطوائف الإسلامية بساحتكم، المقر في كتابه إلينا بفضلك، وإنك ناصح لله وعليه محبتنا للسلطان محمد الباقر بن محمد العدل سلطان آهير، فإنه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي له نصب الرسول الأمين والوزير والحاجب حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وترادفت عليك وفود الإسلام أمواجًا، وصرت بلطف شمائلك إنسان العين من عين إنسان.

الناس أَكْيَسُ من أن يمدَحوا رَجُلاً ما لم يَروا عِنْده آثَار إحْسَان

وهذا من أعظم المنح وأتم النعم ولأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم، فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيرًا ويقيكم ضيرًا، ويديم دولتكم محفوفة محفوظة، وبعين العناية ملحوظة، وفي حصن الله الحريز قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج/ ٤٠- ٤١].

والسلام منا على جنابكم الذي سار للإسلام بخلوص نصيحتكم كالبيت المعمور، والسلام عليكم ورحمة الله. وكتب في ١٨ جماد ثانية ١٢٢٥هـ».

لواء ابن فودي في مقاطعات كاشنة

يوجد في مقاطعات كاشنة عدد لا يستهان به من الفلانيين، وكان يرأسهم الشيخ عمر دلاج، وهو من أصحاب الشيخ ابن فودي وتلاميذه. ولما سمع بقيام الجهاد قدم إلى ابن فودي وطلب منه اللواء فعقده له، فرجع إلى بلاده يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى نصرة الحق والإسلام بنصرة ابن فودي، فهاج عليه سلطان كاشنة وحرَّض عليه الأوباش وأتعبوه كثيرًا، ولكن الله نصر عمر دلاجًا فتغلب عليه وطرده من مملكته. فلاذ بالفرار إلى مدينة «مرادي» فاحتل عمر مكانه

وأنشأ جيشًا قويًا لحماية الدعوة، وقام إلى نصرة ابن فودي بكتيبة كبيرة، ساعدوا في محاصرة حصن قالاوي حتى افتتح.

فبذلك صارت مقاطعات كاشنة تحت سيطرة ابن فودي ونفوذه وإرشاده، وهي أول إمارة خضعت لدولة سوكوتو، وعاش عمر دلاج حتى ١٨٣٥م.

لواء ابن فودي في مقاطعات زاريا

سبق أن قلنا بأن ملك غوبر أرسل إلى حلفائه لما شعر بالهزيمة والفشل يستنجدهم ليتألبوا جميعًا على الفلانيين قبل أن يتفاقم أمرهم، وكان الملك «كادو» صاحب زوزو وأميرها ممن تجاوبوا مع غوبر.

وكان في ناحيته عالم فلاني يسمى مالم موسى، قدم إلى ابن فودي ١٨٠٤م. وأخذ منه اللواء ورجع إلى بلاده وأعلن الحرب على كادو، فنشب بينهما قتال عنيف انهزم فيه كادو فهرب مع جماعته إلى أبوجا وترك زوزو للشيخ موسى الذي صار بها أميرًا تحت دولة ابن فودي الجديدة.

لواء ابن فودي في مملكتي بوشي وغمبي

يوجد من تلاميذ ابن فودي قبل قيامه بالجهاد تلميذان اثنان هما يعقوب وأبو بايرو، نزحا إليه من بلاد بوشي ولازماه يطلبان العلم حتى قام الجهاد، ثم استأذناه للقيام بالوعظ في ناحيتهما، فأذن لهما فاتجه يعقوب إلى جهات بنوى

واختط بها مدينة، كما اتجه أبو بايرو إلى بلاد غمبي وعمل هناك للدعوة أعمالاً جليلة، فحالفه النصر حتى صار بها أميرًا من دون قتال أو نضال، وكلتا الإمارتين على حدود بلاد برنو الجنوبية.

لواء ابن فودي في إمارة كنو

اتصلت دعوة ابن فودي بأهل كنو أول وهلة عندما عزم الشيخ عبد الله على الحج ومرَّ بهم، فاجتمع له العلماء من الهوساويين والفلانيين وحالوا بينه وبين ما يريده من السفر، وطلبوا إليه أن يقرأ لهم دروسًا في تفسير القرآن، فاستجاب لهم وألف لهم كتابه «ضياء الحكام وكفاية ضعفاء السودان في تفسير آيات القرآن» ومكث معهم مدة، ثم عاد به القدر عَوْدًا على بدء من مدينة كنو إلى إخوانه الذين تركهم في ميدان الجهاد والقتال.

وكان سلطان كنو الوالي من جملة السلاطين الذين بعث إليهم ملك غوبر بموجب التحالف والتناصر، فيتحرك هذا لنجدة حليفه، ولما شعر الفلانيون بذلك أوفدوا زعيمهم المسمى ابن صبوة إلى الشيخ ليأخذ منه اللواء، فأخذه ورجع إلى قومه داعيًا إلى الله. فقام بينه وبين سلطان كنو الوالي مناوشات فلم يستطع عليه، ولكنه صمد له في ناحية، واستعان بزعيم آخر من إخوانه الفلانيين، فوقف سلطان كنو في ناحية أخرى، فاستطاع الاثنان أن يقضيا على آخر ملوك هابي الألولية في كنو ١٨٠٧م.

ثم تنازع الاثنان على الحكم، ولما بلغ ابن فودي الخبر بعث إليهما ابنه محمد بللو الذي رأى أن من المصلحة العدول عن الاثنين حسمًا للخلاف واختيار عالم آخر من خيرة علماء زمانه في بلاد كنو وهو سليمان الجم، وأمر محمد بللو سائر الناس أن يبايعوه بالسمع والطاعة، وهكذا دخلت كنو في حكم ابن فودي.

لواء ابن فودي في أعالي بنوي

هناك رجل فلاني يدعى مودبو آدم تلقى العلم في برنو، ولما رجع إلى بلاده واتصل بالدعوة الإصلاحية الجديدة، أسرع إلى اعتناقها، وحث قومه على المسابقة إلى قبولها ومناصرتها، فبعثوه إلى مبايعة ابن فودي، فذهب وبايع ثم رجع باللواء فجهز الجيش العظيم للدفاع، وصار يدعو القبائل الوثنية إلى الإسلام، ولم يزل يحالفه النصر حتى أسس مدينة يولا سنة ١٨٤١م. ونسبت إليه البلاد بلفظ أدماوي.

لواء ابن فودي في دورة وحطيجة

لقد عُرِفت مدينة دورة كإحدى مدن بلاد هوسا القديمة، ومنها نزح الذين تسلطنوا من ملوك هابي في كنو وزكزك وكاشنة وغوبر وغيرها. ولقد آذنت دولتها بالضعف والهرم قبل قيام دعوة ابن فودي فسهل على الشيخ إسحاق أحد أصحاب ابن فودي أن يطرد سلطانها من دولته بدون كبير عناء وأن يحتل مكانه.

أما في حطيجة فقد كافح الشيخ عمر كفاحًا شديدًا لنشر الدعوة الإصلاحية فيها وجاهد وانتصر، فبعث أخاه محمد ثنبو إلى أمير المؤمنين ابن فودي ليأخذ اللواء فلم يلبث أن مات فتولى مكانه محمد ثنبو فصار بها أميرًا.

لواء ابن فودي في بلاد نوفي

تسكن قبائل نوفي على ضفاف نهر النيجر الشمالية في الجهات المحاذية لبلاد يوربا في الضفاف الجنوبية.

وقبيلة نوفي من بقايا قبائل النوبة الذين نزحوا من أعالي مصر وسكنوا هذه البلاد من قديم الزمان. ولما علم سلطانهم بما يجري في بلاد هوسا بين الفلانيين وملوكها انضم هو إلى سلك إخوانه الملوك، وجعل يضطهد الفلانيين الموجودين في بلاده، فاستعانوا بأمير المؤمنين فأرسل إليهم محمد بللو لإعانتهم فتمَّ لهم ذلك فاستأمنوا.

وفي مدينة رابا إحدى عواصم نوفي وقع سلطانهم المسمى محمد في مشاكل مع رعيته فاستنجد بابن فودي، ولكن المنية عاجلته قبل وصول النجدة إليه، فتنازع اثنان على إمارة رابا فانضمت نجدة ابن فودي إلى أحدهما المسمى ماجيا الذي تغلب على منافسه وقتله، ففر أنصاره إلى ناحية إلورن ليتجندوا هنالك لأخذ الثأر والانتقام، فوقع اختيار أهل رابا على ابن عم ماجيا المسمى إدريس ليكون أميرًا عليهم فتأمّر.

ثم جاء من سوكوتو عالم فلاني يدعى مالم دندو، فانضم إلى ماجيا بعد تردده بين هذا وذلك فبذلك تعين ماجيا أميرًا على نوفي من قبل سوكوتو.

ولكنه نقل العاصمة من رابا إلى مدينة بدا فدامت بها حتى اليوم، وتزوج مالم دندو من أسرة ماجيا، فأنجب ولدين أحدهما عثمان زاك وثانيهما محمد سابا، وتم لكليهما أن يخلف الأخر على إمارة بدا بعد وفاة أبيهما ١٨٣٢م، وبقي ابن عم إدريس أميرًا على مقاطعة باتيجي، وأسس مالم مالك أحد أنصار دندو مدينة لافيجي، وصار أبناؤه بها أمراءً. وتقع مدينتا باتيجي ولافيجي على ضفاف نهر النيجر الجنوبية المتاخمة لبلاد يوربا.

سقوط برنو في حكم ابن فودي

كان بأرض برنو عدد لا بأس به من الفلانيين الذين قاسوا الاضطهاد المرير من رجال أمير برنو، فاجتمعوا في مكان واحد ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم. فهاجمهم أمير برنو، فردّوه على أعقابه، ثم اتفقوا على الهجرة من بلاده إلى مقربة من إخوانهم المجاهدين. فضاق أمير برنو بهجرتهم ذرعًا؛ فكتب إلى ابن فودي يطلب منه أن يأمرهم بالبقاء في بلاده لأنها دار السلام ليست دار الحرب. فتوسط ابن فودي بين الطرفين ثم ظهر أن هذا الأمير إنما يخادع خدعة محارب، ويتحين الفرصة للهجوم الدامر، فبعث بالجند إلى طائفة من هؤلاء الفلانيين لإبادتهم، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده ووزيره، ثم أخذ في التجند من مختلف الأجناس

ليقبل بها إلى الانضمام بحلفائه؛ فجمع الفلانيون شتاتهم من كل ناحية.

فاجتمعوا في جهة دمتروا تحت قيادة مختار الماهر.

وفي جهة غومبي تحت لواء أبو بايرو.

وفي جهة أنغروا تحت قيادة عبدو «عردو».

وفي جهة كتاغم تحت إشارة إبراهيم زاك.

فصار كل قائد يعالج أمير برنو من ناحيته حتى أخرجوه من مملكته فَفَرَّ إلى كانم، واستعان بمن فيها وأتوا بجنود جرَّارة وهجموا بها على الفلانيين، فاستشهد منهم طائفة وقتلوا مختار وعبدو، وشتتوا الباقين وأرجعوا الأمير إلى حصنه. ثم أعاد الفلانيون تنظيم شملهم تحت قيادة إبراهيم زاك الذي هاجم برنو مرة أخرى، وأخرج الأمير من الحصن أيضًا، ثم فر إلى الحاج أمين الكانمي ثانيًا.

ومن هنا بدأ الحاج أمين يراسل ابن فودي برسائل، ويطالبه بدلائل في سبب قيامه بهذا الجهاد، وكان في الوقت نفسه يجند الجنود من كانم وباغرمي، فتم له بعد ذلك إخراج إبراهيم زاك من الحصن وإجلاء الفلانيين من برنو، وآل إلى أحفاده حكم برنو إلى اليوم وصاروا يتلقبون بالشيخ بدلاً من الماي.

بين ابن فودي والكانمي

لقد قدمنا ما فيه الكفاية لتعريف الكانمي بين مشاهير علماء البلاد، أما ما

جرى بينه وبين ابن فودي فقد بعث الكانمي إلى ابن فودي رسائل عديدة سجلها محمد بللو في «إنفاق الميسور»، ونحن نورد هنا واحدة منها لتكون نموذجًا لتلك المناظرة الفقهية التي تدل على المهارة وحذق الفهم من الجانبين ونص رسالة الكانمي:

«الحمد لله فاتح أبوب الهداية ومانح أسباب السعادة، والصلاة والسلام على من بعث بالحنفية السمحة وعلى آله وأصحابه الذين هدوا وأوضحوا شرعه. من المتعفّر بتراب الذنوب المتدثر بجلباب العيوب العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي، إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم. السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور[1] إنه لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم وجدت نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألت عن السبب فقيل بغي وقيل سنة. وتحيرنا في الأمر فكتبت لإخوانكم المجاورين لنا وثيقة طلبت منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم وفضلاً عن مجدد، وعدوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها ولكن لم نفهم منها ما فهموه. وبينما نحن في حيرة التردد هجم بعضهم على دار الإمارة ونزل المهاجرون لنا قريبًا منا، فكاتبناهم ثانيًا وناشدناهم الله والإسلام أن يكفوا عنا شرهم فامتنعوا وصالوا علينا، فقمنا مدافعين عن أنفسنا متبرئين إلى الله من سوء صنيعهم حين ضاقت علينا الأرض، ولم نجد مقامًا ولا مجالاً ووقع

(١) رسم هذا المزبور: كتابة هذه الرسالة. (م).

منا ما وقع، وحين وجدنا راحة وفشا هذا، والله أعلم بالمستقبل، رأينا المكاتبة وإن لم تنجع كانت أحسن من السكوت.

فاعلموا أن العاقل يتلقى الكلام بقبول ليفهمه، فيجيب جوابًا مستقيمًا فأخبرونا عن قتالكم لنا واسترقاقكم أحرارنا.

إن قلتم فعلنا ذلكم بكم لكفركم فإنا برآء من الكفر بعيدون عن ساحته فإذا كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعمارة المساجد كفرًا فما الإسلام؟

فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة كنائس أم بيع أم بيوت نيران؟ وإن لم تكن من شعائر الإسلام فلم صليتم بها حين ملكتم؟ هل ذلك إلا كلام متناقض؟؟ ومن أعظم حُجَجِكم على تكفير عامة المؤمنين ركوب الأمراء لبعض المواطن قصدًا للصدقة بها وكشف رؤوس الحرائر وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم والجور في الحكم وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا العمل.

أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة وجب النهي عنها والإنكار على فاعلها، لكن لا يكفر فاعلها إذ ليس أحد منهم يدّعي أن لها تأثيرًا أو يقصد بذلك إشراكًا بل قصارى دعواهم لجهلهم.

إن الصدقة في هذه المواضع أحسن من غيرها، ومن مارس كتب الفقه ووقف على كل آراء الأئمة في باب الحج حين تكلم على النهي عن الهدي للمقبور والذبح عندها، علم مصداق ما قلناه، وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام وهي بين مصر والشام، وذلك موضع العِلْم والإسلام، وبأرضها شجرة تفعل بها العامة مثل فعل الأعاجم، ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم ولا قال أحد بكفرهم.

وأما كشف الرأس فحرام وَرَدَ القرآن بالنهي عنه، ولكن لا نكفّر فاعلته لأن التكذيب يؤدي إلى الكفر، وأما عدم الفعل مع التصديق فمعصية تجب التوبة على الفور منها. ألا ترى أن الحُرَّة إذا صَلَّت مكشوفة الرأس وخرج الوقت لا إعادة عليها عند القائل به كما هو معلوم في كتب الفقه، وكيف تصح الصلاة من كافرة؟

وكذا أَخْذ الرشوة، وأَخْذ مال اليتيم، والجور في الحكم وكل ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها، لكن لا يكفر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب، فلو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا القتل، إذ الأمر والنهي متوقف على شروط:

منها ألا يؤدي إلى ما هو أعظم منه، وهذا نهيكم قد ورطكم وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضررًا دنيويًا وأخرويًا. أليس الخروج على الملك بعد انعقاد

البيعة حرامًا عند جميع أهل السنة؟ وإن طرأ منه فسق؟ وتلك المسألة أوضح من شمس الظهيرة. ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فما سر قلة التأمل أكثر من أن يحيط بها نطاق البيان...

سلمنا تسليمًا جدليًا أن تلك الأفعال مكفرة صاحبها فكيف يسري لغيره وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر/ ١٨]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت/ ٤٦] إلى غير ذلك من الآي؟...

سلمنا تسليمًا جدليًا أن الكفر يسري للغير، لكن أيلزم من ذلك إبطال الشريعة وكفر جميع الأمة والعياذ بالله تعالى!؟ إذ ما من زمن إلا وفيه في جميع البلدان من الفسق والمعاصي ما لا ينحصر كثرة.. فهذه مصر مثل برنو وأعظم منها، وكذلك الشام، وجميع مدن الإسلام فيهن الرشوة والجور وأكل مال اليتيم والظلم والبدع من زمن بني أمية إلى يومنا هذا، ولا يخلو زمن ولا بلد من نصيب من البدع والمعاصي، فلو كفر الجميع بطلت تآليفهم فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفرة على ما يقتضيه قولكم؟ والعياذ بالله من الخبط في الدين ومن اتباع النظر الفاسد، نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق، وذلك إهانتكم للكتب برميها في الطرق وفي المواضع المستقذرة وفيها اسم الله تعالى، وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن في موضع مستقذر كفر والعياذ بالله! وكذلك رأينا من بعضكم

من يعاهدون ويؤكدون الأيمان ثم ينقضونها بعد توكيدها بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء.

فيا عجبًا منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين أحببتم الملك ورغِبْتُم فيه وسوَّلت لكم نفوسكم وتخيلتم ما تخيلتم، واستدللتم بظواهر لا تُنْهِض لكم دليلاً، لا سيما وقد سمعنا من سِيرَ الشيخ عثمان بن فودي ورأينا من تآليفه ما يخالف فعلكم، فإن كان هذا الأمر صدر من فعله فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد كنا ظننا به جميلاً والآن كما قال القائل: إنا نحب الشيخ والحق ما اتفقا فإذا ما اختلفا كان الحق أولى أعاذنا الله من أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا . ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف/ ١٠٣- ١٠٤] وأن نكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٥٣]. والسلام».

وإليك نص جواب محمد بللو بن عثمان بن فودي

«الحمد لله ذي الحجة البالغة والكلم النافذة، الصادعة بالحق الماحقة للباطل الدامغة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالمعروف ونهى

عن المنكر والبغي، شهادة قاطعة شموسها بازغة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وينصره على ذوي الأهواء الزائفة صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ذوي العلوم البارعة النافعة السابغة، من العبد الفقير لرحمة ربه القدير محمد بللو نجل أمير المؤمنين عثمان بن فودي، وفقه الله لرضاه وأذاقه حلاوة تقواه.

أما بعد، فقد وصلت إلينا رسالة من شيخ كانمي لِسِتٍّ خلون من شعبان، إنه يسأل عن سبب قتال أهل الجماعة لأهل البلدان واسترقاق أحرارهم، وذكر فيها أنه كاتب في ذلك بعض المجاورين لهم من الفلانيين فأجابوه بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم فضلاً عن مجدد، وذكروا له في الجواب كتبًا سموها له اطّلع على بعضها لكنه لم يفهم منها ما فهموه إلى آخر ما قال.. وفهمنا من مضمون فحوى خطابه بل من صريح كلامه أنه استند بما سمع من أولئك في تضليل سائر الجماعة وعلمائهم، وتوصل بذلك إلى التشنيع عليهم مع أنه لم يدرك حقيقة الأمر ولم يقف على كنهه، وإنما تَبْلُغه أخبار من لا يحْسِن أداءها.

فعلمنا أنه إما جاهل أو معاند إذ لو كان من أهل المعرفة ما ساغ له أن يحمل الكُلّ على الضلال لما يسمع من جواب صدر من بعض الأتباع الذين لم يمارسوا العلوم، بل يجتهد في طلب الحق ويكاتب جميع من يظن به العلم والدين منهم حتى إذا استقصى جميع ما عندهم من الأجوبة والمقالات فحينئذ يضعها على ميزان لسان العلم الذي عنده فإن قبله وظهر أنه حق اتبعه وإلا رجع إلى

التأويل والتماس المخرج ما أمكن ووقف عن العمل به ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء/ ٣٦]. ثم إنه إذا تعذر التأويل فحينئذ يقوم إلى إرشادهم بما يغلب على ظنه أنه يصلحهم بالقول والمناظرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن تعسر بالقول فشأنه بهم.

أما قولنا: أو معاند، فهو إنه يعرف الحق وطُرُقَه وأن جواب هؤلاء لا يسوغ تضليل الجماعة كلها حتى يسري في تعيينه إلى إمامه الذي انتشرت في الآفاق محاسن سيرته، وإنما حمله على ذلك التعصب والحمية والجاهلية عياذًا بالله.

فنقول وبالله التوفيق: لولا ما قال المولى جل وعلا: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾ [النساء/ ٨٦].

وما قاله رسوله المصطفى، فيما رواه البيهقي وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «إن للكتاب حق، رد الجواب كرد السلام» لما جاوبناه ببنت شفة بل نخيله بينه وبين أمثاله يتطاولون كما قال القائل:

فذاك كالعير لا تَسْعى تُنَاظِره دَع الحمير عَلى أَمثالها تَصِل

واعلم أيها الكانمي أولاً أنّا ما حاربنا الناس بما أجابوك أصلاً وإنما حاربناهم دفعًا عن أنفسنا وذريتنا وأهلينا لما آذونا واستفزونا وطلبوا منا أن نعود إلى ما لا يحل لنا، وقد بين الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه.

فأغروا بنا سفهاءهم يؤذوننا وينهبون أموالنا ويقطعون طرقنا ونحن نجتهد في إصلاح ديننا، وننشر ما عندنا من العلم وإرشاد من وصل إلينا، وهذا دأبنا ودأبهم. فلما رأونا أنّا لا ننتهي عما نحن فيه ولا نزداد إلا حسنًا وابتهاجًا ولا يزال عوام الناس يدخلون في دين الله أفواجًا غاظهم ذلك، فأجمعوا كيدهم على نصب القتال بيننا وبينهم، ولا يشكون أن الدولة لهم لما يرون من ضعفنا عن المقاتلة فلم يرعنا إلا إنذار من أمير غوبر بثلاثة أمور:

أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما عليه آباؤه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها.

وهذا إنذاره في الأسواق.. كل ذلك سعي منه في مكيدتنا فكفانا الله شره وضيره وصرف عنا كيده ومكره فأتاح الله له الموت بعد ذلك عن قريب. ولما ولي ابنه ينف شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك، حتى غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام على حين غفلة من أهلها، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون ونهبوا أموالهم وأسروا ذراريهم وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف، ويتحطبون الألواح ويوقدون بها ويستهزئون بأهل الإسلام ويقولون لهم: إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين. ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ حتى أرسل أميرهم إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه وأبنائه يريد أن يهجم على القرية فأبى عليه الشيخ إلا أن يهاجر بجماعته فهاجر بها إلى موضع يقال له غد.

فلما وصل بها جعل الناس ممن آثروا الإسلام يهاجرون إليه أرسالاً[١]، والكفرة تتعرض لهم وتقطع عليهم سبلهم بأمر أميرهم، ثم جعل بعد ذلك يرسل إلينا بالسرايا والغارات، والشيخ يكاتبهم فأبوا عليه مع أن الأمير يتأهب إلينا فلما وصل إلينا هزمه الله وشتت شمله فنجا بنفسه، فلما رجع إلى داره أرسل إلى إخوانه أمير كاشنة وأمير كنو وأمير زكزك وأمير دورة وأمير أهير ينذرهم بأنه أهمل نُوَيْرةً[٢] شَبَّت في بلده حتى انتشرت فوق طاقته وغلبته أن يطفئها حتى أحرقته فليحذر كلٌّ أن يصاب في بلدته بمثل ما أصيب هو به.

فقام كل واحد منهم على من ينتسبون إلى الشيخ يقتل ويأسر ففروا في البلاد عباديد[٣] يأوي بعضهم إلى بعض حتى صاروا جماعات فجعلوا يدافعون عن أنفسهم حتى صار الأمر إلى ما صار إليه في تلك البلاد.

هذا ما نعرف عندنا في بلادنا حقيقة، أما في بلادكم فليس عندنا علم ما أوقد المحاربة فيها، إلا أنه قدم علينا في بعض الأعوام الماضية رجل يقال له آدم الحاج، وزعم أنه أرسله أمير برنو أحمد بن علي إلى الشيخ يسأله عن سبب هذا الأمر وأن يمنع الشيخ الفلانيين من الهجرة من بلده وأنه أمير المؤمنين، فأمرني الشيخ بكتب الرسالة فكتبت إليه ما هو السبب وبينت له أحوال أُمراء هوسا

(١) أَرْسَالاً: أفواجًا وفِرقًا بعضهم يتلو بعض. (م).

(٢) نُوَيْرة: تصغير نار. (م).

(٣) عباديد: متفرقين. (م).

أنهم كفار وأن مظاهرتهم من مسلم ارتداد، وكتبت إلى الفلانيين الذين في بلده ما يقتضي المواصلة بينهم وبين أمير برنو ويوجب الموافقة ويمنع المخالفة. فلما رحل من عندنا الرسول ومضى لسبيله راجعًا لم نلبث إلا قليلاً حتى بلغني أنه بلغ وأن أمير برنو قتله في معسكره في توجهه إلى ابن عبدو، والله أعلم بحقيقة الحال.

ثم نرجع الآن إلى الإجابة عما في تشنُّعك علينا مع ما دسست في ذلك من مغالطتكم وقد سبق في قلبك ما سبق فأنقضها عروة، فلله الحمد في الآخرة والأولى. أما قولك فأخبروني عن قتالكم لنا واسترقاق أحرارنا.... إلى كلام متناقض.. فالجواب والله الموفق للصواب:

اعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار هوسا دوننا بغير تقية منهم وتعلمون أن مَن وَالى الكفار دون المؤمنين بغير تقية فهو مثلهم كتابًا وسنة وإجماعًا. ولقيامكم أيضًا على إذاية المجاورين لكم من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة وبدأتموهم بالمقاتلة تعصبًا لملوك هوسا ونصرة لهم ولا يخفى أنه ما قمتم لمظاهرتهم على المؤمنين إلا لرضاكم بدينهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر.

وتعلمون على هذا أن معرفة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد لا يمنع من قتالكم ولا ينفعكم في الدنيا والآخرة لثبوت ارتدادكم إن كان سبق لكم الإسلام الصحيح، فإذا لم يكن موالاة في الدين يصار إليه في العقليات ولا الشرعيات حينئذ فما الدين؟

وأما قولك: «واسترقاقكم أحرارنا» فلما عُلم من الخلاف في استرقاق المرتدين انظر أجوبة المغيلي لأسئلة أسكيا الحاج محمد، و«النوازل» للبرزلي تجد ذلك.

وأما قولك: من «أعظم حُجَجِكُم إليّ ولا قال أحد بكفرهم» فلا نسَلّم دعواك إنهم لا يريدون بذلك إشراكًا فإذا لم يكن الذبح للأحجار والأشجار كفرًا أو شركًا ضرورة فما الشرك؟؟

وأما قولك: «ومن مارس كتب الفقه.. إلى آخر الكلام» فجهل منك صريح فذلك إنما هو لمن أهدى للفقراء والخدم لحضرة القبور صدقة عليهم أو لأصحاب القبور لتعود عليهم بركاتهم، لا لمن قصد الذبح للقبر نفسه، فإذا لم يكن الذبح للقبور نفسها إشراكًا فما الإشراك؟

وأما قولك «هذه دمياط.. إلى آخر الكلام» فلا نسلّم أن العلماء لم يتعرضوا لقتالهم ولم يقولوا بكفرهم، فهذا عبد الرحمن بن يوسف الشريف تعرض للشجرة التي بسلجماسة فقطعها وقال إنها مثل ذات أنواط، وتعلم أن ذات أنواط من الأوثان الجاهلية.

وأما قولك: «وأما كشف الرأس..».

فلا نسلم أن أحدًا قال بالتكفير بالمعاصي، فإنما ذلك مغالطة منك ومشاغبة وزور وبهتان علينا فالله حسيبك.

وأما قولك: فلو أمرتم... إلى أخرويًا..» فلا نسلم أنا جاوزنا الحدود في شروط الأمر والنهي، بل وقفنا عند الشرط كما ينبغي. فالمقاتلة الحادثة فيما بين ذلك إنما هو من اعتدائكم علينا فإنا لم نتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرع فهم الذين بدأونا بالنهي عن الدين وألجأونا إلى الهجرة وبدأونا بالمقاتلة، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل/ ٤٣].

أما قولك: «أدخل عليك وعلى المسلمين.. إلخ». فلا نسلم أن ذلك أَدْخَل ضررًا فإنه معلوم عندنا بالضرورة إنه إنما أدخل خيرًا كثيرًا علينا وعلى المسلمين وأورثهم أرضكم ودياركم وأموالكم وكفاهم شرَّكم وكيدكم، وهم اليوم في صلاح دين ودنيا والحمد لله على ذلك.

وأما قولك: «سلمنا إلى النظر الفاسد..».

فكلام زور وبهتان ومشاغبة. فمن قال منا بالتكفير بالمعاصي يلتزمه ما عددت عليه. هذه جرأة منكم وتسلط في أعراض المسلمين ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور/ ١٥].

وأما قولك: «رأينا منكم الكلام.. إلى الإبقاء..» فمشاغبة ومغالطة وتعلم أن هذه الأفعال لا يمكن أن تكون من الأخيار إنما تكون - إن كانت - من السفهاء منا، والنبي ﷺ يقول: «الجهاد ماضٍ لا ينقضه جور من جار».

وأما قولك: «يا عجبًا إلى فعلكم..» فكلام مختلط أو كلام من تخبطه الشيطان من المسّ، تشهد لنا بالخير ثم تشهد لنا بالشر، كفى بهذا خبالاً وخبطًا وكيف تقول إننا أحببنا الملك وتعلم أن الحب من أفعال القلوب.. فهل شققت قلوبنا ورأيت ما فيها أم اطلعت على الغيب؟ كفى بهذا منك زورًا وكذبًا وهكذا قولك في الشيخ عثمان بن فودي شهدت له بالخير ثم ألمت إليه الشر خبطًا منك وخبالاً في قلبك كفى بهذا منك نقيصة.

فاعلم يا كانمي أننا برآء من جميع ما رميتنا به، راجعون إلى الله تعالى مما ألمت به إلينا، والله المستعان على ما تصفون. والسلام».

هذه واحدة من عشرات الرسائل التي دارت بين الكانمي وآل فودي.

فما هي إلا صورة مصغرة مما يتمتع به كلا الرجلين في المزية العلمية. بل هي نموذج مما عليه علماؤنا الأقدمون من رسوخ القِدَم في العلوم والمناظرة والجدل.

لواء ابن فودي في بلاد يوربا[١]

لقد علمت فيما مضى أن حَمَلَة لواء ابن فودي هم أصحابه الذين خرجوا من ديارهم إلى مبايعة الشيخ واستئذانه في الجهاد بناحيتهم، ولم يكن الشيخ يبعثهم من عنده أو يوزعهم بإرادته ليسلبوا مُلك البلاد من أهلها كما يتوهم البعض، ولكن الله أراد ذلك وهيأ له الأسباب. ويوجد في بلاد يوربا بذلك العهد أقليات إسلامية يعيشون ضعفاء في أواسط الكفار أو يسكنون مستقلين في أحياء خاصة، ولكنهم لم يتصلوا بدعوة ابن فودي اتصالاً مباشرًا ولم يعلموا كيف يأخذون منه اللواء ليقوموا بالجهاد.

وكان من جملة أصدقاء الشيخ ابن فودي وأصحابه رجل فلاني من جهات سوكوتو، وهو من أهل الصلاح والتقوى يدعى صالح بن محمد بن جنتا، ولكنه اشتهر بلقب عالم الذي كان يطلقه عليه ابن فودي دائمًا، ولما تفرس أن له مستقبلاً باهرًا ونجمًا لامعًا في الدعوة إلى الله جنوب نهر النيجر أشار له بالتوجه إلى تلك الناحية.

فعمل بالإشارة فاجتاز النهر حتى أتى بلاد برغو ونزل ضيفًا على ملك بوسا فأكرم نُزُله وجعل يطعمه العصيدة البيضاء الناعمة المصنوعة من الجزر الكبير إذ كان ذلك أفضل طعام يقدمونه للضيف العزيز عندهم، فأثقل جسم

(١) يجب الاهتمام بهذا الموضوع إذ يتعلق به كثير من الحوادث التاريخية القديمة والحديثة في بلاد يوربا وما حولها.

الشيخ عن بعض أوراده ونوافله ولما تكرر منه ذلك لم يجد بُدًّا من الخروج من بوسا إلى بلاد يوربا فنزل في عاصمتها «أيولي». وكان قد أخبر الكهنة ملك يوربا أنه سينزل في أرضه عالم سيكون بقاؤه فيها سببًا لذهاب ملكه كما أخبروا فرعون بمثل ذلك قبل ولادة موسى - عليه السلام، ولما نزل وأحس به الملك احتال على إخراجه من بلاده وزوده بعبيد وإماء وأموال كثيرة.

وفي رواية أن الملك حاول اغتياله ولكن الله سَلَّم الشيخ فنجا من الشر والكيد، فخرج إلى مدينة إسين ونزل بمسجد أوجالا، ومكث بها مدة ثم خرج إلى أبومشو ثم إلى إيكوي ثم إلى كوهو فمكث بها ثلاث سنوات، ومنها انتشر صيته في الآفاق. وكان بجهات إلورن بعض الفلانيين رعاة البقر الذين اتصلوا به وصاروا يزورونه الفينة بعد الفينة وهو أيضًا يزورهم أحيانًا.

أفنجا اللاجئ الحربي في إلورن

حدث أن التجأ إلى قرية إلورن رجل من قواد الملك يوربا يدعي أفنجا ابن بنت الملك، التجأ إلى القرية بعد فشله في سرية أويري التي بعثه إليها ليلقى بها حتفه جزاء مناوءته له. وكان من عادة يوربا أن ينتحروا إذا لم يحرزوا النصر في حروبهم حيث يكون ذلك عارًا أبديًّا عليهم وعلى أسرتهم ولكنهم يغسلون هذا العار بالانتحار، ولما انهزم أفنجا تلك الهزيمة المنكرة وكان المفروض أن ينتحر

حسب التقاليد فإذا به يَنْكِل[1] من الانتحار ويلوذ بالفرار إلى قرية إلورن حيث يخفي مصيره على أهل العاصمة.

وبعد الاستراحة والاطمئنان صار أفنجا يحلم باسترجاع منصبه السابق في القيادة الحربية، ويتمنى أن يؤلف جيشًا قويًا خارج المملكة لينتقم به من عدوه الملك الذي عَرَّضه للموت على حساب الوطن.

ولم يزل كذلك حتى سمع بخبر هذا العالم، ورجا أن يكسب صداقته فزاره في مكانه ورجاه أن ينزل إلى إخوانه الفلانيين البقّارين بجواره في إلورن. فوافق ذلك رغبة الفلانيين والهوساويين والبرناويين المتوزعين في أحياء صغيرة قرب إلورن.

فانتقل إليهم الشيخ بتاريخ ١٢٢٦هـ ولقي من هؤلاء المسلمين حفاوة بالغة واحترامًا عظيمًا، وأخذ الناس يقصدونه من كل صوب وأتى إليه علماء ربوة السنة وتتلمذوا له، ونزل إليه أهل قرية أبج وهم من البرابرة وتمسكوا بذيوله واستفادوا بعلمه. واستقدم الشيخ أهله وأولاده وأصحابه من بلاد سوكوتو وبلاد هوسا فكثر الناس حوله فاستطاع أفنجا أن يؤلف من هؤلاء الوافدين إلى جوار الشيخ جيشًا كبيرًا، وعقد الشيخ له اللواء فقام إلى القرى التي كانت تهدد سلامته وتشن الغارات عليه في فترات من الزمن ففتحها وأمن من الطوارق

(١) يَنْكِل: ينكُص ويجْبُن. (م).

الذين يطرقون البلد ويأسرون أهله. ولما قوي عضد أفنجا أخذ يرسل الغارات إلى عاصمة بلاده «أويولي» يريد أن يقلم أظافر الملك الآفن انتقامًا لفعلته له وأن يكسر شوكته ليبقى هو صاحب النفوذ الوحيد بعد ذلك في بلاد يوربا.

فجعلت الغارات المغيرات تهاجم العاصمة في كل عشية وضحاها، ولما ضاقت الأرض برحبها على أهل العاصمة انتقلوا من مكانهم، ونزلوا حيث عرف بهم اليوم حيث تمنع الغابات الكثيفة شيئًا من تلك الغارات وحيث يكونون قريبين من أواسط يوربا. فضعفت بذلك شوكة ملك يوربا وتوهنت قوته.

ولما علم المسلمون المجاورون لهذه الناحية أن الأمن والسلام قد استقر في قرية إلورن، صاروا يهاجرون من نير ملكهم الكافر إلى إلورن؛ حيث يتمكنون من أداء دينهم على الوجه المُرْضي، فانتظمت الحضارة في مدينة إلورن وتضاعف عدد السكان.

وحيث لم تكن قرية إلورن قبل نزول العالم فيها إلا بلدة صغيرة وليس بها رئيس يحمل لقبًا من ألقاب الأقيال، ولا ملكًا يلبس تاجًا من الخرزات المنظومة كما لا يمتاز بزي من الأزياء الرسمية حسب عادتهم في بلاد يوربا.

ولم يكن لجوء أفنجا إليها إلا اضطرارًا لا يحمل صفة حاكم رسمي من قبل الأفن كما يتوهمه البعض، اتجهت أنظار الناس إلى هذا العالم أن يكون حاكمًا أو رئيسًا ولكنه أبى واكتفى بالمشيخة. ولقد ألقى الجميع له مقاليد الأمور ولم

ينازعه أحد النفوذ ولكنه لم يكترث بالمظهر الدنيوي بل اهتم بالوعظ والإرشاد والعمل لإنشاء بلدة إسلامية في هذه الناحية، يأوي إليها كل من أراد أن يعبد الله خالصًا مخلصًا في راحة واطمئنان وفي حرية واستقلال.

وكانت البلدة مقسومة إلى أربعة أحياء صغار قبل نزول العالِم:

أ- حَيُّ الفلانيين الذين أضافوا الشيخ عندهم وزعيمهم رجل يسمى أولوفادي.

ب- وحَيُّ الهوساويين التجار الذين هم شِبه رُحَّل، يكثرون أحيانًا ويقلون أحيانًا ورئيسهم يدعى باكو.

ج- وحَيُّ المسلمين في ربوة السنة وهم مزيج من اليوربا والبرابرة، وقائدهم يسمى سولا بيرو.

د- وحَيُّ اليرباويين الكفار وزعيمهم الأول إيلا وهو فلاح صائد، ولما نزل أفنجا تنازل له عن الزعامة.

هكذا كانوا قبل نزول العالِم وبعده إلى أن توفي عام ١٢٣٦، وذلك بعد ستة أعوام من نزوله وبعد أن انتظَمت المدينة واستقر بها الأمن واستتب فيها السلام. وزاد عدد سكانها الذين وفدوا إليها من كل صوب سواء من بلاد هوسا أو من بلاد يوربا وشكل المسلمون الأغلبية الساحقة لسكان المدينة.

قيام الحكومة الإسلامية في بلاد يوربا

اتفق رؤساء الأحياء الثلاثة الأولى على تعيين أمير مسلم على البلد، كما اتفقوا بالأغلبية على مبايعة «عبد السلام» أكبر أولاد العالم أميرًا؛ حيث كان أبوه سببًا لانتظام البلد واستتباب الأمن والسلام.

تمت البيعة لعبد السلام أميرًا أو سلطانًا على المسلمين في بلدة إلورن وما حولها على الرغم من كراهية أفنجا وجماعته، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من التسليم للرأي العام فازداد نطاق هجرة المسلمين إلى إلورن من جميع الأرجاء المجاورة للانضواء تحت إمارة إسلامية جديدة، وللدخول في بيعة أول إمام وأمير للمسلمين في بلاد يوربا. فأصبحت البلدة حصنًا منيعًا لصوت القرآن ومعقلاً أمينًا لدعاة الإسلام فظهرت بها منارة عالية يشع منها ضوء الإيمان إلى كافة الأنحاء والأرجاء، وبالتالي تمركزت بها الثقافة العربية الإسلامية حيث استقدم إليها أمراؤها العلماء والفقهاء من بلاد هوسا ونوفي وغيرها، وأسسوا بها الكليات العالية لجميع فنون الفقه والأدب واللغة العربية والشريعة الإسلامية وتخرج منها فحول وجهابذة نشروا الثقافة الإسلامية في بلاد يوربا وكافحوا فيها الأمية

والجهالة. ولما كانت الوثنية على طرفي نقيض مع الإسلام كالماء والنار يصعب أن يجتمعا في إناء واحد، صار من الطبيعي أن يقع الخلاف بين أفنجا الكافر الخارج على الإمام الذي تمت له البيعة وبين عبد السلام المبايع لإقامة دولة الإسلام وجمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم على كلمة الحق والعدل.

استمر الخلاف بينهما حتى انتهى بقيام المناوشات التي وقع فيها أفنجا صريعًا ميتًا خاسر الدنيا والآخرة.

وكان قد أرسل أفنجا إلى قبائل يوربا المجاورين يستنجدهم على المسلمين ولم تصله النجدة حتى انهزم، ولما علم أنصاره الكفار بمصيره توجهوا من نحو أربعين مدينة يقودهم حليفه صاحب مدينة إيكوي فأقبلوا إلى إلورن ليستأصلوا شأفة المسلمين، فبعث الأمير عبد السلام إلى سوكوتو يطلب منهم اللواء والمدد بالجيش، فأرسل له ذلك كله من طرف الأمير خليل بن عبد الله من مدينة غندو.

وهكذا بدأ الجهاد في بلاد يوربا ودام القتال بين الفلانيين كما يسمونهم وبين اليورباويين سجالاً طيلة أربعين سنة، من أيام الأمير الأول عبد السلام بن عالم إلى أيام الأمير الرابع علي بن شئت بن عالم.

وقد تم للمسلمين فتح القرى والمدن التي تجاور إلورن ودخلت أكثر بلاد يوربا في المعاهدة معها، ثم أقبل أهل مدينة إبادن وإيشا وتعسكروا في مدينة أوفا. فأقبلت جيوش المسلمين يقودهم قائد هوساوي يدعي أبو بكر كرارة وحاصر

مدينة أوفا من الناحية الشمالية لمدة سبعة عشر عامًا قبل فتحها فانهزم المتكتلون بها ورجعوا إلى بلادهم خائبين سنة ١٨٨٦، وفي ذلك يقول الشيخ محمد ثاني بن أبي بكر (بوبي) أحد علماء إلورن وأدبائها قال قصيدة نقتطف منها مطلعها:

الحمدُ لله مُهْدي هذه النِّعَم ... على جَماعة شَيْخ عَالم عَلَم
ثم الصَّلاة على خَيْر الوَرَى وعَلى ... آلٍ وصحبٍ وأتباعٍ ذوي حِكَم
لمَّا تحزَّب أَهْل الكُفْر كلّهُم ... وأَهْل بَادن لَقَد بادوا على اسْمِهِم
وأَهْل أوفا لَقْد فَاؤوا بنَقْضِهِم ... عَهْد الأَمانة في فعـــلٍ وفي كَلِم
قَال الأمير فإن الحَوْل لَيْس لنا ... إلاَّ إليكَ إلهـــي أَنْت ذو كَرَم
أَعْني الأَمير عليًّا ذاك مَقْصِدنا ... لأنه بَيدَيـــه فَتْـــحُ مصرهم
قَدْ أَنْجزَ الله وَعْدًا كَان واعدنا ... تَفَرّقوا ثـــم خَلّوا جُلّ مَالهم
نِسَاؤهم مَع أولاد صِغَـــارهم ... صَاروا أَرِقّاء في ملك وفي خَدَم

وشمر المسلمون عن ساعد جدهم وعزموا على مواصلة فتوحاتهم صوب الجنوب حتى المحيط، وصاروا يرسلون إلى ملوك يوربا يدعونهم بدعاية الإسلام وبالدخول في المسلمين أو الدخول في ذمة المسلمين أو الاستعداد للقتال حسب شروط الجهاد في الإسلام.

فاجتمعت القبائل اليورباوية على محاربة المسلمين الفلانيين والهوساويين، واستعانوا بمختلف القبائل والعشائر، فقامت بين الطرفين حروب دامية، حتى

مَلَكَ الإنكليز البلاد وأوقفوا القتال واصطنعوا الحدود فسكنت الزماجر[١].

الإسلام في الداهومي

تقع بلاد الداهومي على التخوم[٢] الغربية من نيجيريا تستغرق بلاد يوربا ثلث بلدانها، وإنما وقعت في الداهومي بعد الاستعمار الفرنسي بموجب التحديدات السياسية المفروضة؛ لذلك يكون تاريخ الإسلام فيه جزءًا مكملاً لتاريخ الإسلام ببلاد يوربا. ويمكن تقسيم قُطر الداهومي إلى ثلاثة أقسام: قسمان منها في الجنوب الساحلي، يسكن في القسم الأول قبائل يوربا، وأشهر بلادهم كيتو وساكيتي وسافي وأجاشي وأوهري بغالبية السكان المسلمين قليل من الوثنيين والمسيحيين. وتاريخ الإسلام في هذه الجهات قديم كقدمه في سائر يوربا القديمة وللعلماء والحجاج في نفوس المسلمين بها احترام بالغ ومكانة مرموقة.

ويسكن بالقسم الثاني قبائل أناغو وأيغون وأبومي، وهم في الأصل كفار وقد أسلم كثير منهم وتنصر الآخرون.

وفي مدينة ويداه وأجاشي نزل العبيد المتحررون من أيدي البرتغاليين من القرن الثامن عشر، وكان منهم عدد من كانوا مسلمين قبل استعبادهم وتمسكوا به حتى تحرروا. أما المقاطعات الشمالية التي يسكنها قبائل برغو ودندي من بقايا أجناس البرابرة أكثرهم مسلمون، وقد ظهر فيهم علماء كثيرون

---

(١) الزماجر: الاضطرابات والحروب. (م).

(٢) التُّخُوم: الحدود. (م).

في جهات باراكو وزوغو وكندي. ويعود تاريخ الإسلام بهذا القسم إلى عهد الأمير المجاهد أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي بدأ جهاده من مركز المرابطين قرب السنغال وما زال يواصل جهاده صوب الشرق الجنوبي يفتح البلاد وينشر فيها الإسلام.

ويقال إنه لم يترك مدينة آهلة بالسكان من بلاد السنغال إلى حدود الكونغو إلا فتحها وصيرها بلادًا إسلامية وعين عليها أميرًا مسلمًا وإن كان المعروف من حالة السودان سرعة ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان، وانمحاء آثار الإسلام بعد ثبوته من جراء ضربات الكفر عليها.

ومما يدل على قدم الإسلام في شمال الداهومي وقوع بلاد غاو، والتي هي عاصمة مملكة سنغاي في حكومة أسكيا محمد الأول قرب مدينة زوغو عاصمة بلاد الدندي التي هي بشمال الداهومي اليوم.

ويقال إن الشيخ عثمان بن فودي قد جال في بعض أطراف شمال الداهومي ضمن جولاته في بلاد كبي لنشر الدعوة الإسلامية بها. كما يوجد في كتابات الشيخ عبد الله بن فودي في «تزيين الورقان» ما يدل على اتصال دعوتهم بتلك النواحي.

الإسلام في بلاد بني

لا شك في أن جزءًا من بلاد بني قد شم رائحة الإسلام منذ عهد قديم

لأنها من المدن القديمة، التي كانت تحسب دين الإسلام دين الغرباء والأجانب وكان ملوكها يستفيدون من علماء الإسلام ما يحتاجون إليه من الطب الروحاني أحسن ما كانوا يجدونه من الكهنة الكفار.

ولقد خضع جزء من هذه البلاد لنفوذ الإسلام بعد قيام دعوة ابن فودي وقيام دولته؛ حيث تصالحت قبائل ككندا وهكهك وأكوكو على دفع الجزية لإمارة نوفي في عهد الأمير محمد سابا حوالي ١٨٤٠م. وحدث أن ثاروا مرة ونقضوا العهد فبعث إليهم الأمير ١٨٥٨م القائد البرناوي المظفر الشيخ عمر ماجيغي فدحرهم واستمر هذا القائد يطفئ نيران المشاغبات المتتابعة في بلاد أغبرة في ناحية كبا إلى أن توفي ١٨٨٤م. فبذلك دخل قسم من تلك البلاد في إمارة إلورن ودخل قسم منها في إمارة بدا إلى يومنا هذا. أما مدينة بني العاصمة بما يعرف اليوم بولاية الغرب الأوسط فلم يثبت فيها الإسلام إلا من عهد قريب، وذلك بعد ثبوته في كثير من القرى التابعة لها.

الإسلام في بلاد إيبو

تقع بلاد إيبو على حدود بنوى الغربية وحدود مصب نيجر الشرقية، وتاريخ قبائل إيبو القديم غامض للغاية ولم يعرف منه شيء إلا بعد نزول الإنجليز إذ لم تكن بينها وبين قبائل نيجيريا الباقية أية صلة تذكر، وليس للإسلام فيها خبر يؤثر. ولما دخل الإنكليز إليها وجدوا بها أرضًا خصبة لغرس النصرانية

الكاثوليكية. ولقد عرف أهلها الإسلام مع بدء التجارة بينها وبين قبائل هوسا الذين يشكلون جاليات صغيرة في مدنها الكبار في أونشا وإينوغو وغيرها من البلاد. واشتهر في هذه الأيام رجل من قبائلها أسلم على يد الشيخ إبراهيم أنياس السنغالي حوالي ١٩٥٠. وتَسَمّى باسمه واتصل بالهيئات الإسلامية والدول العربية ليساعدوه على نشر الإسلام في بلاده. وأسس مركزًا إسلاميًا في مدينة أفيبو كما أسس الحاج تجاني مركزًا في مدينة أولو قرب أونشا.

من أسباب انتشار الإسلام في بلاد يوربا

كانت بلاد يوربا قبل قيام الدولة الفودوية تتأثر بنفوذ الدول الإسلامية المتعاقبة في بلاد غانة ومالي وسنغي وبرنو وهوسا تأثرًا ضئيلاً. وكان الإسلام ينتشر فيها انتشارًا تدريجيًا بطيئًا. وبعد قيام الدولة الفودوية بلغ الإسلام في جزء منها دور النضوج والارتقاء، فقامت الحكومة الإسلامية في مقاطعات إلورن فتأثرت البلاد الباقية بنفوذ هذه الدولة فصار الإسلام ينتشر فيها بالتدفق والاندفاع.

غير أنه لم ينتشر الإسلام مع ذلك بالقتال والنضال ولكنه انتشر فيها بجهود الواعظين المتجولين الذين قاموا بدور الجنود المجهولين وتوزعوا في تلك الأصقاع المختلفة بدافع إيمانهم وقوة يقينهم، لا تبعثهم جماعة ولا حكومة ولا ترسلهم هيئة ولا منظمة وإنما يبعثهم إيمانهم بربهم وإخلاصهم لدينهم، وكانوا يستعملون التيسير والتدريج في تبشيرهم بالإسلام ويستعينون بالوسائل الجائزة لاستمالة القلوب وتسخير العواطف لهذا الدين.

ذلك لأن ملوك هذه البلاد كانوا قديمًا يتخذون من الكهنة عَضُدًا[1] في شئونهم، ويجدون من السحرة مُلْتَحدًا[2] في حروبهم.

ولما جاء العلماء المسلمون لم يجدوا بُدًّا من استعمال ما يقوم مقام السحر والكهانة من الطاقات الروحية ليصرفوا بها وجوه هؤلاء الملوك إليهم.

فاستخدموا الروحانيات واستطاعوا أن يسيطروا بها على الماديات وتفوقوا على السحرة والكهنة في كثير من المناسبات فصار لهم مركز مرموق لدى الملوك والأغنياء، ومقام محترم عند الأمراء والبسطاء.

فصار للإسلام عزة وكرامة في نفوس العوام فصارت الأعياد الإسلامية رسمية في البلاد كلها، يحتفل لها الملوك طوعًا وكرهًا ويقدمون الهدايا والعطايا إلى العلماء والأئمة، رغبة أو رهبة فصار للأئمة والعلماء في الدواوين الملكية صفة شبه رسمية أو دولة صغيرة داخل دولة كبيرة، يرأسها الإمام الكبير في كل مدينة ويؤازرها العلماء والفقهاء فاستطاعوا بذلك أن يثبتوا كيانهم ويفرضوا على الناس وجودهم بين أمواج الكفر المتلاطمة وفي وسط هؤلاء الأعداء المتظافرة، حتى صار الملوك يحسبون لعلماء الإسلام ألف حساب حتى اليوم ما لا يحسبونه للقساوسة والمطارنة ورؤساء الأديان الأخرى.

---

(١) عَضُدًا: مُعينًا. (م).

(٢) مُلتَحدًا: ملجأً وملاذًا. (م).

دور الوعاظ في نشر الإسلام

إن الخطب المنبريّة التي تُلقى في الجُمَع والأعياد ليس لها أي تأثير على السواد الأعظم من المسلمين في غرب إفريقيا عمومًا وفي نيجيريا خصوصًا؛ لأنها كانت ولا تزال تلقى باللغة العربية فلا يستفيد منها إلا العلماء وهم قليلون.

وقد اضطر بعض الأئمة بإلحاح جماعته إلى إدخال بعض تعديلات خفيفة في ترجمة الخطبة، وذلك بأن يتقدم واعظ معين من قِبل الإمام لترجمة الخطبة للناس من قبل إلقائها أو بتذكير الناس بشيء من القرآن والحديث قبل إلقاء الخطبة في نحو ربع ساعة أو بإلقائها باللغة المحلية إلا في الآيات والأحاديث فتكون بالعربية ثم تترجم إلى اللغة المحلية: أما الوعظ والإرشاد بوجه عام فقد اعتقد علماء يوربا وُجوبها عليهم فكانوا حريصين على أداء هذا الواجب في أوقات رتيبة وفي كل فرصة سانحة.

فلكل إمام بين جماعته ولكل عالم بين تلاميذه نشاط ملموس من هذا الوعظ والإرشاد خصوصًا في أيام رمضان ولياليه؛ حيث يترجم بعضهم القرآن ويفسر بعضهم الحديث في الأيام والليالي.

ويمكن أن يقسم الوعاظ إلى ما يأتي من الأقسام:

- القسم الأول الذين يعقدون مجالس وعظهم في مساجدهم ويلقونه على جماعتهم كل يوم جمعة من بعد صلاة الصبح حتى الإسفار أو ليلة كل

جمعة من بعد صلاة العشاء.

- القسم الثاني: الذين يخصصون لوعظهم يومًا معينًا أو ليلة معينة في الساحات العامة يحضرها الرجال والنساء ويقضون فيها الساعات.

- القسم الثالث: الذين يتطوعون بوعظهم ويتنقلون له من بلد إلى بلد ويعقدون له مجالس هامة يجاهدون به الكفار والمنافقين ويذكرون المؤمنين. ولقد كان لهؤلاء فضل كبير في دخول الناس إلى دين الله أفواجًا وأفذاذًا وأشهر من عُرِف منهم في بلاد يوربا الشيخ سعد النّفاوي الألوري الذي بدأ في وعظه هذا منذ ١٣١٠، وصار يتغلغل في المدن والقرى بهذا الوعظ حتى أدخل نحو مائة ألف كافر في الإسلام في بلاد يوربا والداهومي، واشتهر بما كان يكرره من الكلام الذي معناه: «كيف يفلح من لم يتعلم ولم يسأل العلماء؟» توفي إلى رحمة مولاه ١٩٣٥م.

هذا وقد اخترع الوعاظ أسلوب الوعظ بالأشعار الأعجمية، في نغمات يتذوقها أبناء البلاد ويتأثرون بها ولا ينسونها أبدًا ويسمونها «واكا» في لغتي هوسا ويوربا، فقد اعتادها بعضهم حتى صارت له مَلَكة يقتدر بها على تفسير كل آية من القرآن، بهذا الأسلوب الشعري المعروف عندهم بواكا.

الحفلات الإسلامية في بلاد يوربا

من أسباب انتشار الإسلام في بلاد يوربا ما ابتدعه العلماء من نظام الحفلات لبعض شعائر الإسلام تعظيمًا لها وتنشيطًا للمسلمين عليها وترغيبًا للكافرين في الإسلام، ويقوم بعض تلك الحفلات في المساجد كحفلة تولية الإمامة واعتناق كافر للإسلام، وبعضها في المدارس كحفلة ختم القرآن، أو ختم كتاب كبير، أو التخرج النهائي، وبعضها في المنازل كحفلة عقدة النكاح، واستقبال العائد من الحج.

لقد صارت هذه الحفلات في بلاد يوربا أداة من أدوات الدعوة إلى الله ومجلسًا من مجالس الوعظ والإرشاد.

فلا غرو في أن كل اجتماع للمسلمين فرصة تتيح للواعظ أن يخاطب الجمهور بما يناسب الموقف والواقع من حكم الله ورسوله.

ففي حفلة النكاح مثلاً يتولى الإمام تلقين صيغة التزويج للولي وصيغة الرضى والقبول للزوج ووكيله، كما يتولى إعلان قدر الصداق وإشهاد الحاضرين على ذلك كله، ثم الدعاء للزوجين بالرفاه والبنين، ثم يختم بتذكير الزوجين حقوقهما على وجه يستفيد منه الحاضرون جميعًا.

وفي حفلة التسمية يوم سابع المولود يحضر الإمام وجماعته إلى بيت الداعي ضحوة، فيفتتح الإمام بالثناء على الله والصلاة والسلام على رسول الله،

ثم يعلن اسم المولود على الناس حسب اختيار والده اسمًا من أسماء الله تعالى أو من أسماء أنبيائه وصحابتهم، يدعو بالخير والبركة والسلامة لهذا المولود ووالديه والحاضرين أجمعين، ثم يذكر الناس بحقوق الولد على الوالد في الحضانة والتربية والتعليم والتزويج وأشباه ذلك.

وفي حفلة الجنازة يتقدم الإمام بالصلاة على الميت وإذا فرغ قام أهله بحمله ودفنه، وإذا فرغوا من ذلك اجتمع الناس عند ولي الميت وقام الواعظ بالتعزية وتذكير الناس بما حل بواحد منهم مستندًا إلى ما جاء في القرآن والحديث من ذلك ويختم بالدعاء للأحياء والأموات.

وفي استقبال العائد من الحج يخرج الأقارب والأصدقاء إلى موقف السيارة أو محطة القطار أو المطار ليستقبلوا الحاج الجديد، ثم ليرافقوه إلى بيته في موكب عظيم كأنه ملك يتوج وهم يهتفون بالأناشيد المطربة، يمدحون بها النبي ﷺ وأصحابه، ويعدون فضائل من حج البيت وزار قبر النبي.

وفي اعتناق الإسلام يجتمع العلماء والأئمة في بيت المسلم الجديد وحوله أهله وذووه ليعلن إسلامه بينهم وليتولى الإمام تلقينه كلمة الشهادة بمشهد المسلمين. وربما قام الداعي في كل ذلك بتوزيع الهدايا والصدقات من الأموال والحلاوى والثمار، أو يتقدم إليهم بطعام الإفطار إن كان صباحًا أو بالغداء إن

كان ظهرًا أو العشاء إن كان ليلاً، وينطبق ما ذكرنا كله على مسلمي بلاد يوربا والداهومي وغانا وجزء من بلاد هوسا ومالي وسنغي.

أثر الإسلام في أمم السودان

ذلك هو ماضي الإسلام منذ أن انبثق فجره في غرب إفريقيا، حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وتلك هي أخبار من تقدموا من الأبطال الذين خدموا الإسلام ببطولتهم، ورفعوا لواءه خفاقًا فوق أرضهم فخلّد الإسلام ذكرياتهم، وسجل تاريخهم في صفحات المجلدات.

وتلك هي نبذة من أسماء الرجال الذين غرسوا الثقافة العربية في بلاد السودان، وبذروا محبة العرب في قلوب العجم حتى صاروا يحبون العرب، ويفضلونهم على أنفسهم، لأن النبي محمدًا ﷺ من العرب، وصاروا يحبون لغة العرب؛ لأنها لغة القرآن ولغة النبي العربي، فتعلموا قواعد اللغة العربية كأبناء العرب، حتى ظهر منهم من إذا كتب أو خطب حسبته عربيًا قُحًّا[1]، وذلك كله من آثار الإسلام في أمم السودان.

وهناك شَبَه متقارب بين أثر الإسلام في الأمة العربية، وأثره في الأمة السودانية؛ حيث إن الإسلام وجد السودان أمة غير كتابية، فأدرجهم في عداد الأمم الكتابية، كما وجد أغلب العرب أُمة أُميّة، فنشر بينهم الكتابة، ووجد

---

(١) قُحًا: خالصًا. (م).

السودان عبيدًا للبيضان في كل مكان وحررهم من العبودية، ووجدهم على العادات الهمجية، فرفعهم إلى صفوف الأمم المتمدنة، فظهرت فيهم الحضارات الراقية، والثقافات العالية، تحت ظل الإسلام قرونًا طويلة قبل دخول الحضارة الغربية فيهم، بل قبل قيامها في أوربا، ولقد كان الجنس الأسود موسومًا بالخسف والهوان في تاريخ شعوب العالم قبل الإسلام.

لم يعترف الجنس الأبيض بدولة سودانية قبل ظهور دولة غانة، ومالي وسنغاي الإسلامية. وبالعكس من ذلك كله، قد كان الجنس الأسود يعتبر أداة للتسلية، ومثارًا للضحك أمام الفراعنة والأباطرة والقوارين، بل كانوا مُسَخّرين للأعمال الشاقة في كل مكان، حتى صار اللون الأسود شعارًا للعبودية.

ثم جاءت اليهودية فكان مما ورث منها السودان ما يرويه النسابون القصاصون أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد، لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه؛ وقد رد ابن خلدون على هذا القول في مقدمته فانظرها.

ثم جاءت النصرانية ولم تغير شيئًا من منزلة الجنس الأسود في المجتمع البشري ولما جاء الإسلام كان من أهم أعماله تحرير السود من عبودية البيض وقال: «لا فضل لأبيض على أسود إلا بتقوى أو عمل صالح».

وقد طبق النبي هذه المساواة في تزويج ابنة عمته زينب البيضاء القرشية الهاشمية لزيد بن حارثة العبد الأسود المتحرر بفضل النبي، وجعل مؤذنه الذي ينادي الأمة دائمًا إلى الصلاة رجلاً أسود، وهو بلال الحبشي، ولو جاز لكل إنسان أن يختار ما يناسبه من الأديان لكان الإسلام أنسب دين يختاره الجنس الأسود لنفسه، كما يختاره اليوم زنوج أمريكا، الذين لا يزالون يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من أجل لونهم في القرن العشرين، وفي أرقى شعوب العالم الأبيض في أمريكا.

۞ دخول الإفرنج في غرب إفريقيا

عرف الإنكليز هذه البلاد ١٥٥٣م على أثر مغامراتهم السياحية في شواطئ إفريقيا، وبدأوا في التجارة مع أهلها، وكانت النّخَاسة أهم سلعهم التجارية، ولما ألغيت في أوربا ١٨٠٧م، تحولت إلى غَلاّت البلاد وحاصلاتها، لقاء ما يأتون به من منتوجات ومصنوعات وأدوات زراعية وغيرها، ولما تفتحت أعينهم على خيرات البلاد صاروا يتكالبون عليها حتى اضطروا إلى عقد مؤتمر في برلين ١٨٨٤م، يضع حدًّا للتنافس الدولي على شواطئ إفريقيا، فأسرع كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا إلى وضع يديها على الأرض التي احتلتها، وإلى عقد اتفاقيات مع ملوك تلك البلاد على ما يأتي:

أولاً: إبرام الصداقة التجارية بين الطرفين.

ثانيًا: منع تجارة الرقيق وتحريمها بتاتًا.

ثالثًا: إطلاق حرية التبشير المسيحي في طول البلاد وعرضها.

رابعًا: إيقاف الحروب بين القبائل وتأمين طرق المواصلات.

لم يكتف الإفرنج بهذه الاتفاقيات، بل صاروا يطمحون إلى ما وراءها في شئون الحكم وإدارة البلاد واستعمارها واستغلالها بالتدريج. ولما شعر الملوك والأمراء بانفلات الزمام من أيديهم هزوا رؤوسهم امتناعًا، فقامت بين الطرفين مناوشات طويلة انتهت بسقوط الضعيف تحت أقدام القوي، فسقطت لاغوس أول ما سقطت تحت أقدام الإنكليز ١٨٦٢م.

ثم تغلغلوا في داخل البلاد، وفعلوا بأهلها مثل ما فعلوا بأهل لاغوس، فتم لهم الاستيلاء عليها ورفع رايتهم فوقها. وأطلقوا على بعضها المحمية الشمالية، وعلى البعض الآخر المحمية الجنوبية، ولقد أبت الإمارات الشمالية، وعلى رأسها حفيد ابن فودي المسمى السلطان الطاهر. أن تستسلم للإنكليز بل قاومتهم مدة قبل أن تنهزم ١٩٠٣م، فخرج السلطان مهاجرًا وتبعه خلق كثير. فاقتفى الحاكم الإنكليزي أثره. وأدركه في بلاد غمبي، وقامت بينهما معركة شديدة ولم يَنْتَطِح فيها عنزان بل استشهد السلطان والوجهاء والأعيان، ولم يفلت منهم إلا محمد بللو الملقب «مايرنو» ومحمد بن الأمير، وطائفة من العلماء فتأخر الأول قرب مدينة سنار في السودان الشرقي واختط بها مدينة عرفت بلقبه «مايرنو» ولازمها حتى توفي ١٩٤٠م وجاور الباقون مكة المكرمة إلى أن توفوا هناك رحم الله الجميع.

أما من ناحية فرنسا

فلقد بدأت فرنسا في استعمار غرب إفريقيا بالتجارة، كما بدأ الإنكليزي، ثم بعقد المعاهدات الودية مع الملوك والزعماء، ولما انكشف سِرُّهم للزعماء

المسلمين في الاستعمار قاوموهم مقاومة شديدة أذهلتهم طويلاً ولم يتمكنوا من التغلب عليها إلا بشراء الضمائر وسياسة التفريق بين الزعماء المختلفين.

اتخذت فرنسا مدينة دكار قاعدة عامة لحكومتها في غرب إفريقيا، ومنها بدأ الاستعمار، ثم نشطت إلى احتلال السنغال كله ١٨١٧م، وحاربت الفلانيين المورتانيين سنين طويلة، ولما تعين الجنرال «فدهرب» حاكمًا على السنغال، وكان داهية كبيرًا عمل على توسع حكومته فيما حولها، وصادف وقت قيام الحاج عمر الفوتي بالجهاد الإسلامي، وتأسيسه لدولة إسلامية في أنيور وماسينا وتمبكتو، فقام بين الحاج عمر وفدهرب قتال عنيف، ونضال طويل، انتصر في مواقعها الحاج عمر مرارًا غير أنه وافاه الأجل ١٨٦٢م.

فقام بالأمر بعده ابنه أحمد الذي أقلق الجنود الفرنسيين وأَقَضَّ مضاجعهم طويلاً حتى اضطروا إلى التهادن معه، كما تهادنوا مع زعماء المقاطعات الذين قبلوا حماية فرنسا واحدًا بعد واحد فتم استيلاؤهم على السنغال نهائيًّا ١٨٩٣م. فهاجر أحمد بن عمر إلى شمال نيجيريا فمات بها.

ومهما تنسى فرنسا ولا تنسى ما لقيته من ساموري وكراموغو ومحمد الأمين في غرب إفريقيا.

الحروب الصليبية الباردة

ولما تم استيلاء الإفرنج على غرب إفريقيا، تدافقت أمواج الإرساليات التبشيرية بالتتابع من إنجلترا وفرنسا في شكل جمعيات مختلفة لبناء المدارس، والكنائس والمستشفيات في المدن والأرياف، ثم لما تحرر العبيد السود من أوربا وتأسست في سيراليون مدينة سُمِّيَت «فريتاون» ١٧٧٢م بادر المبشرون إلى إنشاء كلية «فورابي» لتخريج الأساقفة من هؤلاء العبيد المتحررين ليرسلوهم إلى تلك المستعمرات الجديدة مبشرين.

ونزلت الدفعة الأولى من موجات التبشير المسيحي إلى نيجيريا ١٨٤١م. ومن بينهم صمويل أجاي كراوثر الذي تحرر مع المتحررين، وتخرج مع المبشرين، ثم أرسل إلى نيجيريا مع المرسلين.

وعمل بجد ونشاط لوضع الأحجار الأساسية للتبشير الصليبي بالتعاون مع الاستعمار، ووضع الحروف اللاتينية لكتابة لغة يوربا لترجمة الإنجيل بدل الكتابة العربية التي كان المسلمون يكتبون بها لغة يوربا، وأول مدرسة تبشيرية في لاغوس هي المدرسة الكاثوليكية الرومانية ١٨٤٤م، ثم مدرسة الجمعيات لإرساليات الكنيسة ١٨٥٩م، ثم مدرسة البنات للجمعية المذكورة ١٨٦٨م.

وأول مدرسة حكومية غير تبشيرية بُنيت ١٨٨٢م على أن الاستعمار كان يعمل جنبًا إلى جنب مع التبشير، وكلاهما يمهد السبيل للآخر، ويضع

كل إمكانياته تحت تصرف زميله، بل يخدم التبشير الاستعمار أحيانًا أكثر مما يخدم صليبه، كما يختار الاستعمار كبار موظفيه من كبار الأساقفة والمطارنة، فلا يستطيع المسلم أن يفرق بين الموظفين الحكوميين، وبين الأساقفة المبشرين.

تأخر المسلمين وتقدم غيرهم

لقد علمت أن الحضارة العربية الإسلامية هي التي تمكنت في جميع الأجزاء الشمالية في غرب إفريقيا قبل دخول الإفرنج، أما الأجزاء الجنوبية القريبة من شواطئ المحيط التي يقل بها العمران في القرون الوسطى، فهي الجهات التي لم يكن فيها الإسلام قويًا، كسواحل العاج والذهب والداهومي ونيجيريا الجنوبية، ولقد كان التعليم العربي منتشرًا في جميع البلاد التي استوى فيها الإسلام مستوى الاستقرار والنضوج، وكانت الثقافة الإسلامية برّاقة في جميع البلاد التي تحكم بالشريعة الإسلامية، بل كانت الحضارة العربية قائمة في جميع البلاد التي قامت فيها الحكومة الإسلامية.

ولما جاء المستعمرون والمبشرون غاظهم كل الغيظ أن يلتقوا بالإسلام في غرب إفريقيا ليس دينًا متمكنًا في النفوس فحسب، ولكنه قوة حاكمة، ودولة قائمة، فلبسوا للمسلمين جلود النمر، وأصلتوا لهم سيوف المكر، لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، بل شمروا عن ساعدهم في سبيل القضاء على آثار الإسلام بكل جائز ومستحيل، حتى ضربوا الثقافة العربية بثقافتهم الإفرنجية، وهدموا بنيان

علماء الإسلام بمعاول قساوسة الصليب، وبدّلوا الشريعة بالقانون، وطاردوا الفقهاء من الدواوين، وأحلوا محلهم المحامين، وأغروا طلاب اللغة العربية بطلاب اللغة الإنكليزية والفرنسية؛ حيث تغلغلوا في القرى والأرياف، واقتنصوا أبناء الفلاحين وأغروهم بالأموال والأعراض، وأرسلوا من آمن بالصليب منهم إلى أوروبا، ليكملوا بها علومهم وليرجعوا إلى بلادهم زعماء معتبرين لدى الخاص والعام، فاغتر طائفة من أبناء المسلمين بتلك المظاهر فتنصّروا، فأصبحوا يركضون في كل حلبة من حلبات الجد، فبقي المتمسكون بدينهم خارج الحظيرة ضعفاء مساكين متروكين في زوايا الإهمال يعيشون على هامش الحياة، ويأكلون من فتات الموائد، فلا جرم أن يحارب الاستعمار التعليم العربي بالتعليم الإفرنجي بغية تحويل المسلمين عن دينهم، أو تسميم مناهج التعليم الإفرنجي نفسه عليهم، حتى يصير المسلمون أنفسهم حربًا على الإسلام وثقافته، لترسخ أقدام المستعمرين في بلاد الإسلام، ولتشييد النصرانية على أنقاض الإسلام. أوليس قد قال لورد كرومر وزير خارجية بريطانيا، في برلمانهم بمطلع القرن العشرين قولته المشهورة: «إن قَدَم الإمبراطورية الإنكليزية لن ترسخ في البلاد الإسلامية ما دام هذا القرآن بيد المسلمين».

إن نزع لغة القرآن وتعاليم الإسلام من قلوب مسلمي غرب إفريقيا خطة مدبّرة، وحيلة منظمة، من الإنكليز وفرنسا على السواء. ماذا يعمل المسلمون

واللغة الإنكليزية أو الفرنسية أصبحت ضرورية؟ ولكنها سم زعاف لا يعالج بالترياق.

اللهم إلا أنه لا يفقد الذين تعلموا الإنكليزية أو الفرنسية واحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية، ولكنهم قليلون، وهم كالقابضين على جمرة نار.

يعي المسلمون في نيجيريا الإنكليزية متحيرين في حالتهم هذه إلى أن جاء رجل من سيراليون اسمه الدكتور ويلمت بليدن، كان مستشرقًا كبيرًا، كما كان مديرًا لمصلحة المعارف في سيراليون وسبق أن درس مثل هذه المشكلة مع المسلمين في سيراليون، فأكسبته خبرته لمعرفة طريقة حل هذه المشكلة في نيجيريا حسب طريقة حلها في سيراليون.

فطلب إلى الحكومة البريطانية عام ١٨٩٥م إنشاء مدرسة حكومية خاصة يتعلم فيها أبناء المسلمين المعارف الإنكليزية إلى جانب ديانتهم الإسلامية، فوافقت الحكومة على هذا الطلب، فأنشئت المدرسة في لاغوس عام ١٨٩٧م، فتعين لنظارتها الشيخ إدريس أغشاهن، من أوائل المثقفين المخلصين للإسلام في لاغوس، فانفتح الباب الحر لأبناء المسلمين أن يتعلموا.

الجمعيات الإسلامية ومدارسها

ولما تأسست المدرسة الإسلامية الحكومية وتحسنت بها أحوال المسلمين الثقافية، احتج المبشرون على ذلك بأن المدارس الحكومية من شأنها أن تتجرد

عن الشارات الدينية، فألغيت كلمة الإسلامية من اسم المدرسة، وبقيت حكومية، واختير ناظرها ومدرّسوها من غير المسلمين. فاستيقظ المسلمون على هذه المؤامرة، وعملوا على إنشاء الجمعيات التي تهتم بفتح المدارس الإسلامية، فتأسست جمعية أنصار الدين ١٩٢٣م، ثم الزمرة الإسلامية ١٩٢٦م، ثم جمعية نوار الدين ١٩٣٤م، ثم جمعية أنصار الإسلام ١٩٤٥م. فملأوا المدن والقرى بالمدارس الإسلامية، التي جعلت مهمتها تسليح أبناء المسلمين بالثقافة الإنكليزية التي أصبحت ضرورية لأبناء البلاد، مع الإلمام بمبادئ الدين، والتاريخ الإسلامي، وقد أعدت هذه المدارس الطبقة المثقفة من أبناء المسلمين الذين يشاركون أقرانهم المسيحيين في مختلف الميادين اليوم.

الأحمدية القاديانية في نيجيريا

اتصل الرعيل الأول من الطبقة النيجيرية المثقفة بالنشرات الإسلامية، التي تقوم بها الطائفة القاديانية في إنكلترا، فانساقوا وراءها واستقدموا مبشرها المسمى عبد الرحيم نيار إلى نيجيريا ١٩٢١، وادعى أن غلام أحمد القادياني هو المهدي المنتظر، فعارضه العلماء على هذه الدعوى وفندوها، ولكن تنظيمات هذه الجماعة ونشراتها أخذت بمجامع قلوب المثقفين فانتسبوا إليها، ولما وقفوا على دعوى مؤسسها للنبوة تراجع عنها الأكثرون، وأسسوا بدلها الجمعيات الإسلامية السالفة الذكر.

ثم انقسمت الأحمدية على نفسها قسمين: قسم يقول بنبوته وهم القاديانيون «صادر أنجمان»، وقسم يقول بمهدويته وهم لاهوريون، وإلى هؤلاء ينتسب أكثر النيجيريين الذين انتظموا في نظام الأحمدية، والجميع سواء عند المسلمين ما داموا يمتون إليه بصلة.

المدارس العربية الحديثة

المدارس الحديثة عبارة عن الإصلاحات التي ظهرت في أساليب التعليم بأوروبا، منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وامتدت إلى البلاد العربية في أواسط القرن التاسع عشر وعرفت في نيجيريا في أوائل القرن العشرين، وأول من جمع الأولاد للتعليم العربي بهذا الأسلوب هو «الشيخ محمد مصطفى أفندي» نزيل لاغوس ١٩٠٤م ومؤلف الكتاب المسمى «مفتاح اللغة العربية» للتعليم في إفريقيا الغربية، و«الشيخ عبد الكريم الطرابلسي المرادي» المتوفى بمدينة كانو ١٩٢٦م، والشيخ محمد اللبيب الملقب بتاج الأدب الألوري المتوفى ١٩٢٢م. غير أنهم كانوا يقيمون هذه المدارس في منازلهم ولم يخصصوا لها بناء خاصًا، لذلك زالت آثارها بموتهم، غير تاج الأدب الذي خلَّف تلميذه الشيخ كمال الدين، الذي ظل يواصل جهوده حتى تعاون مع الأزهر على إنشاء معهد في مدينة إلورن ١٩٦٤.

وأول مدرسة مبنية خاصة للتعليم العربي على النظام الحديث، هي مدرسة الشريعة الإسلامية، التي تعاون أمراء شمال نيجيريا على تأسيسها عام

١٩٣٤م في مدينة كانو، بقصد تخريج القضاة الشرعيين، وانتدب للتدريس فيها علماء من كلية غردون بالخرطوم، وأنجبت المدرسة النواة الأولى للطبقة المثقفة بالثقافتين العربية والإنكليزية في شمال نيجيريا. ثم أتاح الله لنا تأسيس مركز التعليم العربي الإسلامي في أغيغي ١٩٥٢م، فغير مجرى التعليم إلى الأسلوب الحديث في بلاد يوربا، والداهومي وغانا وساحل العاج، بالاقتباس منه مباشرة أو بواسطة المتخرجين منه، ومن هذا المركز اقتبس المعهد النيجيري للحاج مرتضى عبد السلام في أبادن سنة ١٩٥٧م.

هذا وقد انتشرت الآن معاهد عربية إسلامية في كل قُطر من أقطار غرب إفريقيا، بفضل الذين قصدوا بلاد العرب وأكملوا تعليمهم هناك، وعادوا إلى بلادهم يفيدون أغيارهم في السنغال ومالي وغينيا وغيرها.

ولبعض أفراد العلماء آثار ملموسة في هذا الميدان، أمثال الشيخ محمد ناصر القادري، والحاج محمد سنوسي دنتانا في مدينة كانو، والشيخ أحمد عربي في مدينة جوس، وأمثالهم في الداهومي كالحاج عيسى زوغو، والحاج عبد الله صالح بَرَكو، والحاج شئت ساكيتي، والحاج محمد بلي في طوغو، والحاج عثمان لادان في كوماسي بغانا.

ثنائية التعليم

لاشك في أن حالة مسلمي غرب إفريقيا تقتضي تقسيم التعليم لهم إلى

نوعين اثنين هما: التعليم المدني، والتعليم الديني. وإن كان العرب لا يحبذون هذه الثنائية بالنسبة لهم، فإنها فيما يتعلق بغرب إفريقيا ضرورية محتمة.

أما التعليم المدني، فيؤخذ من المدارس الإنكليزية أو الفرنسية التي تثقف المواطنين وتؤهلهم للوظائف الرسمية، والمناصب المدنية، وهو بمنزلة الفرض العيني[١] على كل مسلم كإنسان مواطن، وعليه إلى جانب ذلك أن يتعلم مبادئ دينه الضرورية فيكتفي بها في خاصة نفسه.

أما التعليم الديني فيؤخذ من المدارس العربية، والمعاهد الإسلامية التي تخرج المتخصصين، وتؤهلهم للمناصب الدينية، وهو بمنزلة الفرض الكفائي[٢] إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وعلى من قام به أن يتعلم مبادئ علوم دنياه الضرورية، فيكتفي بها.

يجب الاعتقاد بضرورة هذا التقسيم والاهتمام بالتعليم الديني، حتى لا يطغى عليه التعليم المدني، وإلا: فلا يمضي قرن واحد من الزمان حتى ينقرض من يتحمل المسئولية الإسلامية عن بصيرة وجدارة، فيخلو الجو للذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، فتكون الطامة الكبرى. مع

---

(١) الفَرْض العَيْني: هو مصطلح شرعي يتعلق بالواجبات في الإسلام، ويُقصد به أنه واجب على كل مسلم بعينه مثل: الصلاة والزكاة والصوم ولا يسقط عن الفرد لو قام به الباقون. (م).

(٢) الفَرْض الكِفَائي: هو مصطلح شرعي يتعلق بالواجبات في الإسلام، ويقصد به أنه واجب يسقط عن الفرد لو قام به الباقون مثل: الجهاد وغُسل الميت. (م).

أنه لم يتأخر المسيحيون عن إمداد الكنائس بالأساقفة الأكفاء ولا عن إمداد النصرانية بالمبشرين الذين يتخصصون للأعمال التبشيرية في معاهد خاصة أنشأوها في إفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا. أما المسلمون اليوم فلا يبالون بدينهم بقدر ما يهتمون بدنياهم.

الحكومات الاستعمارية

كانت الشركات التجارية في شواطئ إفريقيا صاحبة السلطة التنفيذية في عقد معاهدات الحرب والسلم مع ملوكها بالنيابة عن دولة هذه الشركات. ثم انتقلت السلطة إلى مكتب المستعمرات بعد التمكن والاستقرار، وفي سنة ١٩١٤م. تعين فريدريك لوغاد حاكمًا عامًّا على هذه البلاد، وأطلق عليها اسم نيجيريا، فتم بذلك جثوم كابوس الإنكليز على البلاد، ووضعوا أيديهم على القضايا الكبرى وتركوا المسائل الصغرى بأيدي الملوك في بلاد يوربا، وأيدي الأمراء في بلاد هوسا تحت مراقبة نواب الحاكم الإنكليزي في كل مديرية أو مقاطعة.

لكل ملك أو أمير مجلس الشورى الذي يتكوَّن أعضاؤه من رجال حاشيته لينظر هذا المجلس في الأحوال الشخصية، وبعض المعاملات وخلافات البيوع والعقارات وجمع الضرائب المفروضة على السكان.

وللحاكم الإنكليزي العام مجلس إداري يرأسه الحاكم نفسه، ويتكون أعضاؤه من الأوربيين وبعض الإفريقيين الذين يختارهم الحاكم حسب رأيه، وينظر هذا المجلس في شئون الصحة والمواصلات والمعارف والجيش والأشغال العامة والقضاء العالي.

وليس لهذا المجلس حق النظر في صرف الأموال ولا في سن القوانين، وإنما يجوز له إبداء الرأي فقط، وللحاكم حق الرفض أو القبول.

وانعقد في أكرا ١٩٢٠م مؤتمر اشترك فيه النواب من سائر مستعمرات بريطانيا بغرب إفريقيا، وبعثوا وفدًا إلى مكتب المستعمرات بلندن يطلبون:

أولاً: تأسيس مجلس تشريعي لكل قطر يكون نصف أعضائه إفريقيين.

ثانيًا: إعطاء الأهالي حق تعيين ملوكهم وأمرائهم.

ثالثًا: إلغاء الامتياز الأوروبي في الوظائف الرسمية كلها.

رابعًا: إعطاء الإفريقيين حق مراقبة جمع الضرائب وصرفها.

خامسًا: إنشاء جامعة في غرب إفريقيا، لتخريج الأفارقة.

بدء الوعي القومي

وافق مكتب المستعمرات على بعض مطالب مؤتمر أكرا، ونتيجة لذلك أُجري انتخاب لأول مجلس تشريعي في غرب إفريقيا ١٩٢٣م، وفي نيجيريا حيث

كان يتألف المجلس التشريعي المذكور من ٣٠ عضوًا. تختار غرف التجارة، وغرف المناجم، والبنوك، والملاحة خمسة عشر منهم، وينتخب أهل لاغوس العاصمة وملحقاتها ثلاثة منهم، ويعين الحاكم بقية الأعضاء حسب رأيه. وقد أُعْطي هذا المجلس حق إبداء الرأي في صرف أموال البلاد، وفي المشاريع الحيوية بالإقليم الجنوبي، على أن لا يسري مفعول هذا المجلس على الإقليم الشمالي، ولهذا المجلس لجنة تنفيذية، مؤلفة من الحاكم ونائبه في الشمال والجنوب والسكرتير الإداري ومديري المقاطعات، وعلى هذه الحال نشبت الحرب الثانية ثم ازدادت الأمة الإفريقية وعيًا وانتباهًا على أعقاب الحرب العالمية الثانية، فدوت أصوات زعماء غانا ونيجيريا بطلب الاستقلال فتجاوبت لها الأصداء من كل مكان، فأجبروا الإنكليز على إخراج دساتير ١٩٤٦م ينص على إعداد غانا وسيراليون ونيجيريا للحكم الذاتي ١٩٥٦، ثم للاستقلال نهائيًا ١٩٦٠م. وظهرت أصوات مماثلة لطلب الاستقلال في مستعمرات فرنسا.

ولم تجد فرنسا بدًّا من تعديل سياستها التي كانت تعتبر مستعمراتها في غرب إفريقيا جزءًا من فرنسا لا يتجزأ، فأعلنت استقلال السنغال ومالي وساحل العاج والنيجر والداهومي وغيرها. بعد أن عمدت إلى تمكين الأقلية المسيحية من السيطرة على الأكثرية المسلمة، خصوصًا في السنغال التي طبقت فيها سياستها الأولى في لبنان؛ حيث ينص الدستور على أن يكون رئيس الجمهورية مسيحيًا ورئيس الوزراء مسلمًا.

شاء الله أن يَعْدِل الإنكليز عن مثل هذه السياسة الفرنسية في وضع الدستور النيابي لنيجيريا، حتى تمكن المسلمون من الوصول إلى دكة الحكومة الاتحادية، وتمكنت الدول العربية الإسلامية أن تجدد صلاتها بأهالي نيجيريا فور إعلان استقلالها.

ويلات الأحزاب السياسية

علم الاستعمار ما للأحزاب السياسية من سهام في تشتيت شمل الأسرة الواحدة وما لها من معاول في تمزيق وحدة الأمة، وغرس الضغائن والأحقاد في نفوس أبنائها.

وما تثيره المعركة الانتخابية من التنافس والتعصب وهتك الأعراض والوعود الخلابة وانتشار الرّشا[1] لشراء الضمائر والأصوات، لذلك لم يتردد في تقديم الاستقلال إلى طالبيه من الأفارقة على المذهب الديموقراطي الذي به يختار الشعب حاكمه بنفسه، بدلاً من المذهب الأرستقراطي السابق للحكم الاستعماري في البلاد، وليس المذهب المختار بأقل وبالاً من المذهب المهجور على ما سيظهر من نتائج؛ لأن الحكومة تتألف من الوزراء وعليهم رئيس واحد. وكلهم يختارون من النواب الذين ينتخبون من السواد الأعظم، على رصيف الأحزاب السياسية التي تقوم على النزعات القبلية أو القومية، بل على المصالح الشخصية

(١) الرّشا: جمع رِشوة وهي ما يعطى بدون حق لقضاء مصلحة أو إحقاق باطل أو إبطال حق. (م).

لا الوطنية، وتضم أصوات الأبواق التي تصيح وتهتف من أجل النفع الخاص.

ألا يكفي ذلك كله لضرب بعض الأفارقة بالبعض، فيقف الاستعمار متفرجًا؟ ثم وجد المستعمرون من المبشرين أبناء البلاد خير خلف لهم فيها، إذا ما انسحبوا من ميدان السياسة فلهم من يخلفهم في مجال التطبيب باسم الصليب، ومن يخلفهم في مجال التعليم باسم المدنية، ومن يخلفهم في مجال الاستعمار باسم التبشير المسيحي، وتلك مجالات لا حجر فيها ولا حرج، لذلك كله هان على الاستعمار تسليم البلاد، وإيقاع البعض بالبعض، ثم القيام بنصرة أحد الطرفين على الآخر، ولو بالقوة المسلحة.

الأحزاب وتأليف الحكومة

نص الدستور على تقسيم حكومة نيجيريا إلى إقليمية ومركزية، لكل منهم مجلس الوزراء، والأقاليم ثلاثة: الشرقي والشمالي والغربي، ولكل حكومة إقليمية قاعدة ورئاسة، ومرجع الجميع الحكومة المركزية في لاغوس العاصمة.

ومن أجل الوصول إلى كراسي هذه الحكومة تألفت الأحزاب السياسية، وأولها: حزب المؤتمر القومي النيجيري الذي تأسس ١٩٤٥م، والذي تحالف مع الديموقراطي، الذي أسسه هابارت مكولي ١٩٣١م، ويرأس هذا الحزب أزيكوي من قبائل إيبو أكمل تعليمه في أميركا، ثم عاد إلى نيجيريا ١٩٣٧م، وبدأ ينفخ روح القومية في نفوس بني قومه، حتى صار بارزًا في سياسة غرب إفريقيا.

وكان يقوم هذا الحزب أولاً على محاربة الاستعمار في جميع صوره وأشكاله، وعلى تفضيل سياسة أميركا على سائر المستعمرين، وعلى التسامح الديني والتنويه بأمجاد الأسلاف المسلمين في غرب إفريقيا عمومًا وفي نيجيريا خصوصًا، لهذا اندفع وراءه أكثر الشباب المسلم في شمال نيجيريا فضلاً عن أبناء القبائل الأخرى في الشرق والغرب.

واستطاع هذا الحزب أن يصل إلى كرسي الحكم الإقليمي في شرق نيجيريا برئاسة هذا الزعيم القومي «الدكتور أنمدي أزيكوي».

وثانيهما: حزب الشعب الشمالي الذي تأسس ١٩٤٩م بقيادة أحمد بللو، وتنحصر عضويته في أبناء الشمال بأغلبية المسلمين وأقلية المسيحيين، ويقوم هذا الحزب على المحافظة على العقائد والتقاليد والعادات المحلية، واحترام الأمراء والعلماء، والانحياز إلى الشرق العربي الإسلامي، وقد تمكن هذا الحزب من الوصول إلى الحكم الإقليمي الشمالي برئاسة أحمد بللو، الحفيد الرابع للشيخ عثمان بن فودي.

ومن هنا التف الأمراء من ذرية أتباع ابن فودي حول حفيد سيدهم، كما كان أجدادهم يلتفون حول جده من قبل. وخُيِّلَ إليهم كأن بمجدهم الذي ضيعه الاستعمار يعود إليهم على رصيف الانتخاب ليصبحوا حكام البلاد، من الشمال حتى الجنوب الذي كان يصبو إليه أجدادهم.

ثالثها: حزب جماعة العمل الذي تأسس ١٩٥١م بقيادة رجل من قبائل يوربا، يدعى أوبافيمي أولوو، يدين بالمسيحية، ولكنه قد تمكنت فيه النزعة القبلية والعصبية الدينية والفكرة النفعية، ويقوم حزبه على المذهب الرأسمالي، والمبادئ الماسونية. ويتكون أعضاؤه من قبائل يوربا المسيحيين والمسلمين المغلوب على أمر دينهم بالنعرة القبلية والدعاية المغرضة، واستطاع هذا الحزب أن يقبض على زمام الحكم الإقليمي الغربي برئاسة هذا الرجل النفعي الماسوني، الذي يعتبر الغاية مبررة للوسيلة.

هكذا تمت الأوضاع في الأقاليم الثلاثة، وبقي الوصول إلى الحكومة المركزية فصارت الأحزاب الثلاثة تتنافس عليها، لما أجري الانتخاب الأول ١٩٥٩م، وكتب الله النجاح لحزب الشعب الشمالي، تعين بموجبه الحاج أبو بكر تفاوي بليوي رئيسًا للوزراء الفيدراليين؛ لأن الحاج أحمد بللو فضل البقاء في إقليمه، ورشح أبا بكر لينوب عنه في الحكومة المركزية.

وكان الحاج أبو بكر وَطنيًّا مسامحًا بكل معنى الكلمة، فسعى في تأليف قلوب الجنوبيين بأن دعاهم إلى مشاركته في حكومة ائتلافية وطنية، فامتنع الزعيم اليرباوي فاكتفى بجناح المعارضة فقبل الدكتور أزيكوي، فتعين بموجبه حاكمًا عامًّا، ثم رئيسًا للجمهورية، مع عدد من أعضاء حزبه في وزارات هامة تحت حكومة بليوي.

إلى جانب احتلال أبناء قبيلة أزيكوي لإدارة الجيش والبوليس والوظائف الخارجية كالسفارات والقنصليات، وقد تمكنوا بذلك كله أخيرًا من قلب الحكومة في الداخل ونشر الدعايات لأنفسهم في الخارج.

بواعث التوتر بين الجنوب والشمال

إن الأسبقية التي كان يتمتع بها الجنوبيون من قبائل أيبو ويوربا في الثقافة الغربية، حملتهم على التبجح والتغطرس أمام الشماليين الذين لم يضطلعوا إلا بالتعليم العربي الإسلامي، الذي لا يبوئهم المناصب العالية في الخدمات الحكومية، والغرف التجارية، والهيئات العامة، فانفسح المجال لقبائل إيبو ويوربا أن يحتلوا تلك المناصب في الجنوب، حتى في الشمال بالذات.

ثم إن الإقليم الشمالي يضاعف الجنوبي مساحة وسكانًا، فضلاً عن كون الجنوبي مقسومًا إلى الشرق والغرب، ومع ذلك يسعى الجنوبيون في السيطرة على الشماليين، ولقد تفطن الحاج أحمد بللو بما كان يبيته الجنوبيون من تذويب الشمال في بوتقتهم، والحصول على نصيب الأسد في كل شيء، لذلك ظل أحمد بللو ينادي منذ الساعة الأولى بالانفصال عن الموكب الغربي، إلى موكب الشرق العربي، غير أن بعض أنصاره عارضوه بأن ذلك توريط للإقليم في أزمات اقتصادية متضاعفة لانعزاله عن شواطئ المحيط التي يشرف عليها الجنوب الشرقي الغربي.

ولكن أحمد بللو ظل محتفظًا بهذه الفكرة، وظل يكرس جهوده على تقوية إقليمه ثقافيًا واقتصاديًا، وعلى تهيئة نهر النيجر للملاحة، وإنشاء الميناء والمحطة الكبرى، لتوليد الكهرباء الصناعية على ضفته، تفاديًا لما قد يحدث من التطورات في المستقبل، لذلك كله ظل يلتزم حدود إقليمه ويكتفي بما يكتسبه من الأصوات الانتخابية فيه، ولا يطلب شيئًا من إقليم آخر.

ولكن الساسة الجنوبيين لم يتركوا الشمال لأهله، كما تركوا لهم الجنوب، ومع ذلك ظل أحمد بللو هادئًا ضابط النفس لم يحرك ساكنًا، ولم يغير سياسته. وفي هذه الأثناء، كان التوتر شديدًا بين الشرق والغرب، يعني بين الزعيم أزيكوي والزعيم أولوو، وقد طارد الأخير الأول مرة من ميدان الانتخاب في الإقليم الغربي، ليتوجه توًا إلى إقليمه في الشرق، وألحق به أضرارًا بالغة في مختلف المناسبات مما حمل أتباع أزيكوي على إضمار الانتقام لزعيمهم كلما انتهزوا الفرصة لذلك.

ولم يكن يخطر ببال أي إنسان أن التوتر بين الشرق والشمال سيبلغ منتهاه في يوم من الأيام، لما كان بين الطرفين من الثقة المتبادلة التي مكنت قبائل إيبو في الشمال وضمت عددًا من أبناء الشمال في صفوف الحزب السياسي الشرقي تحت زعامة أزيكوي.

وإنما كان التوتر شديدًا بين الغرب والشمال لما كان عليه الزعيم الغربي من التعصب القبلي والديني معًا، وإيقاظ النعرة النائمة بين اليرباويين والفلانيين، الذين قتلوا أفنجا في إلورن، وطاردوا الملك الأفن من أويولي، وخربوا كثيرًا من مدن يوربا وأقاموا بدلها مدينتهم، وحكومتهم باسم الإسلام، وقد حمله هذا التعصب على بغض العرب والمسلمين جميعًا، وكان أول من استدعى اليهود إلى إقليمه وأشركهم في مؤسساته، ليوازن بذلك كفة أحمد بللو، الذي كان يستميل العرب ويواليهم ويحضر مؤتمرهم كل سنة في مكة، وعبثًا بذل هذا الزعيم اليرباوي أقصى جهده للوصول إلى رئاسة الحكومة المركزية، ولما خاب سعيه، ويئس من رصيف التصويت والاقتراع صار يبيت السوء ويحيك المؤامرة لقلب الحكومة المركزية على الحاج أبي بكر تفاوي بليوي، فأظهر الله الشر الذي كان يكتمه، وقبض عليه وحوكم وأدين بالجريمة وقضي عليه بالسجن عشر سنين. ومن هنا انقسم حزبه «جماعة العمل» على قسمين، قسم يتحمس لهذا الرئيس المعتقل في السجن وقسم يتحمس لنائبه صمويل أكنتولا، الذي انحاز مع القسم الأكبر من قبائل يوربا، إلى موالاة الإقليم الشمالي، فاعتبره القبليون خائنًا لقبيلته؛ لأنه خضع لقبائل هوسا، كما اعتبره الصليبيون خائنًا لدينه؛ لأنه خضع للمسلمين، فصاروا يبيتون له السوء، فغير الشرقيون سياستهم فجأة، وجعلوا يتظاهرون بالعطف على قضية الزعيم اليرباوي المعتقل، لكسب موالاة أتباعه من اليرباويين، حتى يستطيعوا أن يشكلوا جبهة واحدة، لتنفيذ قلب الحكومة حسب إرادة الزعيم اليرباوي المعتقل، مع أن الدكتور أزيكوي لا يزال رئيسًا للجمهورية، ولا يزال

عدد من قبائله يشغلون من مناصب الوزارات ما يقارب النصف، وفي هذه الأثناء جاء دور الانتخاب الإقليمي في الغرب، واكتسح الحزب الموالي للشعب الشمالي تحت رئاسة أكنتولا أغلب الكراسي فعاد إلى رئاسة الحكومة، فأوعز قبائل أيبو إلى أنصارهم في الأقاليم أن يعلنوا اعتراضهم على نتيجة هذا الانتخاب بأعمال العنف، وإثارة القلق والاضطراب كنسف المباني والسيارات الخاصة، والتمثيل بمؤيدي خصومهم على مرأى القوى البوليسية التي تشكل الأغلبية من قبائل إيبو، توهينًا لقوة الحكومة، وتمهيدًا لتنفيذ الانقلاب وتوسلاً لكسب تأييد الشعب وتبريرًا لإقامة الحكم العسكري بعد إسقاط الحكومة الإسلامية كما يسمونها.

اغتيال الزعماء الشماليين

تمت المؤامرة السرية بين قبائل إيبو، وأتباع الزعيم المسجون من قبائل يوربا، الذين أشعلوا نار الفتن، ثم هربوا وأوعزوا إلى الجنود الشرقيين أن يقوموا بذلك الانقلاب الجائر، الذي اغتالوا فيه أحمد بللو، وأبا بكر تفاوا بليوي من المدنيين الشماليين، واللواء زكريا ملاري، والكولونيل محمد قرو، والليفتنانت يعقوب فام من العسكريين الشماليين، ولا تسأل عن الضحايا المجهولين، كما اغتالوا رئيس وزراء الإقليم الغربي صمويل أكنتولا واللواء أديمو ليغون، وسائر الذين يوالون الشماليين في مختلف الأقاليم، وكان ذلك في منتصف يناير ١٩٦٦م، وفي شهر رمضان.

إنَّ الذين تَولوا قتلهم سَفَهًا لقوا آثامًا وخُسْرانًا ومَا رَبِحُوا

وكان قد تستر رئيس الجمهورية أزيكوي بلندن، في إجازة مصطنعة. ومن هناك أملى على نائبه أن يسلم الحكومة للجيش ريثما يعود الأمن والاستقرار إلى البلاد. وكان القائد الأعلى لقوات نيجيريا المسلحة يسمى أرونسي، وهو من قبائل إيبو، ومن الأفكار التي دبرت المؤامرة الدموية، فاستلم الحكم وأصبح رئيسًا للحكومة العسكرية بنيجيريا. فظن قبائل أيبو أن قد خلا الجو لهم، ليحكموا البلاد حسب رغبتهم، ولا يشاركوا معهم غيرهم، حتى الغربيين الذين تعاونوا معهم على تنفيذ الخطة الجريمة، ورموا بقضية الزعيم اليربوي المسجون، الذي كانوا يعطفون عليه في قسم المهملات، وأعرضوا عن اتخاذ أي إجراء ضد المجرمين الذين اغتالوا أولئك الزعماء الأبرياء.

وأصبح أرونسي على إثر استلامه للحكم فورًا يسلك مسلك الحكام المستبدين، ويصدر بيانًا إثر بيان دون أي تشاور أو تفاوض مع غير أبناء قبائله، وألغى النظام الإقليمي، ووحد الخدمات العامة، تمهيدًا لتعيين أبناء قبائله ولاة في مختلف الأقاليم. وأصبح قبائله يقيمون حفلات الانتصار على القبائل الأخرى في كل مكان. ويرددون الأغاني التي تشيد ببطولة «أنزيغو» قاتل أحمد بللو، ويسجلون شتائم أحمد بللو وأكنتولا في الأسطوانات، يذيعونها في الطرقات العامة.

بلغ استفزازهم عواطف الشماليين ومواليهم غايته ومنتهاه، ثم حاولوا أن يسبقوا ردود هذه الأفعال بتجريد الجنود الشماليين من أسلحتهم في مدينة أبيكوتا وأبادن ولاغوس، فأثاروا حمية الضباط الشماليين الذين منهم: محمد مرتضى ومحمد شو وغيرهما من الذين قاموا بضربتهم القاضية التي أطاحت بحكم أغوي أرونسي وقبيلته، والمشتركين معهم في الانقلاب الأول في الإقليم الغربي ولاغوس، ماعدا الليفتنانت أوجوكو الحاكم العسكري بالشرق. ولقد أفلت من أيدي المنتقمين لأن برنامج العملية لم تشمل إقليمه الشرقي.

كان يعقوب غوان المسيحي يتقدم على الضباط المسلمين الذين زاولوا العملية الناجحة، فرأوا أن من الحكمة أن يعينوه قائدًا للجيش ورئيسًا للحكومة العسكرية حسمًا للانشقاق السياسي والديني الذي قد يحدث في صفوف الشماليين.

وأسرع يعقوب غوان إلى الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين، بما فيهم الزعيم اليرباوي أوبافيمي أولوو، ثم أشركه في الحكم، ووجه الحاكم العسكري «أوجوكو» نداءه الحماسي إلى جميع أبناء قبيلته في سائر الأقاليم أن يهاجروا أماكنهم إلى إقليمهم الأصلي، في الشرق فاستجابوا له على الفور.

وهناك قرروا أن لا يتعاونوا مع حكومة غوان، وأن ينظموا مخططات عديدة للانتقام، وأخذ الثأر من قتلة أرونسي، وعبثًا استفرغ الرئيس يعقوب غوان

وسعه في دعوة أوجوكو إلى المفاوضة مع حكام الأقاليم الباقين فيما يُنجي البلاد من هذه المشاكل والأزمات السياسية، ويقودها إلى الاستقرار والأمن والرفاهية. ولكن أوجوكو أَصَمَّ أذنيه عن النداء، وأدار ظهره إلى جميع الملوك الذين توسطوا بين الطرفين لإيجاد التفاهم.

قيام الحكومة الانفصالية في بيافرا

استغل قبائل إيبو مناصبهم في الوظائف الدبلوماسية كأبواق الدعاية، لاستعطاف عواطف الدول الغربية بأسرها على قضيتهم. واستغلوا كنائسهم الكاثوليكية للاستغاثة بالكنائس العالمية، عن طريق البابا وجمعية الصليب الأحمر، التي ظلت تبعث الأسلحة والجنود المرتزقة، في صورة الإغاثات والمواد الغذائية والصحية إلى منكوبي الحرب في ما يسمونه حكومة بيافرا، بينما كان يعقوب غاوان يدعو إلى التفاوض والتفاهم للتعايش السلمي. كان الكولونيل أوجوكو يدعو قبيلته إلى التعبئة الكبرى للسيطرة على نيجيريا، أو للدفع بها إلى الدمار.

ولما تم له التزود بالأسلحة الحديثة المدمرة، وجمع الجنود المدربة المرتزقة، وحصل على تأييد أكثر الدول الكبرى سرًّا، وأكمل الإجراءات التي يتم بها الانفصال عن نيجيريا، والاستقلال تحت حكومة بيافرا، وحدد لإعلان انفصاله شهر مايو ١٩٦٧م، أسرع يعقوب غاوان إلى تقسيم إقليمه الشرقي إلى ثلاث

ولايات، لتنحصر قبائل إيبو في ولاية واحدة، وتنعزل عن القبائل الأخرى في ولايات مستقلة. كما عمد إلى تقسيم الإقليم الغربي إلى ثلاث ولايات والشمالي إلى ست ولايات وصار الجميع اثنتي عشرة ولاية، وعين على كل ولاية حاكمًا عسكريًّا.

فقامت قبائل إيبو بسلسلة من الاعتداءات الجوية والبرية، على العواصم الشمالية والعاصمة الفيدرالية، فقام الجيش النيجيري لرد الاعتداءات. وهكذا بدأت الحرب الأهلية التي انكشفت عن مؤامرات دولية وحروب صليبية، وخيانات صهيونية، مما لا يخفى على المخلصين المراقبين لهذه الحرب التي ظهرت فيها صداقة العرب والمسلمين لإخوتها الإفريقية المسلمة.

وفي الطليعة: الجمهورية العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، والجمهورية الجزائرية ثم كمرون ونيجر. ولقد ضربوا أروع الأمثلة للبطولة والإخلاص ومناصرة الحق، حتى خرجت نيجيريا من هذه الحرب منتصرة، ولسان حالها يقول:

جَزَى اللهُ الشَّدَائد كُلَّ خَيْرٍ عَرَفْتُ بهَا صَدِيقي مِنْ عَدُوِّي

من أسرار حربنا الأهلية وبواعثها

إن أسباب هذه الحرب تقوم على عوامل كثيرة من بلاد يوربا، وبلاد إيبو، وأهمها العاطفة الدينية والنزعة القبلية.

لقد أوضحنا في الفصول السابقة بعض ما بين قبائل يوربا الكافرة وبين المسلمين في مدينة إلورن، من حروب حامية الوطيس التي لم تهدأ إلا عند بدء الاستعمار، وما هيجته القبلية والمسيحية من العقابيل[1] التي نفخها الزعيم اليرباوي أولوو، وإن هذا الزعيم بالذات هو الذي وضع خطة لقلب الحكومة الفيديرالية على الشماليين أولاً قبل أن تنفذها قبائل إيبو.

غير أن الصلات الدينية والثقافية والتجارية التي تربط قبائل هوسا في الشمال مع قبائل يوربا في الغرب، قد ساعد على تخفيف هذا التوتر، وأدخل فرجة الانشقاق على حزب جماعة العمل، التي دبرت المؤامرة أولاً ففشلت في مهدها.

على حين أن عدم وجود أمثال تلك الصلات بين قبائل إيبو وهوسا، مما أبعد شقة الخلاف، وضاعف الخصومات، وأيقظ الفتن، إذ لم يذكر أحد من المؤرخين تاريخ قبائل إيبو في الكتب العربية قبل الاستعمار، ولا في الكتب الإنكليزية بعد الاستعمار.

لذلك لا يعرف عنهم شأن يُذْكر قبل مائة سنة من زمننا هذا، ويظهر عليهم أنهم من القبائل البدائية التي تعيش في أحياء متفرقة، لا تجمعها حكومة متحضرة، وإنما يكون لكل أسرة رئيسها وبلدها، ومن قائل أنهم من بقايا البوشمان

(١) العقابيل: بقايا العداوة. (م).

الذين طردتهم قبائل البانتو من أواسط إفريقيا إلى جنوبها، فانتشروا في الغابات الاستوائية المجاورة لبلاد بنين. ولقد ضمها الإنكليز إلى قبائل يوربا وهوسا، بحكم الجوار والمصلحة السياسية التي قضت على النزاع الدولي القائم حينذاك، بين دول أوروبا في سواحل غربي إفريقيا.

دخل التبشير الصليبي إلى نيجيريا، فوجد لعمله مرتعًا خصيبًا في بلاد إيبو، إذ لم يلق بها مقاومة إسلامية، كما لقيها في بلاد هوسا، ومعظم بلاد يوربا. ولم يكن لقبائل إيبو أي تردد في التجاوب مع النصرانية الصليبية فرحبت بالكاثوليكيين الأميركيين اليهود، فتم لهذا الثالثوث الفتح المبين في بلاد إيبو، وفتحت أميركا أبواب بلادها لقبائل إيبو، فانجرف سيل عرم من أبناء هذه القبائل الذين ينساقون وراء الثقافة الأميركية، وحضارتها وحريتها، فأكبوا عليها ينهلون بِنَهَم حتى ضربوا فيها بنصيب أوفر، وكادوا يفوقون أبناء القبائل الأخرى، وضربوا معهاً بسهم من تعاليم اليهود وارتووا من معينها حتى ثملوا، فتبلورت في أذهانهم فكرة الماسونية اليهودية، فطفقوا يمارسونها بين قبائلهم الخاصة، لا سبيل لغيرهم أن يفهموا أسرارها.

وأنشأوا سنة ١٩٤٤م منظمة شبه سرية باسم اتحاد ولاية أيبو يرسمون فيها بروتوكولات سيطرتهم على القبائل الأخرى في نيجيريا ثم في إفريقيا، وورثوا من الكاثوليك بُغْضَهم وكراهيتهم للإسلام خصوصًا وللعقائد الأخرى عمومًا، فلم يتركوا مجالاً في بلادهم لأية كنيسة غير كاثوليكية فضلاً عن المساجد الإسلامية،

ولم يسمحوا فيها لأية مدرسة غير تبشيرية فضلاً عن المدارس العربية والقرآنية.

تعلموا من وسائل الاستعمار الأميركي مبدأ الأثرة في سياسة ملء الوظائف الشاغرة في الدواوين الحكومية، والمؤسسات التجارية. فانتهزوا فرصة سابقتهم في التعليم الغربي، فاحتلوا جميع المناصب العالية، والمكاتب الرسمية، والغرف التجارية في الشمال «بلاد هوسا» وفي جزء كبير من بلاد يوربا، على حين أن لا سبيل لغير قبائل إيبو أن يحتل مكانًا مماثلاً لذلك كله في بلاد إيبو.

تعلموا من الإنكليز سياسة إيقاع الشقاق بين القبائل الأخرى، ليتمتعوا بالوحدة والوئام، فتتم لهم السيادة على حد سياسة «فَرِّق تَسُدْ»، فحرشوا بين قبائل يوربا، وأغروا بعضهم ببعض عقب انتخاب ١٩٦٥م. ومن أجل السيطرة على الاقتصاد التجاري، أنشأوا سوق الاحتكار في كل مكان استراتيجي، وكانوا يستخدمون نفوذ المناصب التي احتلوها، لتسليف الأموال الطائلة من البنوك لاستيراد البضائع الرائجة من وراء البحار، أو لشرائها بالجملة من الغرف التجارية الكبرى في نيجيريا، ثم بيعها كيفما يريدون، ولكي تتم لهم السيطرة السياسية، توزعوا في مختلف المدن والأرياف، وكانوا يترنَّمون بكلمة نيجيريا واحدة، ليستطيعوا أن يرشحوا أبناء قبيلتهم، ومن يواليهم في كل إقليم، على حين أنهم أغلقوا أبواب بلادهم دون أي قبيلة أخرى. هكذا تطالب قبائل إيبو بنصيب الأسد لأنفسهم في كل ميدان، توهموا المقارنة بين قوميتهم وقومية الفلانيين من قبل، فانبثوا في كافة أرجاء نيجيريا، كما انبث الفلانيون في أرجاء هوسا.

ثم استسلموا لقيادة أزيكوي أولاً، ثم خلعوا طاعته وتبعوا ميكيل أوبارا؛ لأن الأخير كان أكثر من الأول تحمسًا، كما استسلم الفلانيون للشيخ عثمان بن فودي، ولكن شتان بين الدعوة القائمة على أساس توحيد الله وعبادته، والتصديق برسل الله وهدايتهم والعمل على نشر العدالة والمساواة، وبين الدعوة القائمة على التثليث في ذات الله، والتفريق بين رسل الله، أو القائمة على حب الفساد، واستعباد العباد، واستغلال البلاد، وشتان بين القيادة التي يصحبها التوفيق الإلهي وترعاها العناية الربانية، وبين القيادة التي تعتمد على الدعاية المغرضة والمكر والتحريش.

أبى الله إلا أن يئوب مساعي قبائل إيبو كلها بالفشل الذريع. وأبى الله إلا أن يصطلوا لظى النار التي أشعلوها، وأن يقعوا في الهوة التي حفروها، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام/ ٤٥].

فعسى أن تأخذ قبائل يوربا عِبرًا بالغة، من هذه الواقعة المريرة، وأن تعلم أن الحرب التي أكلت الأخضر القوي، مثل قبائل إيبو، يجب أن يجتنبها اليابس الضعيف، مثل قبائل يوربا. وعليهم أن يعتبروا بغيرهم، وأن يتوبوا من النفاق والشقاق، وإيقاظ الفتنة مرة أخرى.

كما عسى أن يعتبر المبشرون الصليبيون بنتائج هذه الواقعة التي ظهرت على عكس ما كانوا يتوقعون، وأن يعلموا أن للإسلام ربًّا يحميه، ويعصمه من

كيد أعدائه المعتدين، مهما يبلغون من القوة والعدة.

من أسباب انتصار نيجيريا على بيافرا

يعلم الأصدقاء والأعداء جميعًا أن نيجيريا لم تنتصر بالأسلحة ولكنها بعون الله تعالى على أنه لم يزل مسلمو غرب إفريقيا يعتقدون بتأثير الصلوات والأدعية والأذكار على الكائنات لذلك لا يتركونها في كل حال من أحوالهم فدائمًا يقدمون النوافل بالصلاة والصيام والأذكار والصدقات على كل مساعيهم. وَلَمَّا فوجئ العالم باغتيال أحمد بللو وأعوانه تعطلت حواس المسلمين جميعًا في نيجيريا وما حولها لمدة ثلاثة أشهر وغاب عنهم فكرهم، ولما عاد إليهم صوابهم دعا أمراء المسلمين في الشمال إلى عقد اجتماع جمعية نصر الإسلام، فاجتمعوا في «كادونا» وهناك قرروا إعلان أسبوع الصيام والاعتكاف في المساجد لأداء ختمات من القرآن في كل بلد وفي كل قرية في الإقليم الشمالي للتوسل بذلك إلى الله أن يكشف عن المسلمين ما حل بهم وأن ينصرهم على أعدائهم ففعلوا ذلك ثم قاموا بالانقلاب الثاني الذي قضوا به على حكم أرونسي الغادر.

ثم لما أعلن أوجوكو انفصاله وقامت الحرب الأهلية طلب زعماء الجيش النيجيري إلى الأمراء المسلمين أن يعاونوهم بالدعاء مرة أخرى كما فعلوا سابقًا.

ثم اجتمع الأمراء وأعلنوا أسبوع الصيام والاعتكاف مرة أخرى فنصرهم الله على بيافرا التي اغترت بالأسلحة الحديثة والجنود المرتزقة ولكنها لا تملك

الأدعية والصلوات والأذكار التي يملكها المسلمون.

المسلمون الذين خاطبهم الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال/ ٤٥].

وهم الذين ظل نبيهم يدعو ربه ليلة بدر ويسأله النصر بإلحاح حتى قال له أبو بكر: «يا نبي الله كفاك وقد ألححت على ربك وسينجزك ما وعدك».

وهم الذين جاء في تاريخهم أن سيدنا عمر أرسل إلى ابن العاص وجنوده عندما تأخر عليهم فتح مصر أن يجتمعوا يوم الجمعة وأن يتطهروا ويصلوا ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم ففعلوا ذلك ففتح الله عليهم.

وهل يمكن للعرب أن يجربوا هذا السلاح مع إسرائيل؟ ويعلنوا صيام شهر على العالم الإسلامي كله لطلب النصر من الله؟

❁ مشاكل المسلمين الحاضرة

للمسلمين في غرب إفريقيا مشاكل مماثلة لمشاكل إخوانهم، في سائر أنحاء العالم، ومشاكل مغايرة ومضاعفة، تزيد طينهم بلة.

منها: مشكلة القيادة، وهي فقدان القيادة التي تجمعهم تحت راية، وتوحد صفوفهم وراء خليفة، أو إمام يتكلم بلسانهم، ويحمي ذمارهم، ويدافع عن حقوقهم.

الجمعيات الإسلامية موزعة في مختلف الأغراض والاتجاهات.

والطوائف الصوفية متعصبة لمختلف المشايخ والطرائق.

ثم جاءت الأحزاب السياسية تفكك جميع الجبهات والاتحادات.

وأول محاولة لتنسيق الجبهات الإسلامية حدثت عام ١٩٤٨م باسم مؤتمر نيجيريا الإسلامي، قام بها الحاج أمين كودايسي من جبودي، ولكنه ارتكب غلطة كبرى، بتحويل المؤتمر إلى حزب سياسي، قبل تمام استقراره، فتعرض لضربة

حزب جماعة العمل، وهو حزب الحكومة القائمة حينذاك بالإقليم الغربي، الذي امتنع أن يقوم حزب على أساس الدين والعقيدة؛ حتى لا ينسحب المسلمون من حزبه إلى حزبهم، فتحامل على المسلمين حتى انحل حزبهم. ثم أنشئ المجلس الإسلامي سنة ١٩٦١م؛ لتوحيد الجمعيات الإسلامية في لاغوس، وتعاقب على رئاسته المحامي الكبير محمد الأول أوغسطو، ثم الحاج عبد الوحيد إلياس، ولم يتعد حدود لاغوس. وللأستاذ كامل الشريف السفير الأردني في نيجيريا جهود في هذا الميدان وهو الذي ساعد على إنشاء رابطة الأئمة لتنظيم شؤون المساجد، في الإقليم الغربي ١٩٦٤م، وأسس المرحوم أحمد بللو جمعية نصر الإسلام، لتوحيد مسلمي الشمال والجنوب، ولكن المنية حالت دون تحقيق ذلك على يده، إلا أن الجمعية لا تزال مؤمَّل المسلمين الشماليين.

ثم جاء تقسيم الشمال إلى ولايات، مرجعها مركز الاتحاد مع الصليبيين في لاغوس، فصار المسلمون يتفكرون فيمن يوحد صفوفهم، وينتظرون بفارغ الصبر الزعيم الذي يقضيه الله للأخذ بأيديهم، ولكن لو هب الأمراء جميعًا، وأعادوا تنظيم صفوفهم وراء واحد منهم قدير، لما وجدوا كبير عناء في استرداد مجد الإسلام الضائع، في هذه البلاد، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد/ ٧].

مشكلة الغزو الثقافي

لقد غزت الثقافة الغربية بلاد العرب أولاً، قبل أن تغزو بلاد الإسلام، فهانت على العرب ثقافتهم ولغتهم وديانتهم، إلا قليلاً من المؤمنين منهم، وليس أدل على ذلك أكثر من إقبال كثير من المثقفين العرب على من يتكلم معهم باللغة الإنكليزية أو الفرنسية، دون من يتكلم معهم بالعربية، من غير أبنائها، ويحتجون على ذلك بما لا مبرر له من الحجج الواهية عند من يحبون العربية.

فماذا نقول لأبناء العرب الذين يسبحون بحمد من يتعلمون الإنكليزية أو الفرنسية في غرب إفريقيا، وينفرون عن العربية من يتعلمها، بحجة الإشفاق على معيشتهم في المستقبل لأن العربية لا تُدِر لهم أرزاقًا، ولا تغنيهم ثقافة في هذه البلاد، فهل رأينا إنكليزيًا أو فرنسيًا غير داع متحمس لتعليم لغته؟ وماذا نقول لأبناء العجم الذين هجروا الثقافة الإنكليزية أو الفرنسية في بلادهم، وتحمسوا للثقافة العربية، حتى قصدوا بلاد العرب من أجلها، ثم أدركوا أبناء العرب يقدسون ما هجروه في بلادهم، ويتأففون مما هم أتوا لأجله، إن في ذلك بلاءً في العربية عظيمًا.

مشكلة المجافاة بين المثقفين

تشتد المجافاة بين أصحاب الثقافة الإسلامية، والثقافة الغربية؛ حيث ينظر أحد الطرفين إلى الآخر نظرة ازدراء واحتقار. وذلك إما لكون إحدى

الثقافتين أو كليهما أبتر من أحد الجانبين، وإما لمعاداة إحداهما للجهل بها، وقد قيل: «من جهل شيئًا عاداه». ولو أن أصحاب الثقافة الإسلامية أخذوا بنصيب من الثقافة الغربية، ولم يجهلوا بما هو الضروري لهم أن يعرفوا لسايروا الركب، أو أن أصحاب الثقافة الغربية احتفلوا بالثقافة الإسلامية، ولم يتخبطوا فيها خبط عشواء لذاقوا حلاوة الإيمان.

على أن كون هذه أو تلك بتراء مما عمت به البلوى في العالم الإسلامي، أو كون إحداهما تشن حربًا شعواء على الأخرى مما يهدد السلام العام بين الدين والدنيا.

أما المشاكل التي يعانيها المسلمون في غرب إفريقيا بوجه خاص فهي كالآتي:

مشكلة إسناد الأمر إلى غير أهله

ترتع هذه المشكلة في مرتع خصيب بالمجتمع الإسلامي ببلاد يوربا، وذلك بتولية الجهلاء منصب الإمامة بحكم الوراثة المحدودة في بيوت الذين عملوا على نشر الإسلام لأول مرة في البلد، بِغَضّ النظر عن كون الإمامة في الإسلام، على شروط يجب استيفاؤها فيمن يتولاها.

والإمام الجاهل ضال مضل في الحديث: «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، وذلك بتدخل الأمراء والأغنياء في تعيين الإمام الذي يكون

طوع أمرهم ورهن إشارتهم، لا من ينصحهم ولا يخشى إلا الله.

مشكلة العصبية القبلية

هذه العصبية القبلية التي فتحت عيون كل قبيلة على مناقب نفسها، ومثالب غيرها في العادات والتقاليد، وغرست في قلب كل قبيلة إيثار نفسها على غيرها في كل مجال حتى في الدين. فترى مسلمي هوسا يستنكفون أن يصلوا خلف إمام يورباوي، حتى ولو كانوا في بلاد يوربا.

لهذا كانت الجاليات الهوساوية تعتزل الأواسط اليرباوية في حي خاص، يدعى سابنغري، أو زنغو؛ حيث تحتفظ بتقاليدها، وتقيم شعائر دينها وراء إمام هوساوي. وفي حالة عدم تمكنهم من هذا يتركون صلاة الجماعة بتاتًا ويصلون أفذاذًا، ويبررون تصرفهم هذا بنقائص أَحْصَوْها على قبائل يوربا.

منها بقاء الرواسب الجاهلية والتقاليد الكفرية بينهم، كإقامة مأتم السبعة لموتاهم، والحداد الطويل لمن يموت منهم في سن مبكرة، أو عمل هذا المأتم وليمة، إذا كان الموتى شيوخًا وعجائز وخلفوا أولادًا.

ومنها عدم توفر أكثر أئمتهم لشروط الإمامة كما تقدم، ومنها عدم ضرب الحجاب على نسائهم، وإطلاق سراحهن للبيع والشراء في الأسواق، والاختلاط بالرجال في المجتمعات.

ومنها تشبه أكثرهم بالنصارى، كإخفاء أسمائهم الإسلامية بالرموز، والإظهار والتنويه بأسماء أجدادهم الوثنية، وذلك بتحريض التبشير الصليبي كراهية لإظهار معالم الإسلام فيهم، أو كإقامة الحفلات أيام الآحاد، أو نحو ذلك من التقاليد النصرانية. لهذا قال شاعرهم مَالَم زمعة ابن إمام مدينة بوشي في بعض قصائده:

ولا عَيْب في يُورْبَا سِوى أن دينَهُم كَدِينِ النَّصَارى لا كَدِينِ مُحَمَّد

ويشعر مسلمو يوربا باستخفاف مسلمي هوسا بإسلامهم، فيستمرون في أحوالهم، لذلك كله لم يتيسر حتى الآن اتفاق الفريقين على شيء، بل رضوا بأن يكونوا طرائق قِدَدًا[1]، يعمل كلٌّ على شاكلته وكل حزب بما لديهم فرحون.

بينما يتمتع رجال الكنائس بالوفاق والوئام، لا فرق بين الجنوبيين منهم والشماليين، ولا بين قبيلة وقبيلة، بل كلهم يد واحدة على من سواهم. بذلك استطاعوا أن يضاعفوا جنودهم في الدعاية التبشيرية، من يوم رأوا على رأس الحكومة الفيدرالية مسلمًا يتلقب بالحاج، ويلبس على رأسه العمامة، ويلتف حوله عدد من الوزراء المسلمين، وكان يسوؤهم دائمًا أن المساجد لا تزال عامرة ممتلئة في الجُمَع والأعياد، وأن عدد الحجاج لا يزال يربو على ما قبله كل عام،

(١) قِدَدًا: متفرقين. (م).

وأن مجالس الوعظ لا تزال تُعْقد في رمضان.. تلك هي المظاهر التي تذمر منها الصليبيون، وحسبوها قوة إسلامية باهرة، فسعوا جاهدين في توهين هذه القوة بكل الوسائل، حتى قاموا بالانقلاب الأول، واغتيال الزعماء المسلمين، ليصبحوا رعية بدون راع، فاغتنم الصليبيون هذه الفرصة للانتشار في كل مكان لإنشاء المراكز، وتشييد الكنائس، وتعمير المستشفيات، وفتح المدارس والكليات، وتوزيع الجرائد والمجلات، وإذاعة الأناجيل في المحطات بمختلف اللغات... كل ذلك يجري، والمسلمون في التدابر والتحاسد والتباغض:

لِمِثْل هَذا يَذُوب القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ   إنْ كَان في القَلْب إِسْلامٌ وإيمَان

حاضر الإسلام ومستقبله في إفريقيا

تلك شذرات من أخبار من تقدموا في بلاد السودان من الأبطال الذين خدموا الإسلام وغرسوا ثقافة العرب في أرض العجم حتى أحب أهلها العرب لمحبتهم النبي العربي وقدسوا اللغة العربية لتقديسهم القرآن العربي وبذلوا كل ما في وسعهم لرفع راية الإسلام في بلادهم ولم يتخلفوا عن ركب الحضارة في زمانهم بل صنعوا ما كتبه التاريخ في صفحات من أمجاد وكرامات.

ومرت قرون عشرة على مجد الإسلام في غرب إفريقيا ثم أغار عليها الإفرنج بِخَيْلِهم ورجلهم يهدمون كل مبان إسلامية ويبنون على أنقاضها صروحًا صليبية ولم يمر قرن واحد من الزمان حتى ظهرت معالم الصليب على معالم الهلال وارتفعت بروج الكنائس على منارات المساجد، ودَوَّت رنات النواقيس على أصوات المآذن.

فقام المؤمنون بالمناورات والمناقشات حتى فنيت أسلحتهم وذخائرهم أمام الأسلحة والذخائر المتواصلة إلى الأعداء كل يوم وكل شهر وكل عام ومن هنا جعل المؤمنون يصيحون..!

أين العرب المكَلَّفون قبل أي إنسان آخر بحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم وهم أقدر الناس على حمايتها والدفاع عنها في أم القرى وما حولها وفي مشارق الأرض ومغاربها وهم المخاطبون مع النبي في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف/ ٤٤].

ولكن ما حل بالعرب أعظم وأَجَلّ مما حَلَّ بالعجم ولهذا لا يهتمون إلا بأنفسهم فلم تكن غرب إفريقيا المستغيثة بالعرب إلا كمن أُصيب داره بالحريق فأسرع إلى البئر أو البحر ليأخذ منه ما يطفئ به الحريق، فوجد فيه نارًا تلتهب، أو كالمريض الذي أحس بالوجع فهرع إلى الطبيب فأدركه يحتضر.

ولولا أن الله أبقى في كل عصر وفي كل مصر من ينتصر للحق لما بقي في الأرض من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

العرب قاطرة الإسلام والعجم حافلته، ولا يمكن أن تتحرك الحافلة إذا سكنت القاطرة.

والعرب قلب الإسلام، والعجم جسده، ولا يمكن أن يصلح الجسد إذا فسد القلب، العجم أدرى بأساليب الدعوة في بلادهم، ولكنهم بحاجة إلى مساعدة العرب ولا تتمكن الدول الإسلامية أن تطبق الشريعة إذا عطلتها الدول العربية ولا يتمكن الطلاب الأفارقة أن يكونوا متمسكين بالإسلام ومحافظين على الصلوات إذا كان أساتذتهم العرب مهملين ضعفاء الإيمان هكذا..!

وما هو مستقبل الإسلام والحالة هذه...!؟

الدعوة الإسلامية اليوم مسكينة..!

إن نجاح عملية ما من جميع العمليات متوقف على التفكير قبل التدبير وعلى التخطيط قبل التنفيذ وعلى الدراسة الدقيقة للبيئة والمجتمع قبل العملية.

هذا أول ما يدرسه المبشرون قبل البدء بالتبشير في أي قطر وفي أي مصر ثم إن نجاح دعوة من الدعوات متوقف على بذل النفس والنفيس والتسامح والتودد والاهتمام بشأن الفرد كالجماعة والبادي كالحاضر، وذلك ما يفعله أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية والاقتصادية حتى انتشرت مذاهبهم: «بَشِّروا ولا تُنَفِّروا ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا»، كما أن رواج كل تجارة متوقف على تحمل خسائر الدعايات وتحمل الأتعاب لهذا قيل: «من يعرف المطلوب يحقر ما بذل».

لذلك لا يكترث المبشرون بما يضيع منهم من الأموال ولا ينتظرون حصاد زرعهم في القريب العاجل وإنما يقدرون ربع قرن ونصف قرن، أما الدعوة الإسلامية في عصرنا الحاضر فلا تدبير فيها ولا تخطيط ولا التواصل بين الماضي والحاضر، ولا التعاون بين الأمة والحكومة، ولا الزراعة قبل انتظار الحصاد ولا الدراسة قبل ادعاء الفهم.

ليس هناك معهد لتدريب الدعاة على أساليب الدعوة الناجحة، بل كل معهد يرى أنه إذا ما علم الطلاب القواعد فقد برئ من الذمة، وليس هناك هيئة

تنظم أعمال الدعوة على بصيرة وخبرة بل كل منظمة ترى أنها إذا ما كتبت في المجلات أو خطبت على المنابر التي لا يقرؤها ولا يستمع إليها إلا المسلمون فقد بلغت الرسالة، وليس هناك حكومة رصدت الدعوة كما رصدت الأموال في سبيل الدعاية لدولتها في مختلف الأقطار، وكل حكومة ترى أنها إذا ما تبرعت بعشرات الجنيهات على بعض المساجد والمعاهد ونشرت الصحف أخبار ذلك فقد أدت الواجبات.

كل داعية يريد أن يعمل لشهرته أو لمرتبه أو لحكومته، وكل صاحب فكرة أو عقيدة أو مذهب يرمي من خالفه ما لا يرضى من القول والفعل، وينسب زميله إلى البدعة والهوى والتقصير، إلى متى يستمر هذا؟

خاتمة الكتاب

وبعد...!

فلقد كتبت هذا الكتاب لقراء العربية من أبناء غرب أفريقيا ليدركوا آثار ما أسسه السابقون من أمجاد سودانية وما غرسه الأولون من ثقافات عربية ثم ما تعرضت له هذه الثقافات وتلك الأمجاد من قذائف صليبية تدمر كل شيء أتت عليه وتجعله كالرميم.

وكذلك كتبت هذا الكتاب لقراء العربية من أبناء العروبة والإسلام في كل مكان لتكون لهم فائدة الخبر أو لازم الفائدة، وليدركوا ما هنالك؛ فإن إدراك ذلك بدون ريب يوقظ الوعي، ويبعث الهمة في نفس كل غيور على دينه وثقافته فيسعى في تغيير الوضع إلى ما هو أحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد/ ١١].

ألا يا أيها العربي اعلم أنه:

مَنْ تَكُنِ العُجْمَةَ في لِسَانه قَدْ تَلْمَحُ اللوثة في بَيَانِه

﴿ نهاية المتن ﴾

مراجع الكتاب

١- تاريخ السودان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، طبع باريس.

٢- صبح الأعشى، للقلقشندي.

٣- مقدمة ابن خلدون، للعلامة ابن خلدون.

٤- تطريز الديباج، للعلامة أحمد بابا التمبكتي.

٥- إنفاق الميسور، للسلطان محمد بللو بن عثمان فودي.

٦- تزيين الورقات، للشيخ عبد الله بن فودي.

٧- ضياء السلاطين، للشيخ عبد الله بن فودي.

٨- في بلاد الزنوج، للأستاذ عبد الله حشيمة.

٩- نحن في إفريقيا، للأستاذ كامل مروة.

١٠- انتشار الإسلام في إفريقيا، للدكتور حسن إبراهيم حسن.

١١- الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، للدكتور حسن أحمد محمود.

١٢- الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد.

مُعِدّ التقديم في سطور

عبد الحفيظ أيندي أولادوسو

- باحث أكاديمي نيجيري، محاضر في الأدب العربي والإسلامي في العصر الحديث، وتواصل الثقافات بجامعة إبادن، نيجيريا.

- حصل على درجة الدكتوراه في الثقافة العربية في العصر الحديث من جامعة إبادن عام ٢٠٠١، ونال منحة جامعية لفلبريت بجامعة ماين الجنوبية، في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٦.

- نال منحة جامعية أخرى في جامعة ماساتشوستس، بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٧؛ حيث ألقى عدّة محاضرات في تضارب وتعامل الثقافات في شمال إفريقيا، وكيفية تصويرها في الأعمال الأدبية السودانية.

- في عام ٢٠١٠ عمل كباحث زائر ومحاضر بالمعهد العالمي لدراسات الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بالجامعة العالمية الإسلامية الماليزية.

- كما شارك أولادوسو في العديد من المؤتمرات الدولية، وله أوراق وكتب أكاديمية تقترب من الخمسة والثلاثين، من أهم أعماله المنشورة:

  - «ألئن وجهي أسود؟» في مجلة الأدب العربي هولندا، ٢٠٠٨.
  - «الفضاء بين الفاصلتين: عن نجيب محفوظ، والقوة والمنزلة والسّلطة» ٢٠٠٩.
  - «العنصر» في موسوعة الفكر الإفريقي جامعة أوكسفورد ٢٠١٠

اللجنة الاستشارية للمشروع

(١٤٣٤ - ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٢ - ٢٠١٣ م)

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر - رئيس اللجنة.

إبراهيم البيومي غانم (جامعة زايد، دبي)، الإمارات العربية المتحدة.

إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.

أبو يعرب المرزوقي (عضو المجلس التأسيسي، وزير مستشار لدى رئيس الحكومة التونسية في مجالي التربية والثقافة)، تونس.

جاسرعودة (مركز دراسات التشريع والأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية)، قطر.

حسن مكي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.

رضوان السيد (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.

زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة إعمار بالرياض)، السعودية.

زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.

سعيد بنسعيد العلوي (جامعة الرباط)، المغرب.

صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر- أمين اللجنة.

ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.

عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.

عمار الطالبي (جامعة الجزائر)، الجزائر.

مجدي عاشور (دار الإفتاء)، مصر.

محمد زاهد جول (كاتب وباحث)، تركيا.

محمد عمارة (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.

محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.

محمد موفق الأرناؤوط (جامعة العلوم الإسلامية العالمية)، الأردن.

مصباح الله عبد الباقي (جامعة كابول)، أفغانستان.

منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.

نور الدين الخادمي (وزير الشؤون الدينية)، تونس.

نوزاد صواش (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

صدر في هذه السلسلة

(١) **العـودة إلـى الـذات**، تأليف علي شريعتي.
(٢) **الحياة الروحية في الإسلام**، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، تأليف الطاهر الحداد.
(٤) **الإسلام دين الفطرة والحرية**، تأليف عبد العزيز جاويش.
(٥) **المـرأة والعمـل**، تأليف نبوية موسى.
(٦) **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية**، تأليف مصطفى عبد الرازق.
(٧) **دفـاع عـن الشريعة**، تأليف علال الفاسي.
(٨) **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تأليف الطاهر ابن عاشور.
(٩) **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
(١١) **المدرسـة الإسـلامية**، تأليف محمد باقر الصدر.
(١٢) **الإسلام وأصول الحكم**، تأليف علي عبد الرازق.
(١٣) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تأليف خير الدين التونسيّ.
(١٤) **الحرية الدينية في الإسلام**، تأليف عبد المتعال الصعيديّ.
(١٥) **الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية**، تأليف حسين الجسر.
(١٦) **السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**، تأليف محمد الغزالي.
(١٧) **القرآن والفلسفة**، تأليف محمد يوسف مُوسى.
(١٨) **كشف المخبَّا عن فنون أوربا**، تأليف أحمد فارس الشدياق.
(١٩) **المرشد الأمين للبنات والبنين**، تأليف رفاعة الطهطاوي.
(٢٠) **شروط النهضة**، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) **مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية**، تأليف رفاعة الطهطاويّ.
(٢٢) **نهضة الأمة وحياتها**، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) **البيان في التمدن وأسباب العمران**، تأليف رفيق العظم.
(٢٤) - (٢٥) **تحـرير المـرأة**، تأليف قاسم أمين، **وتربية المرأة والحجاب**، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) **تنبيه الأمة وتنزيه الملة**، تأليف محمد حسين النائيني، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
(٢٧) **خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني**، تأليف محمد باشا المخزومي.
(٢٨) - (٢٩) **السفور والحجاب**، تأليف نظيرة زين الدين، **ونظرات في كتاب السفور والحجاب**، تأليف مصطفى الغلاييني.
(٣٠) **في الاجتماع السياسي الإسلامي**، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
(٣١) **لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟**، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
(٣٢) **المدنية الإسلامية**، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة محمد م الأرناؤوط.
(٣٣) **المدنيـة والإسلام**، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) **المسـئلة الشرقية**، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) **وجهة العالم الإسلامي**، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
(٣٦) **طلعة الشمس شرح شمس الأصول**، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.
(٣٧) **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، تأليف محمد بن علي الشوكاني.
(٣٨) **الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني**؛ تأليف آدم عبد الله الإلوري.
(٣٩) **أم القرى**، تأليف السيد الفراتي (عبد الرحمن الكواكبي).
(٤٠) **تجديد الفقه ونصوص أخرى**، تأليف محمد بن الحسن الحَجْوي.
(٤١) **الحضارة الإسلامية**، تأليف أحمد زكي.
(٤٢) **الرسالة الخالدة**، تأليف عبد الرحمن عزام.
(٤٣) **مسألة الخلافة وجزيرة العرب**، تأليف أبي الكلام آزاد، ترجمة مصباح الله عبد الباقي.
(٤٤) **النبأ العظيم .. نظرات جديدة في القرآن**، تأليف محمد عبد الله دراز.

’AL-’ISLĀM FĪ NAYJĪRYA WA ’AL-ŠAYKH

‘Uthmān bin-Fūdī ’al-Fūlānī
’Ādam ‘Abdullāh ’al-’Illūrī

DAR AL-KITAB AL-MASRI
DAR AL-KITAB AL-LUBNANI

’AL-’ISLĀM FĪ NAYJĪRYA
WA ’AL-ŠAYKH

دار الكتاب المصري
القاهرة

لا يهدف المشروع فقط إلى إعادة إصدار آخر طبعة أصلية صدرت في حياة المؤلف ـ حتى نتجنب ما تم من تحريف مقصود أو غير مقصود على يد بعض الناشرين للكتب بعد رحيل المؤلف ـ وإنما يتم أيضا إعداد دراسة تقديمية موسعة لكل كتاب، يقوم بها باحثون متخصصون، في محاولة لعرض فكرة الكتاب وقضيته المحورية في ضوء القضايا المطروحة في سياق ذلك العصر، وفي ضوء المشروع الفكري للمؤلف. وتقوم اللجنة العلمية للمشروع بمراجعة هذه الدراسات التقديمية وعقد مناقشات مفتوحة لأصحابها مع نظرائهم من الباحثين وذلك قبل إقرارها للنشر.



في الفكر النهضوي الإسلامي

’AL-’ISLĀM FĪ NAYJĪRYA WA ’AL-ŠAYKH ‘UTHMĀN BIN-FŪDĪ ’AL-FŪLĀNĪ

’Ādam ‘Abdullāh ’al-’Illūrī

(38)

هذا الكتاب

طُبع لأول مرة عام (١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م) لأجل سدّ الفراغ في المكتبات عن الإسلام في إفريقيا، وخاصة بلاد السودان الغربي أو بلاد «التكرور» -نيجيريا- التي دخلها الإسلام منذ نحو ألف سنة مضت، لتصبح جزءًا من العالم الإسلامي، ومنطقة ذات ثقافة مكتملة وحضارة مزدهرة. ولكنها انطوت منذ عصور في زوايا المجاهيل من أثر ما أصابها من تدهور وانحطاط وحروب؛ فجاء الكتاب ليكشف اللثام عن هذه الجهات المجهولة، ويثلج بعض الصدور الغليلة. ويبيِّن الدور والنقلة اللتين أحدثهما الإسلام في نيجيريا منذ دخوله تلك البلاد، وتاريخ ذلك وتأثيره على حياة الناس ومعيشتهم وثقافتهم.

كذلك يتناول الكتاب دور واحد من أبرز مُصلحي هذه المنطقة ألا وهو الشيخ عثمان بن فوديو الفلاني وآثاره الإصلاحية، والذي يعتبر المؤلف امتدادًا لمدرسته.

يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر

أ.د/ أحمد محمد الطيب



ISBN: 978-977-452-246-4

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT